الانسان عند الشعراء الصعاليك

في العصر الجاهلي

منذر محمد ابراهيم القاسم الزعبي

سنة التخرج ١٩٨٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الإنسان عند الشعراء الصعاليك
في العصر الجاهلي

إعداد الطالب : منذر محمد الزعبي

ليسانس في اللغة العربية وآدابها - جامعة بيروت العربية ١٩٨٠

دبلوم في البلاغة والنقد - جامعة الأزهر ١٩٨٦

دبلوم في التربية - جامعة اليرموك ١٩٨٧

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة اليرموك تخصص (أدب ونقد)

لجنة المناقشة

الدكتور عبد القادر الرباعي (المشرف) : رئيساً

الدكتور قاسم المومني : عضواً

الدكتور ماجد جعافرة : عضواً

١٩٨٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإنسان عند الشعراء الصعاليك
في العصر الجاهلي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بسم الله الرحمن الرحيم

شـكر وتقديـر

بالشكر والامتنان أتقدم لأستاذى المشرف الدكتـــور عبد القـادر رباعي مدير مركز الدراسات الاسلامية بجامعة اليرموك علـى فضل رعايتـه المتواصلة المتسمة بالصبر العلمي الفذ والحرص الشديد على أن يتســلّح تلميذه بالمنطق العلمي الصرف ٠

كما أشكر للدكتور قاسم مومني والدكتور ماجد جعافره ما بـــذلاه من جهد دؤوب وتحـرّ دقيق توخيا للحقيقـة ورفد هـذا البحث بحسن التقويم والتوجيـــه مؤكـــدا بانـــني سأقتص آثارهمـا وأقتفي آراء همـا والله الموفـــق ٠

الطالب /
منذر محمد الزعـــــــبي
١٩٨٩ م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المقدمـــــــة

يقوم هذا البحث على دراسة عدد من القضايا المتصلة بحياة الصعاليك في العصر الجاهلي ، فـــي بعديها المادي والروحي من جهة ، وعلى مدى توافق أو تعارض موقف هذه الجماعة مع ما درج عليه المجتمع في ذلك العصر من جهة أخرى .

وقد شدّني لاختيار هذه الدراسة أمور منها :

أولا : إن أكثر ما كتب عنهم يدور أغلبه حول أعمالهم السلبية من إغارة ونهب وترصّد وشـقّ عصا الجماعة .

ثانيا : وعيهم الفطري المبكر لما ساد في مجتمعهم من الطبقية والاستغلال والاستئثار .

ثالثا : إن مانادوا بـــه من الحقوق بشكّل ما يمكن تسميته بوحدة الغاية عند الإنسان فـــي كل زمان ومكان .

رابعا : رؤيتهم الخاصة للحياة وأسلوب عيشهم المتميز ، مع أنهم لم يختلفوا عن كثـــــير من الناس بيئة ووراثة .

خامسا : نزوعهم إلى تجاوز ما ألفه المجتمع من أنماط حياتية .

وقد نهجت في هذا نهجا نفسيا من خلال رؤية فنّية وذلك بإخضاع أعمالهم الشعرية للتحليـــل النفسي مما يكاد يشكل وعيا مشتركا في مواجهتهم ظروف الحياة . كالبحث عن بواعث الرفض النفسية ما ظهر في تجاربهم الشعرية منها وما بطن .

تتألف هذه الدراسة من عرض تمهيد وخمسة فصول . يتحدث التمهيد عن الحياة العربية فـــي العصر الجاهلي ، وما اتسمت به من تباين حادّ في العِرق والاقتصاد والسلوك ، مما أدى إلى تحـــوّلات نفسية واجتماعية نجم عنها ظاهرة جماعية معقدة منتهيا من هذه الملامح إلى تحديد مفهوم الصعاليـــك ، وما رافق هذا المصطلح من أسماء أخرى مستأنسا بشعرهم في تنوير هذه الاسماء أو الصفات .

الفصل الأول يتحدث عن الجانب المادي في حياة الصعاليك ، وهو يشمل مشكلة الغذاء والكســـاء والمسكن ، وما يساعد على تحقيق احتياجاته المادية من قوة جسدية وسلاح .

وقد تبين للباحث مما قالوه أنهم لم يختاروا أسلوب النهب إلا لإنقاذ حياتهم وحياة غيرهـــــم ، وأنهم لم ينتزعوا القوت إلا ممن اتسعت نعمته وقَبَض يده ، مع محاولة الصعاليك لإطواء ما يتطلبـــــه

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجسد ، حتى كادت مشكلة الغذاء عندهم تتجاوز الكيان المادى • أما حديثهم عن اللباس والزينة فقليل ، ولعل ذلك راجع إلى تعارض كثافة اللباس وانطلاقهم • لكني ألاحظ اهتمامهم بالنعال، ولا غرابة في هذا الأمر ، فالنعال ينسجم مع حاجتهم لمقاومة صلابة الجبال وحرّ الصحراء •

أما السلاح فقد عدّوه جزءا من كيانهم ، وأسبغوا عليه من الوصف مثلما وصفوا به أنفسهم من اقتدار ومبادرة سريعة • ولايخفى ما كان بطبيعة حياتهم من أثر في تكوينهم الجسدى وما نشأ عنه من سرعة متميزة في العدو كانت مناط افتخارهم في الشعر •

واستجابةً لحاجة الأمن والانعتاق ، والتماس التفرد بعلوّ المكانة اتخذ الصعاليك المراقب لتقو م بوظيفة السكن والتحصين وغيرها •

والفصل الثاني تحدثت فيه عن الجانب الروحي الذى شمل معتقدات الصعاليك كالخرافات والأساطير والموت والدهر وبعض الطقوس الدينية • وتحدثت عن قيمهم الخلقية من صبر وإيثار ونزوع للحرية، وهم يصلون بها إلى درجة لايرقى إليها غيرهم وخاصة في التسامي عن مطالب الجسد •

ويتضمن **الفصل الثالث** علاقاتهم الاجتماعية متمثلة في العلاقة مع القبيلة التي ينتسبون اليها ، فالأبوين ، فالأبناء ، فالأخوة والرفاق ، فالجار ، فالمرأة ، فالقبائل الأخرى • متبعا هذا الترتيب وفق أهميته كما تنطق به أشعارهم • وقد أوليت علاقتهم بقبيلتهم عناية خاصة لأنها من أقوى الأسباب التي ساعدت على تشكيل هذه الجماعة • وقد تبين لي أن العداء لقبيلتهم لم يتأصل في أعماق الجميع ، فكان بعضهم ينتظر ما يفسح لعهد جديد مع قبيلته وخاصة حين يشعرون بخطر يهدد كيانها •

وقد حلّت علاقتهم مع أصحابهم محل علاقتهم بالقبيلة بعد تخليها عنهم ، وهذه ظاهرة جديدة مغايرة لما درج عليه المجتمع من الاستبقاء التكويني المتمثل في اللحمة القبلية •

أما العلاقات الأخرى فهي ذات أبعاد متفاوتة ، وهي في كثير من جوانبها لم تخرج عن نطاق ما كان في مجتمعهم •

والفصل الرابع يقدم صورة عن علاقة الانسان بموجودات الكون ، مما كان له أثره في صياغة وجداناتهم ، من ديار ومشاهدات في الطبيعة الحية والصامتة ، والحقيقية والوهمية •

إن علاقتهم بالديار تمثلت في شبكة من العلاقات ، فهي في القبيلة إذ يحن اليها شعراؤهم وهي في مواقع الماء وأماكن النصر ونقاط التقاء الأصحاب والأحبّة •

أما علاقتهم بالطبيعة /الأرض فأشد غرابة من سائر العلاقات في هذا الفصل، ووجه الغرابة يتضح في رفض الواقع والاستئناس بالأوابد، ولو صار واطعمة للطير والحيوان • كما يبدو في تقديس الليل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لأنه أنسب من النهار لانتزاع حقوقهم والتماس رزقهم . وهم أشدّ ألَقاً فيه من النهار أيضا كما يتحدث الفصل عن الشمس والماء وغيرهما مما ترك آثارا بيّنة في حياتهم فانعكس على أعمالهم الشعرية .

أما **الفصل الخامس** فخصصته لتلمّس القضايا الفنية المتعلقة بالإنسان في شعرهم من حيث اللغة والصورة ، والوزن والأبحر العروضية .

ففي اللغة أحسست بغرابة في مادة شعرهم اللغوبة التي تأثرت بأنماط معيشتهم ومشاهداتهم الغريبة . وقد لوحظ أن صورهم ارتبطت أيضا بواقع حياتهم وما اتسمت به من علاقات متضادة . ولا شك أن مواجهة القوة بالقوة تعمل على تعميق فاعلية الموقف الشعرى وتنوير صورته .

أما الموسيقى الشعرية فقد تبين أنها متغيرة بتغيّر الحالات الداخلية في نفس الشاعر . فما كان من هذه التغيرات ذا هدوء نفسي أرسل إيقاعات طويلة وتجربة طويلة ، وما كان يحتاج إلى انعطاف سريع أو مفاجأة جاء على نظام موسيقي سريع وقصير .

ثم **ختمت البحث** بإلقاء أضواء تحليلية على نص شعرى لتأبط شرّا تجليةً لما قدمته في القضايا الفنية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بسم الله الرحمن الرحيم

- تمهيـــد -

ملامح الحياة العربيـــة في العصر الجاهلـــي

- ١ -

لعلّ أظهر ما وسمت به حياة العرب في الجاهلية بكيانها الكلّي : الجغرافي والاجتماعـــي والعلائقي والمناخي والأسطوري ، وغير ذلك هو قوة الصبر ، واحتمال الشظف ، والاستعصاء والتعالـــي والتمـــرد .

صحارى البلاد العربية بكثبانها المترامية ، ورياحها السمومية العاتية ، وجبالها الشامخـة ، ووهادها العميقة ، وحرارتها اللاهبة ، شكّل نماذج نباتية وحيوانية ، ونماذج إنسانية أكدت كيانهـــا بصلابة متمردة لمواجهة هذه الطبيعة الجغرافية .

يتمثل الصبر والتعالي والالتصاق بالطبيعـــة بأشجار النخيل ، وهي رمز لإرادة الاستمرار والديمومة المستمدة من عمق الصحراء .

ويتمثل رفيق الزمن العربي والهموم العربية اذ ذاك في الجمل . فهو نخلة ثانية ولكنه يتنقـل . " فالأبل هي عماد الحياة البدوية ، هي خير مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم ، فحياة العرب فـــي الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل ، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالابل ، فلم يـــترك العرب صغيرة ولا كبيرة - مما يتعلق بها - الاّ وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ ، فوضعوا الألفـــاظ لها ، ولحملها ونِتاجها ، ووضعوا الأسماء لأسنانها (أعمارها) ، وحلبها ، ورضاعها وفطامهـــا ، ونعوتها في طولها وقصرها ، وسمنها وهزالها ، وأصواتها وأوبارها ... "(١)

وهذه الصحارى كما يصفها غوستاف لوبون : " خالية من الطرق المعبدة . والطرق التي تسلكها القوافل هي الأودية والأخاديد ... وأكثر مسالك العرب استطراقا : الطريق التي بين دمشق وبغـــداد ، والطرق التي تبدأ من مدينة الرياض النجدية وتنتهي بمكة ومسقط وبغداد ودمشق "(٢)

هذه الطبيعة العصيـــة المكتنزة بمعالم العنف صبغت إنسانها بمثل ما اصطبغت به ، أذ أقامت بينهما حركة متناظرة حينا ، ومتقابلة حينا آخر .

---

(١) فجر الاسلام . أحمد أمين ، دار الكتب العربية ، بيروت . ص٢٧

(٢) حضارة العـــرب . جوستاف لوبون . نقله الى العربية عادل زعيتر ، ص ٦٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

و " هذا النوع من البيئة حدّد نوع معيشتهم . فهم رحّل ، يتطلبون الكلأ ، وهم فقـــــراء ثروتهم في كثرة ماشيتهم ، وهذه الثروة تحت رحمة الطبيعة ، فقد تنفق الماشية ، وينضب ماء الآبـار ، ويقل المطر فيقل المرعى ، ويسوء العيش . وبحـقٍ سمّوا المطر غيثا ، وهذا النوع من البيئـــة أيضا حدد نوع أخلاقهم وعقيدتهم ، أليس البؤس هو الذى جعل الكرم وإطعام الطعام ، وإيقاد النـــيران ليهتدى بها الضيفان في مقدمة الفضائل ؟! أوليس هذا الفقر هو الذى حبب اليهم الإغارة ؟! "(١)

فالذى خلق الإنسان أودع روحه ذلك السرّ الذى ينزع به الى التشكل والتوازن وفق مقتضيات عصره ومعطيات بيئته ، واستعداداته الخاصة . ومدّ بصره الى ما هو أبعد من واقعه ، ذلك أن قانون بنـــاء الحياة يقوم على النبذ والاختيار ، والهدم والبناء ، والإدبار والإقبال .

فعلى المستوى المعيشي : " النباتات خلقت للحيوانات ، والحيوانات للانسان "(٢)

وعلى المستوى النفسي : نجد أفرادا يتمتعون بحق السيطرة والقيادة والتوجيه ، وآخريـــن يؤدون الطاعة والإذعان والعبودية .

ان الضدية التي تلتقي في طبيعة الحياة عبر امتداداتها وأبعادها المختلفة أوجدت في الانســان بصورة عامة صفة الثنائية ، ولعلها كانت أعمق استغوارا في الصحراء العربية وإنسانها في ذلـــك العصـــر .

يقول ديفرجه : " قد يكون أظهر ما في الأعراب هو أنهم جماع الأضداد ، فالنهب والكـــرم ، والسلب والجود ، والقسوة والنبل ، وغير ذلك من الصفات التي تدعو الى المقت والإعجاب في وقـــت واحد مما نراه في الأعراب ، وليس في ذلك ما يعذر به الأعراب لو لم نلاحظ أنهم محكوم عليهم بالاكتفـاء بما تنتجه بلادهم التي هي أكثر أراضي العالم جدوبة ، ويعتذر الأعراب عن النهب بأنهم محرومـــون " لفقـــر بلادهم طيب العيش ، ووفرة الغلات والكلأ مما لم يعرفه امة اخرى ، وبأنهم يزيلون هـــذا الحيف المقدّر بأسنة رماحهم معتقدين أن من الحلال دهم القوافل وسلب ما بأيديها تعويضا لهـــم ممّا لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة . "(٣)

فالانسان فاعل مستجيب للطبيعة عبر وعيه وحضور قدراته ، وعبر ما يخفي من كوامنه عن أنظـــار الناس ، وانظاره (اللاشعور) .

وقد كشف علماء النفس والاجتماع أن ، كل مجتمع خصائص بنائية وسلوكية تعتمد على خصائـــص العناصر التي تؤلفها . " فابن خلدون يرى شكلين للمجتمع البشرى يمر بهما في تطوره ، وهمـــا

---

(١) فجر الاسلام ، أحمد أمين ، ص ٤٦ .
(٢) المذاهب الأخلاقية ، عادل العوا ، ج ١ ، ص ١١٥ .
(٣) حضارة العرب ، ص ٩٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

البدو والحضر ، ويجدهما طبيعيين ولكنهما مختلفان في أوصاف أجيالهما النفسية ، والبدو بصورة عامة أقرب الى الشجاعة والتضامن والعصبة والخلال الحميدة وأسرع الى التقلب ، والحضر أقرب الى الرفاهية والتأنق وأبعد عن تلك الخلائق المحمودة ."(١)

في جسد هذه الصحراء انغرست قدما الانسان العربي (الأعرابي) ، ومنها استمد أهم خصائصه الإنسانية ، المادية منها والتجريدية . وأول هذه الخصائص الصبر المتكبر في مواجهة الصلابة الصحراوية من ناحية ، والنزوع الى التماسك كالبنيان المرصوص شكلا ومضمونا في لحمة القبيلة بمثلها وتطلعاتها وصبواتها ان لم يتعارض ذلك مع حقوق الفرد من جهة ، ومواضعات القبيلة من جهة أخرى .

يرى " مكدوجل " أن المشاركة الوجدانية تلعب دورا أهم مما تلعبه النزعات الاجتماعية الأخرى في احداث التماسك بين أفراد الجماعة . ويلاحظ أن الجماعات تميل الى التجانس من حيث الجوّ الوجدانيّ الذى يشيع فيها ، واذا بدأ فرد في جماعة ما يشذّ عنها في الحالة الوجدانية فإنه سرعان ما يميل الى مسايرة الجماعة ، واذا لم يتمكن من هذا تميل عادة الى إبعاده عنها حتى يتمّ لها الشعور بالتجانس الوجداني " .(٢)

لا بدّ للانسان والحالة هذه من إثبات كينونته بتعيين علاقاته مع الطبيعة ليحقق أكبر قدر من التعايش والانسجام مع الواقع . وبمعنى آخر أن يكون ذا موقف ، أو أن يهجس على الأقل بموقف ، سواء أكان موقفه متناغما وحركة الواقع ، أو متعارضا معها لأن " التجمع الانساني ليس نمطيّا منذ الأزل والى الأبد ، بل تتغير أنماطه وقوالبه استجابة للمواقف المختلفة " .(٣)

- ٢ -

انّ تحقيق الذات قد يؤدى الى سلسلة من التناقضات ، وتصارع النزعات التي تعود في نشأتها في الأغلب الى التمايز الطبقي بين أفراد الجماعة الواحدة تمايزا اقتصاديا واجتماعيا /ونفسيا . وهنا يصبح الاهتمام موجها الى الداخل (الذات) بقدر ما يتضاءل من الخارج (المجتمع) .

ويستمر نمو خمائر هذا الاتجاه وتكاثف مكوّناته ومسوّغاته الى أن يصبح قوة إعصارية يصعب السيطرة على انفلاتها . ويصبح اى سلوك مهما كان ضئيلا في تعميق هذا التمايز ... مبررا للانطلاق والانجذاب نحو تكوين علاقات جديدة . فهل اتسم المجتمع الجاهلي بالتوازن الاقتصادى والتجانس الاجتماعي / النفسي ؟ .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، ط ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) علم النفس ، د. عبد العزيز القوصي ، ط ٧ ، ص ١٩٤ .

(٣) الانسان ، دراسة في النوع والحضارة ، د. محمد رياض ، ط ٢ ، ١٩٧٤ ، ص ٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الذى قاله المؤرخون : إن الحياة في المجتمع الجاهلي سخت لأهل الحضر ، وأبقت بين أيديهم نعماً كثيرة دون حساب ، في المطعم والمسكن والملبس ، وشحّت على البدو في كافة الحاجات المادية والمعنوية .(١) وفي غياب الشارع والقوانين تنطلق اليد لغائبة الأهواء وشهوة التسلط مما يؤدى بالتالي الى فقدان العدالة التعويضية ، والعدالة التوزيعية اللتين تعدّان أساس الفضيلة كما يرى أرسطو .(٢)

وقد تزداد الفروق نفسها حدة بين أفراد القبيلة الواحدة حين تتخذ رابطة الدم نقطة ارتكاز ثابتة لتقسيم القبيلة الى عناصر أصيلة ودخيلة ، وبذلك تتحد الفضيلة الدموية مع الحالة الاقتصادية لتحديد المكانة الاجتماعية ... بل القيمة الانسانية . وهنا تتناقض فرص التكيّف في صيغة الكينونة الاجتماعية ، لتصبح فرص التضارب والانفصام أكثر الحاحا .

وهذه الصياغة الجديدة النابعة من الحاجات المادية والنفسية معا لا تلبث أن تتبلور " قيمة " ينسى ازاءها كل الحاجات العضوية ، بدليل أن هذا الانسان الذى يبدأ بالمطالبة سرعان ما تندمج رغائبه في وجود كلّي سواء كان ذلك من بواعثه الواعية أو الباطنة . وعندئذ يصير أسيرا لولاءات جديدة " القيمة " في واقعه وفي هواجسه ، في صمته وفي تعبيره ، في سكونه وفي ارتعاشه .

ومن المعتقدات الراجحة قديمها وحديثها أن الانسان يتأثر بالمحيط الذى يعيش فيه طوعا أو كرها ، فهو على ما يرى ديكارت على سبيل المثال : " جزء من الكون ، وهو بوجه أخص جزء من هذه الأرض ، وهذه الدولة ، وهذا المجتمع ، وهذه الأسرة ، تربطنا بهذه الوقائع رابطة السكن أو الولاء أو الولادة " .(٣)

فالانسان يشرب الطبيعة - ان جاز هذا التصوير - فتندمج ذراتها في بنائه الجسدى والعقلي والنفسي والروحي .

استرشد عمر بن الخطاب بأحد حكماء زمانه لمعرفة طبيعة البلاد ليتخذ منها عمر سكنا ومقرّا ، فكان مما كتب به الحكيم في وصف البلاد العربية .(٤)

---

(١) حضارة العرب ، ص ٨٨ ، مقدمة ابن خلدون / ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ ، ش ٤ ، جـ ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) العدالة التعويضية ترجع إلى القضاء وتستهدف تعويض المظلوم من الظالم ، أما التوزيعية فترجع الى توزيع أموال الوطن وقسمة خيراته بين المواطنين كما في : (المذاهب الاخلاقية) ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) مروج الذهب ، المسعودى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ط ٥ ، ١٩٧٣ ، جـ ٢ ، ص ٦٢ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

" وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم ، هواؤه حرور ، وليله بهور ، ينحف الاجسام ، ويجفف الأدمغة ، ويشجع القلوب ، ويبسط الهمم ، ويبعث على الأخذ ، وهو بلد محل فخط جدب ضنك . "(١)

هكذا تصبح التجربة الإنسانية المعادل الموضوعي للذات متفاعلة مع علاقتها بالظواهر الخارجية .

ومع كل دفقة من المعطيات الطبيعية يتخلق واقع جديد في البناء الاجتماعي والنفسي للفرد ، شكلا أومضمونا أو الإثنين معا .

ويمضي الحكيم في تفسير ذلك للخليفة عمر قائلا :
والأخلاق والصور - يا أمير المؤمنين - تناسب البلد وتحاذيه ، وتقاربه ، وتوافقه وتضاهيه ، وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخفّ ماؤه ، ولطف غذاؤه - كانت صورة أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسس عليه بنيانه . (وكل بلد يزول عن الاعتدال ، انتسب أهله الى سواء الحال) .(٢)

على مثل هذا السديم نبتت حياة الإنسان الجاهلي . تجربة وموقفا ورؤيا .. وتعاظمت في ذاتيته وضميره امتدادات واقعة بوضعها المتجانس أحيانا ، وبوضعها المتنافر أحيانا أخرى .

يصف د. أحمد كمال زكي بناء هذا العصر بأن " المجتمع الأكبر منه كان طبقتين : السادة الذين يملكون ، والفقراء الذين كان منهم العبيد . وفي وسعنا أن نلمس هاتين الطبقتين في البدو ، فنجد منهم طبقة أصحاب الإبل ، وهم يشبهون السادة سكان المدن مع الفارق في (نوع) الحياة والأخذ بها . كما نجد منهم هذه الطبقة الفقيرة التي لا تملك شيئا . وكان الفرق الإقتصادي بينهما من السعة بحيث كان البدوي الفقير لا يجد مناصا من السطو على الأغنياء ، والترصّد للقوافل في عرض الطريق " .(٣)

والارتباط هذا بين الحياة الوجدانية والجسمية والعقلية من جهة ، وبين الحياة الطبيعية والتعضون فيها سلبا أو إيجابا ليس أمرا اختياريا .

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
(٣) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والاسلامي ، د. أحمد كمال زكي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٧٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كان من أخطر التشكيلات الطبيعية على مسرح الحياة العربية في العصر الجاهلي ممتدة الى ما وراءه بعدة قرون - مع الفارق في الدرجة - ما يسمى بطبقة الصعاليك .

وقد يبدو من الأنسب أن أمهد للحديث عنها بذكر الأسباب الداخلية والخارجية التي هيأت لتكوينها .

ويمكن إرجاع ذلك لثلاثة عوامل :

أ - التباين العرقي .
ب - التباين الإنتاجي .
جـ - التباين السلوكي .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ - التباين العرقـــي :

بدأ التنازع بالأنساب عند العرب قديما ، وقد تعود رواسبه الى ما قبل الفترة الـــتي يحددها المؤرخون للجاهلية ٠

والأنساب كان لها الدور الأساسي في صياغة المجتمع العربي وفرض تعاليمه وقوانينـــه ، وفي معانيه المجردة والرمزية ٠٠٠

وقد عُني المؤرخون القدامى بتتبع الأصول التاريخية منذ تفرق ولد نوح في الأرض : ذكر المسعودى أنه : " لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حـــتى قطنوا نيل مصر ، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمّنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجـة والزنـــج ٠٠٠[١] الى أن يقول : ولما لم يبال من قدمنا ذكره من تشريف النبط وتفضيلهـــم على ولد قحطان وعدنان ومنهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزة قال لهم المحتجّ عـــن قحطان ونزار : اذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من ســـلبه النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فللعرب أيضا التعلـــق بهذه العلـــة ٠٠٠ "[٢]

انسحبت هذه الرواسب من الاهتمامات العلائقية على المجتمع العربي في الجاهليـــة ٠٠٠ ذلك المجتمع الذى كوّن محتواه أمشاج كثيرة من الجماعات التي دخلت في بناء القبيلة مـــن حبشية ورومية وفارسية وسائر الأمم المجاورة ٠

ولما كانت هذه العناصر الغريبة ليست من دم القبيلة ، انما هي عرض في كيانهـــا ، فان عرضية هذا التداخل تقلل من احتمال وقوع التضامن الحقيقي بينها وبين تكوين القبيلة ، ولعله يميل بها الى الجنوح أكثر من الدمج ٠٠٠

واذا عرفنا أن هؤلاء المجلوبين لم يكن حالهم بأفضل من العبيد عند الأغريق ، اذ لم يكـن لهم " من الانسانية سوى الشكل الخارجي ، وأن احدهم عباره عن ذراعين وقدمين ، فهو آلة وآلـــة حية وحسب "٠[٣] وفي القبيلة العربية للافتداء والحلـــب والصـــر ٠٠٠ اذا عرفنا هذا كلـــه أمكن القول : ان هذه القيمة لا تشكل انتماء فعليا ، وليس لهذه الفئات الغريبة إلا أحد الخيارين : اما الرضا بالواقع ، والتعايش مع الحاضر على الرغم من الحنق الكامن في النفس من سوء هـــذا

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤ ٠

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٥٤ ٠

(٣) المذاهب الأخلاقية ، عادل العوّا ، ط ٢ ، ج ١ ، ص ١١٤ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحاضر وأذى الواقع . واما أن ينطلق بنفسه من تحت الركام الخانق دون مجاملة ومحابـــــاة لتأمين لقمة العيش . وهذان الخياران هما النتيجة المنطقية لمثل هذا التركيب الاجتماعي .

وحين يتقابل في الكيان الواحد البرج والقاع ، والوجود والانمحاء ، والخلو والامتلاء ، والتوارى والاستعلاء ينفسح المجال لتشكيل تيارات معارضة للمجتمع .

ولا شك بأن " طول معاناة الانسان المسحوق ، ومدى القهر والتسلط الذى فرض عليـــه - ينعكس على تجربته الوجودية للديمومة على شكل تضخم آلام الماضي ، وتأزّم في معالجة الحاضر وانسداد آفاق المستقبل ."[1] أى أن استمرار هذه الأحوال يضع الانسان في عنق زجاجة ويعجـــز عن تحليل الوضع ومعالجته .

أخذ التمايز القائم على العرق في القبيلة يتزايد ، ومع تزايده يتعاظم الاحساس بـــه وبضرورة الانسلاخ عن مسبباته ، اذ أن الصعاليك " أصبحوا في حالة لا يسكتون فيها على تهمة توجّه إليهم ، أو على نظرة غضب تقدمها العيون . كحجّر على سودهم وعلى ماضيهم ."[2]

---

(١) التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الانسان المقهور ، د. مصطفى حجازى ، معهد الاتحاد العربي ، فرع لبنان ، ص ٦٥ .

(٢) الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، د. عبده بدوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ٥٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - التباين الإنتاجـــــي :-

لم تكن الإمكانات الاقتصادية - على قلتها - في العصر الجاهلي وخاصة الصحراوية منهـا مبنية على أسس سليمة . بل هي في توزعها لا تقل تمايزا عن الحالة الاجتماعية السابقـــة . " والمجتمع البدوى من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتـــين أساسيتين : طبقة أصحاب الأبل أو " أرباب المخائض" كما يسميهم بعض الشعراء ، وطبقـــة الصعاليك ... "(١)

إنّ هذا النموّ الإنفصامي رافقه إحساس في التأمل والتساؤل والقلق إلى غير ذلك من سلسلة الصيغ الجدلية بين ممثلي الصدارة ومن يعيش على الهامش ... ثم ما لثبت أن تحولت الى إعادة نظر جدّية لإقامة علائق حديثة على أساس من وسائل الإنتاج تتمثل في حدة الصراع .

"وفي أحيان كثيرة كان يترتب على هذا الصراع هجرة القوة الأضعف في طريق النزاع خارج المجتمع . ولعل ذلك هو واحد من أهمّ أسباب الهجرة القديمة إلى جانب زيادة السكان عن طاقـة الأرض المنتجة طبعا . لكن علينا أن نلاحظ أن عملية خروج بعض الأفراد عن المجتمع التقليدى ، بالهجرة ، عملية تحتاج الى شجاعة نادرة لأنها في أقرب صورها لنا تشبه عملية النفي خـــارج الوطن بكل ما في ذلك من العوامل النفسية والعاطفية . "(٢)

ان العسر الذى ألقى كَلْكلهُ على بعض الأفراد كان استضعافا لهم واغتيالا لحياة الكثيرين . قال لقمان لابنه : يا بني أكلت الحنظل ، وذقت الصبر ، فلم أر شيئا أمرّ من الفقر ، فـــأن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك ."(٣)

إن مشكلة الفقر والجوع أخذت تبرز أمامهم لا مجرد احساس بها فحسب ، ولكن بضرورة مقاومتهـــا .

وفي المجتمع البدوى قلّما يتجه الاحساس الى تشكيل أنساق منظمة إنما تأخذ المشكلـــة حركات من التداعيات العاطفية التي لا تسمح بوضع حل للمشكلة . وأكثر ما ينجذب اليه إحساس البدوى هو أن يكون أكثر مما هو عليه . انه لم يخلق ليكون دمية بيد الآخرين . هذا هو حلمه .

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، ص ١٤٥ .
أرباب المخائض : التسمية ليزيد بن الصقيل ، الكامل للمبرد ، مكتبة المعارف ، جـ ١ ، ص ٦١ .
(٢) الانسان ، د. محمد رياض ، ط ٢ ، ص ٣١١ . دار النهضة العربية / بيروت .
(٣) المستطرف ، أبو الفتح الأبشيهي ، دار الفكر ، بيروت ، ص ٤٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شخّص أمام ناظريه الانفلات من الواقع الى مكان أكثر عدلا وأوفر حرية ... ولو كان بين الأوابد الكاسرة وجوارح الطير .

ويستمر هذا النزوع النفسي عند الفقراء كلما ظهر لهم استخفاف الطبقة الغنية بهم ، وميلها لعدم الاعتراف بحقوقهم .

على أن هذا القلق الناجم عن هذا التضاد قد تفيض به النفس على صورة نقمة علنية في وجه المجتمع الظالم ، وقد تنضح به على صور الشكوى من جور الزمان ، أو العداء مع القدر أو الزهد في الحياة . وربما استمر غيظا كظيما وكمدا كامنا في خبايا النفس .

هذه الحياة الواقعية المتمثلة بالتباين الاقتصادي سقطت على نفس ذات خصوصية فردية عضوية ، تحول بينهم وبين الفهم الشمولي العميق الذي يساعدها على التكيّف والسيطرة على بيئتها . " فالعربي في جاهليته - كما يرى أدونيس - من نماذجنا المثالية الأولى : يشتهي الأشياء ، يلتهمها آتيا عليها ، باحثا عن سواها . العلاقة بينه وبين ما حوله كعلاقة الخالق بمخلوقاته : ترفض الثبات والمحدودية ، وتقدس العقل والحركة . الجاهلي عدوّ الوجود الثابت " (١) .

ان كل تجاهل من المجتمع لمتطلبات أفراده معناه القهر الذي يزيد التوجه للانفصام عن ذلك المجتمع والتشبث بحياة أفضل .

" والناس يوصفون بأنهم خاضعون للقهر حينما يعملون أو يمتنعون عن العمل بخلاف الطريقة التي يختارونها لأنفسهم أو التي يصح أن يختاروها في ظروف معينة ، لا لشيء الا لمجرد أن غيرهم قد تعمد أن يحد من مجال اختيارهم ، إما بطريقة مباشرة ، بغرض الضغط على هذا الاختيار ، وإما بطريقة غير مباشرة بالتخويف من سوء العاقبة " .(٢)

ذلك الاحساس الناتج عن هذه الحياة وما بها من أنماط القهر النفسي لا بدّ أن يعمل على بناء كيان جديد بقدر ما يتداعى الكيان الأول ، ذلك لأن مادته حياتية معايشة إنسانية .

ولأنها علاقة كينونة ذات شرايين ملتحمة التحاما ضروريا . وما كانت معظم مظاهر العنف الداخلية لتشق طريقها إلا من داخل ركام المظالم . واذا لم يقدر لهذه الحركات أن تترجم الى واقع محسوس ، فتقف في وجه الظلم وجها لوجه فإنها تتوغل في بواطن النفس الخفية (فيما يسميه علماء النفس باللاشعور) . وربما اتخذت تعبيرا مقنّعا بالرموز الغيبية ، حيث يبقى الإنسان هائما على

---

(١) مقدمة للشعر العربي ، أدونيس ، دار العودة ، بيروت ، ص ٤٦ .

(٢) المجتمع ر.م ماكيفر وشارلز . هـ . بيرج ، ص ٣٠٨ . ترجمة علي أحمد عيسى ، الناشر ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، ص ٧٤ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أجنحة من الأوهام والأساطير خلاصا مما يعانيه .

على أية حال لم تنشأ حركة العنف هذه إلا بعد غيظ محتدم . وقد يكون في قول البيركامو التالي ما يجلّي هذا الموقف :

" لقد تحمل العبد كل التعسفات السابقة لحركة التمرد بل كثيرا ما تقبل دون تمرد ، او أمر أقسى من الأمر الذى يثير الآن رفضه - لقد كان يلوذ بالصبر ، وبما كان يدفن هذه الأوامر المتعسفة في أعماق ذاته ، ومع نفاذ الصبر وانعدامه ، تبدأ بالعكس ، حركة قد تمتد فتشمل كل ماكان مقبولا في السابق "(١) .

هذا الاحساس بالضيق وما تلاه سلك طريقه الى المجتمع البدوى في الحياة الجاهلية ، لتوفّر أسبابه ، اذ اصطدمت المطالب الحياتية للبدوى الفقير بمصالح الغني ، ولا سيما في غياب التشريعات التي تقيم ميزان الواجبات والحقوق الإنسانية .

ومما يساعدنا على استجلاء أطراف ذلك التباين ما نجده في كتب الأنساب والمؤرخين في قسمة القبائل . يقول أحمد أمين في حديثه عن الأزد :

" وهم قبيلة قوية حكمت عُمان ... ومنهم خزاعة التي تسلطت على مكة . وكندة التي حكمت حضرموت ، ومدت سلطانها على بني أسد في اليمامة قيس عيلان .... الخ ."(٢)

فهذه الظروف اقتضت قيام ضدين اجتماعيين ، نجم عنهما ضدان نفسيان حدادا ن كما هو مبيّن .

---

(١) الإنسان المتمرد . ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط ٣ /٨٣ ، ص ٢٠ .

(٢) فجر الاسلام ، ص ٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جـ - التبايـــن الســـلوكي :

ان الواقع الاجتماعي المنسجم يشكل معادلة وجودية طرفاها الفرد والمجتمع ، ويشـــدّ لحمتها عبر الزمان والمكان توحّد في المواقف والرؤى .

يبين لنا الدكتور عبد العزيز القوصي طبيعة بناء هذه العلاقة بقوله : " للمجتمع بالنســـبة للفرد وظائف أساسية ، أهمها حماية الأفراد بعضهم من البعض الآخر ، وحمايتهم من الاعتـــداء الخارجي ، وكذلك تهيئتهم للحصول على أسباب رضائهم واطمئنانهم ورفاهيتهم وكرامتهـــم وعزتهم . ونعلم أن للفرد غرائزه ونزعاته ، وأنه يسعى لتحقيقها عن طريق الاتصال بمختلـــف عناصر البيئة المادية والاجتماعية .

ويحتمل عند قيام الفرد بهذا أن يلقىٰ الموانع من غيره من الناس ، ويحتمل كذلـــك أن يعتدى على غيره فيمنعه من تحقيق مطالبه . ولهذا يحتاج الأمر الى نوع من التوفيق بـــين مطالب الفرد ومطالب غيره " (١)

إن التكوين الاجتماعي في الحياة الجاهلية فرض تواصلا تلقائيا بين أفراد القبيلـــة الواحدة أشد من جميع أنواع التواصلات ، الدينية والثقافية والجغرافية وغير ذلك ، ساعد علـــى ترسيخها تضارب المصالح التي تستمد فعاليتها من سنان الرماح .

غير أن دواعي هذا التواصل هي نفسها قد تصبح مجالا يؤدي الى انعطاف حادّ يخلـــق سلسلة من الثنائيات يرتبط تصاعدها بدرجة التقاطع (التضاد) بين المتطلبات الحياتيـــة للفرد والجماعة (القبيلة) .

فنقطة الانطلاق في جميع ذلك تبدأ بالتضاغط بين الداخل والخارج أي بين جميع الأبعـاد الذاتية للفرد وبين الإنقياد لإمكانات واقع القبيلة ، ومن ثم يصير الى جدلية بين الحق والواجب ، والانفكاك والانتماء .

ذلك " أن جميع صور الحياة لها مطالب تحاول اشباعها ويختلف الإنسان في هذا ، بمعنى أنه كائن غرضيّ ، فهو يستطيع أن يخطط أفكاره ، ورغباته للمستقبل . "(٢)

فالغرضية في مواجهة طوق القبيلة تصبح أكثر إلحاحا في فرض نفسها أمام هذه الظروف .

---

(١) علم النفس ، ص ٣٩١ .

(٢) القيادة وديناميكية الجماعات : جورج م. بيل ، جو . م بوهلن ، ج . نيل . روداباو . ترجـــمة : د. محمد علي العريان ، ابراهيم خليل شهاب ، ص ٢١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والفرد في ظل هذا التباين المنطلق من تضارب المصالح يتخذ ذلك ذريعة معيارية للانفصـــام . والقبيلة تتبنى منه موقفا حاسما للتخلي عن مسؤوليتها تجاه الفرد . حينئذ يكون للعناصـر الفردية أحد موقفين : اما المجابهة والتصدى وإرادة التغيير ، وإما العجز عن إثبات الذات ، والانطواء بعيدا عن مسارح الصراع .

أمّا الكيان القبلي فينظر إلى هؤلاء الذين يتحركون باتجاه مضاد على أنهم مدمّـــرون شديدو التطرّف . وتصرفاتهم دائما تؤدى إلى اضطرابات في اقتصاد القبيلة . وبنفس الوقـــت " فاننا يجب أن نتذكر أن الفرد يحمل الى الجماعة بعض القوى السلبية ، فهو كائن حيّ له تحذيراته السابقة ومرات فشله ونواهيه ومخاوفه . "(١)

يقول عبد العزيز الخشروم عن مسؤولية الفرد ومسؤولية المجتمع : " إذا كان للفـــرد على القبيلة أن تحميه وتدافع عن كيانه ومصالحه ، واذا كان للمجتمع على الفرد أن يلتزم بقوانين العصبية ... فإن المجتمع قد يقع أحيانا ضحية لنزوات أفراده . " (٢)

فالعلاقة الأساسية التي تشكل البنية الثابتة لوحدة القبيلة تقوم على أن :
أفراد القبيلة متضامنون تضامنا شديدا ، ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، و " اذا جنى احدهـم جناية حملتها القبيلة ، واذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ، ولرئيسها خيرها ، واذا أبت قبيلتـــه أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها ، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها . "(٣)

ولكن الاستمرار بهذه العلاقة يبقى ما لم يصبح الفرد معول هدم بدلا من قوة إيجابيـــة فاعلة في سبيل الحفاظ على كينونة هذه القبيلة وحياتها .

ففي غياب الالتزام بضوابط القبيلة : كالهدر الاقتصادى ، والاتجاه في مسار مخالـــف للقيم التي تواضعوا عليها تقف القبيلة منه موقفا عدائيا ولكل ما يتعارض مع ذاتيتهـــا المادية والمعنوية .

وفي مصادر التراث صور كثيرة من أخبار القبائل التي قلبت ظهر المجنّ لبعض أفرادهـا الذين أظهروا مواقف غيرية مع الحياة التقليدية للقبيلة .

---

(١) القيادة وديناطيكية الجماعات ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٢) الغربة في الشعر الجاهلي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٢٥ .
(٣) فجر الاسلام ، ص ١٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال أبو الفرج الأصبهاني في كتابته عن أخبار قيس بن الحدادية ونسبه : " خلعته خزاعة بسوق عكاظ ،وأشهدت على أنفسها بخلعها اياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرّها أحد عليه " .(١)

كما روى عن خلع أبي الطمحان القيني أنه (القيني) جنى جناية وطالبه السلطان ، فهرب من بلاده ، ولجأ الى بني فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك بن سعد أحد بني شمخ ، فآواه وأجاره وضرب عليه بيتا وخلطه بنسبه ... "(٢).

هذه الظروف والعوامل التي سبق ذكرها ، وما اتسمت به الشخصية العربية وخاصة البدوية من استجابات فطرية أدت الى بلورة مكوّنات ذات أوضاع انفصالية واقتحامية من مراكز السيطرة (القبيلة) .

ومن جهة ثانية فإن وحدة التجربة لهذه المكوّنات وجهتها إلى وحدة الرؤية والتطلع وأسلوب الحياة ، كما وجهتها الى مسارح الحياة الجديدة كالعراء الصحراوى ، والجبل المسنون ، وجوف الغار الكثيف بظلامه المخيف .

وربما آن لي الآن أن احدد ما آلت اليه هذه المكونات الجديدة وفق ما درج عليه المؤرخون من مصطلحات وذلك في ظل المواقف الشعرية لشعراء هذه الفئات .

---

(١) الأغاني (بولاق) ، ج ١٣ ، ص ٣ .

(٢) الأغاني ، ج ١١ ، (بولاق) . ص ١٣٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصـــل الأول

الحيــاة الماديـــة في شعـــر الصعاليـــك

مفهـوم الإنســـان ومشكلاتـــه ٠

الصعاليـــك

الحيــاة الإقتصاديـة عند الشعراء الصعاليـك :

مشكلـة الغـــذاء

اللبـاس والزينـــة

المسكن / المرقبـة

الســـلاح :

أـ الأداة

ب ـ القوة الجسدية ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مفهـــوم الإنســـان ومشكلاتـــــه

إن استكناه حقيقة الإنسان ، واستجلاء جوهره في هذهالحياة ، وتحديد مشكلاته ليس أمـــرا سهلا ذلك أن " العلاقة بين الانسان والكون قد اتخذت منذ اللحظة الأولى طابع الحوار أو الجـــدل، وحسبنا أن نرجع الى تاريخ البشرية منذ البداية ، لكي نتحقق من أن الانسان منذأقدم العصور قد أبـــى أن يتقبل الواقع كما هو ." (١) . ومن جهة أخرى جاء يحمل أكثر من خصوصية ، يتمثل أغلبها فـــي الثقافة ، وفيالنظرة الممتدة مابين جذور السلفية وتجاوز الحاضر سواء على مستوى الطبيعة أم مســتوى التقليد الفكري والسياسي .

ومنذ القرونالأولى والإنسان يضرب في متاهات هذاالـلغز . " وقد تساءل النبي داود فـــي الإنشاد الثامن : من هو الإنسان ؟ ثم أجاب عن ذلك بأنه أدنى قليلا من الملائكة وأنه متوّج " بالمجد والشرف " . كما عبر بنجامن دزرائيلي في العصر الفكتوري عن التساؤل الكامن في الذهن حول طبيعـــة بني الانسان الرئيسة بالشكل التالي : هل الإنسان قرد أم ملاك ؟ " (٢)

غير أن الصعوبة في تحديد هذا الكائن لاتعفي من رسم الصورة له من حيث كونه شيئا متكيّفـــا ، أو موقفا متغيرا ، أو رؤية متطلعة أو بمعنى آخر دراسة الانسان فيما يوجهّ حياته وينظمها ويمسك بزمامها مما قد يتمثل فيتكافل الجماعة أو في الضمير أو التفكير في الحياة الآجلةوما وراء الطبيعة وغير ذلـــك من تصوّرات .

إن الفكر المعاصر باهتماماته الكبرى في الإنسان لايخرج عن مسارين يحددان حياته : الحاجـــات المادية ، والحاجات الروحية ، وهما لايقدمان الحل النهائي ، اذ " لاحلّ نهائي فيالواقع مادام الإنســـان عاطفة تجيش ، وعقلا يتصور ، وخيالا يمزج العاطفة بالعقل ، في جوّ من حرية الفكر ، وحرية التصـــوّر، وحرية الإبداع والابتكار ." (٣)

يشدني إلى موضوع الإنسان أنه موضوع اهتمامكل من ينتمي لهذا النوع . وقد شغل به العلمـــاء فلاسفة وجماليين ونفسيين وسواهم ، فصاغوا فيه نظريات متغيرة ، وشغف به الفنانون ، وبخاصـــة الشعراء ، فصاغوه مثالا في كلمة أبدية دالة : " جاء في كلمة انغلو ساكسونية قديمة : أن تبني مـــن المادة ،أمر عظيم وسامٍ،أما الخلق فهذا من شأن الآلهة والشعراء فحسب " " (٤)

---

(١) مشكلة الانسان . د . زكريا ابراهيم . مكتبة مصر ، ص ٤٢ .

(٢) بنو الانسان . بيّرفاب . ترجمة زهير الكرمي ، ص ٦ .

(٣) القيمة الأخلاقية . د . عادل العوا ، ص ٩ .

(٤) الوهم والواقع ـ كريستوفر كودويل ، ص ٥٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والإنسان الذى نبحث عن ماهيّته لايبدو لنا متشكّلا تشكيلا محسوسا بحيث يشار إليه كما يشار الى المرئي أو الملموس ، ولكنه في كثير من امتداداته كامن في خلايا الكون كما تكمن الروح في خلايا الجسد . انه كما يصفه الدكتور زكريا ابراهيم : " حامل للقيم ، آخذ على عاتقه الغاية الألُهيـــة على الأرض . " (١)

انه ليس بناء تحدّه أبعاد هندسية ، ولا مذهبا فكريا تحّدد مرتكزاته وخصائصه ومنهجيته ، ولا حضارة يمكن اكتناه أسرارها أو معرفة عوامل تقدمها أو وهيها . إنه صانع كل هذا وأكبر من هذا . ولعل الطموح الفكرى الى اكتناهه لايقل عن اكتشاف الوجود ، والعدم ، والقِدَم والحدوث ، والممكن والـ واقع ، والمجرد والمطلق .

يقول الدكتور مصطفى محمود في هذا :

" أنا " من الخارج لي حدود ، لي سقف ينتهي عنده جسدى ، ولكنني من الداخل بلاسقف ولا قاع . " (٢)

ويقول د. عز الدين اسماعيل : " إن النفس البشرية - رغم كل مالها من خصوصية الفرد المبدع - هي في وجودها الظاهرى نفس جماعية ، تتحرك مع الجماعة أو بالجماعة ، ومن ثم يمكن اكتشاف نوع من الحقيقة النفسية ، والحقيقة الاجتماعية في تفسير الظاهرة الفنية أو في تفهم أبعادها ودلالاتها . " (٣)

والحديث عن الانسان الشاعر ، أو الانسان من خلال رؤية الشاعر أكثر تعقيدا ، ذلك أن " التكوين النفسي للشاعر وهو تكوين متميّز - كما يصفه علماء النفس - تقوم على الاحساس المرهف والخيال الخارق . وهذا التكوين الخاص أو المتميز يجعل الشعراء والفنانين وسائر المبدعين في حالة قلق دائم وتوتر مستمر ، ولذلك فقد قيل : ان أعصاب البشر تحت جلودهم ، أما الشعراء فأعصابهم فوق جلودهم . " (٤)

لكن هذه الصعوبة ، وهذا التعقيد ، لايمنعان من طرق الباب ، وإن الجهل بالكثير ملحّ علينا أن نتعرف الى القليل .

ولعل استشراف ما توصل اليه الفلاسفة وعلماء النفس يرشدنا ويضيء السبيل أمام استبصارنا لذلك ... يقول صلاح عبد الصبور ، موضحا موقف " سقراط .. من الحث على معرفة النفس أولا : " لم يتوجّه سقراط بخطابه : اعرف نفسك .. إلاّ إلى الانسان ؟ لأن الإنسان هو الموجود الوحيد الذى يستطيع

---

(١) المشكلة الخلقية . د. زكريا ابراهيم ، ص ١٤ .

(٢) لغز الموت . دار العودة بيروت ، ص ١٩ . د. مصطفى محمود .

(٣) الفن والانسان . دار القلم . بيروت ، ط ١ ، ٧٤ ، ص ١٥ .

(٤) الشعر بين الرؤيا والتشكيل . د. عبدالعزيز المقالح . دار العودة /بيروت ، ص ٢٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن يسعقل ذاته ، وجلال الإنسان أنه يقدر أن يواجه نفسه ، أن يجعل من نفسه ذاتا وموضوعا في نفس الآونة، ناظرا ومنظورا اليه ، ومرآة ينقسم ويلتئم في لحظة واحدة " " (١)

وهذه المرآة المتكاثفة " الانسان " يمكن قسمتها الى قسمين متقابلين هما : الجسد ومتطلباته المادية ، والروح ومتطلباتها الغيبية • وهذه القسمة هي التي درج عليها الفكر القديم كما أشـــرت ، ثم ان الفكر المعاصر باهتماماته الكبرى بالانسان ومشكلاته لايخرج في مساره على هذين القسمين •

واقع الانسان المادى يمثل متطلبات الإنسان الحياتية ، من غذاء وكساء ، ومسكن ، وملكيـــــة، وأمن ، وعلاقات منسجمة ، وما يتبع ذلك من اطلاق اليد للكسب ، وإظهار القدرات ، والإمكانـــــات ذات السمات المادية ، وخاصة ما هوموضوع لإيجاده بفطرته وغريزته •

أما الواقع الروحي فيشمل الينابيع النفسية ، والقوى الفكرية التي توجّه الذات نحو القيم العليا، ووصل هذا الانسان بالقوى الكونية الظاهرة والغيبية ،كالتفكير في ماض سحيق ، والتهيؤ لغد متجـــدد، وجميع ما يستوعبه العقل الواعي وغير الواعي من صور غيبية تعينه على تفسير مشكلاته ، والتلاؤم مـــع ظروفـــه •

في ضوء هذه المفاهيم والتصورات لماهيّة الإنسان ، مادةً وروحاً تجرى دراسة الإنسان في شعـــر الصعاليك في العصر الجاهلي ومن امتدت حياته الى العصر الاسلامي منهم (المخضرمين)•

---

(١) حياتي في الشعر • صلاح عبدالصبور • ص ٧•

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصّعاليـــــك

تناقل الناس عنهم أسماء كثيرة منها : الصعاليك ، الخُلَعاء ، الذؤبان ، العداءون وغير ذلك . ولعل في نقل ما ينسب لشعرائهم في هذا الموضوع ما يقرب فهم هذه الاسماء :

قال عروة بن الورد : (١)

لحىَ اللهُ صُعْلوكاً اذا جَنَّ ليلـه ... مضى في المَشاشِ آلفاً كلَّ مَجْزَرِ
ولكنّ صُعْلوكاً صفيحةُ وجْهِـــه ... كضوْءِ شهابِ القابسِ المُتنَـوِّرِ

ويقول السليك بن السلكة : (٢)

فلا تصلي بصعلوك نـــؤوم ... اذا أمسى يعدّ من العيـــال
ولكن كل صعلوك ضـــروب ... بنصل السيف هامات الرجـال

وقال قيس بن الحِدادية حين وقع في مأزق ، وطلب اليه أن يستأسر : (٣)
" وما ينفعكم أن أستأسر ، وأنا خليع ، والله لو أسرتموني ،ثم طلبتم بي من قومي عنزًا جرباء جذمـــاء ما أعطتيموها ." وقال مرتجزا :

أنا الذى تخلَعُه مواليـــهْ ... وكلّهم بَعْدَ الصفاءِ قاليـــهْ

ويقول الشَّنفرى : (٤)

ولو عَلِمَتْ قُعْسوسَ أنسابَ والدي ... ووالدِها ظلّتْ تُفاخِـرُ دونَهـا

و يقول صخر الغي : (٥)

فلستُ عبداً لموعيـــديَّ ولا ... أقْبَلُ ضَيْماً يأتي بـــه أحَـدْ

ويقول أبو جُنْـدب : (٦)

أما ترؤني رجْلاً جُونيـــا ... حفلّجَ الساقين أفْلَجِيـــا

ولتأبّط شـــرًا : (٧)

كأنما حَثْحَثوا حُصّا قوادمُـه ... أو أمّ خِشْفٍ بذى شَـثٍّ وطُبـــاقِ

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٧٠.
(٢) شعر السليك بن السلكة، ص ٦٢.
(٣) الاغانـي ، جـ١٣، ص ٨ .
(٤) = ، جـ٢١، ص ١٧٩.
(٥) = ، جـ٢٠ ، ص ٢٠ .
(٦) ديوان الهذليين ، جـ٣ ، ص ٧٨. جوني : أسود اللون . حفلّج : أفحج . الأفلجي : متباعد الساقين.
(٧) ديوان تأبط شرا ، ص ١٣٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول الشنفـرى : (١)

أنا السَّمْعُ الأزَلُّ فلا أبالِـي ولو صَعْبَتْ شناخيبُ العُقـابِ

ويقول تأبط شـرا : (٢)

مَساعرةٌ شُعْثٌ كأنّ عيونَهـم حريقٌ غضاً تُلْقىٰ عليه الشَّقائِـقُ

ما تكشفه أقوالهم السابقة هو أن :

فئة منهـم : عاشت حيـاة الـذل والضعـة والتبعيـة في ظـل القبيلـة .

فئة ثانيـة : كقيس بن الحدادية ضاقت بهم قبائلهم التي ينتسبون اليها دما وعرقا لأسباب تتمحور في عدم الانسجام بين الطرفين مما جعل القبيلة تتخطى النسب الدموى مستبعدة الفرد، فأطلق على هذه الفئة : **الخُلَعـاء** .

وفئة ثالثة : عاشت حياة الفقر والجوع والحرمان كعروة وأبي جُندب ، ورافقتها استفاقة واعيـة مما تعانيه ، فنفرت من المجتمع واتخذت الإغاره على الأغنياء حقاً لها وقد وهب الله هذه الفئات طاقات زائدة في العدو والاحتمال جعلتها سلاحا في مواجهة الظروف القاسة ، فاطلق عليها : الذئاب والعداوون . لكن الاطار الكلي الذى طغى على هذه الجماعات شكلا ومضمونا هو " الصعاليك " وفيه اندمجت باقي الاسماء الاخرى من : الخلع ، والذوبان ، والأغربه وغير ذلك . وهي على الارجح صفات يُلازم الصعاليك وتحدد مناحي نشاطهم كما تحدد الصورة ملامحها وألوانها وظلالها . وربما جاز القول أن اطلاق " الصعاليك " عليهم من باب تسميه الكلّ باسم الجزء ، اذ أن هذا الجزء هو الأخص والمعتمد في نشاطهم ، كما هو الموجّه لنمط حياتهم ، والقطب الجامع لحاجاتهم ، حين ينعدم الأمن الغذائي ، والأمن الاجتماعي، ولا يبقى الا ما يغرى الإنسان ويلحّ عليه بالتصعلك كسلاح أخير يعين على مجالدة الزمـان .

١- الطرائف الادبيه / ديوانه ص ٣٣ .

٢- ديوان تأبط شـرا . ص ١٢٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحياة الاقتصاديه عند الشعراء الصعاليك

من الصعب تحديد عناصر (الطين) في الكيان الإنساني تحديدا شاملا فما يخفي من عالم هذا الجانب أكثر مما يظهر و " إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إنما نعرفه على أنه مكوّن من أجزاء مختلفه ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكوّن من مركب من الأشباح في وسطها حقيقة مجهولة . (١)

ومع إيماني بوحدة هذه العناصر بالجبلّة الواحدة ، ووحدة انقيادها لمبدأ واحد هو حب الحياة ، وما يقتضيه من نشاط واعٍ ، فإنني سألتمس هذه العناصر عند الشعراء الصعاليك منفردة من حيث الشكل مع الحفاظ على مابينها من العلاقات الداخليه . وما هذا الإفراد بأكثر من إقامة الفواصل في اجزاء العبارة الواحدة .

مشكلة الغذاء .

ان نظرة واعية على النموذجين اللذين تشكل منهما المجتمع الجاهلي : الفقراء والموسرين ، لكفيله أن تؤدي بنا الى نتيجة تتمثل في جدلية نفسية بين النقائض تدفع الفقير الى البحث عن البديل الذى يوفر له مظلة يلتقي تحتها مع من هم على شاكلته .

تلوح لنا ملامح هذه الجدلية ، وإرهاصات هذا النشاط الموجّة في قول عروة بن الورد - وهو من أظهر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي - : (٢)

وإني امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي إنائكِ واحدُ
أتهزأُ مني أن سَمِنتُ وأن ترى ... بجسمي شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أفرق جسمي في جُسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قَراحَ الماءِ ، والماءُ باردُ

فهذا القول يمثل عرضاً أوليا تلقائيا لمشكلة تعدّ من أعظم المشكلات التي تواجه الصعلوك ، ومن أكبر الحواجز التي تعيق تقدم المجتمع ، فضلا عن تعذر الانساق والاندماج في كيانه .

على أن هذه الثنائية من عدم التكافؤ بين المجتمع والصعاليك لا تظهر فقط في الآثار البدنيه ، من هزل وسمنة ، ومن خلوّ وامتلاء في الجفان والأواني ، ولكنها تمتد لتشمل الحياة الفكريه والنفسية ، وما يترتب عليها من تضادّ بين الاثَرَة والإيثار ، والدعة والحرمان والحق والباطل .

تناقل الرواة موقفا لعبدالله بن جعفر بن أبي طالب يشعرنا بنزعة من نزعات الحياة الجديدة التي يصدر عنها عروة في شعره ، إذ قال عبدالله لمعلم ولده : لا تُرَوِّهم قصيدة عروةبن الورد التي يقول فيها :

دَعيني لِلْغِنى أسْعى فإنّي ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ

ويقول : ان هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم)) . (٣)

١- الانسان - ذلك المجهول - الكسس كاريل ص ١٠٩ .
٢- ديوان عروة ص ٥١ ، ٥٢ . عافي إنائك : اي يأتيني من يشركني فيه . الماء القَراح : الذى لايخالطه لبن اوغيره .
٣- ديوانه ص ٩١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بل لعلّ هذا الذى قاله عروة ما ينبه القوم إلى ما هم فيه من اغتراب داخل أوطانهم • فما قوام الغربة إلاّ الإحساس بالوهن في العلاقة ، والتصدع في التعايش ، والاضطراب في الفكر •

فمشكلة الغذاء كانت من ابرز ما يحرك هذه الشريحه من الشعراء للتطلع الى تجاوز هذا الواقع بخطوات متواصلة نحو ذموذج آخر يطمحون إليه •

ويعبر عن هذا التجاوز لذلك المحدود ، والاستطالة على واقع اختلّت فيه الحياة الاقتصادية الشاعر تأبط شرا ، في أسلوب حواريّ بينه وبين امراة خطبها ، ولكنها وقعت تحت تأثير قوم أقنعوها بالعدول عنه ، ويبرز الشاعر القيم الحقيقية التي ينبغي أن توءلّف بين القلوب البشرية ، وفي هذا الشعر صورة الانسان الذى يريده الشاعر • (١)

وقالوا لها : لا تنكحيه فإنّه ... لأوّلِ نَصْلٍ أنْ يلاقي مَجْمَعَا
فَلَمْ تَرَ من رأيٍ فَتيلاً وحاذَرَتْ ... تأيّمَها من لابس اللّيل أرْوَعَا
قليلِ غرارِ النّوم •• أكبرُ همّه ... دَمُ الثأرِ أوْ يلقى كَمِيناً مقنّعَا
قليلِ ادخارِ الزاد إلاّ تَعِلّةً ... وقَدْ نشر الشرسوف والنّصَقَ المِعَى

ولا يشك أحد فيما يفعله هذا الموقف من الأثر العميق في النفس البشرية •

واذا أحسّ الفقير بوصمة العار من لدن مجتمعه ، فأنه يتحول الى حركة فاعلة ضدّ واقعة ، وخاصة حين تتخذ المرأة الجوع مقياسا لشخصيّة وفعاليّة الزوجية بصورة سلبية •

وليس غريبا أن يتخذها الفقير نفسه أداة لتدمير كل الجسور الاجتماعية بينه وبين قومه •

ومن شأن ذلك ان يحرك العواطف أولا بالانقباض غير المنتظم ، ولكنه فعّال وممتلىء ، لانه مستمد من طاقة روحية •

يقول د • زكريا ابراهيم (٢) " والحق أن الألم ليس مجرد منبّه يشعرنا بكياننا الفردى في وسط عالم يرين علينا فحسب ، وإنما هو أيضا حافز قوى يدعونا إلى الوحدة والانفصال ، فهذه ذات متفتحة تستقبل الآخرين ، وتتجه بكل مشاعرها نحو غيرها من الذوات • ولكنها على حين فجأة تتلقى ضربة عنيفة من ضربات الشرّ ، فما هي إلا طرفة عين حتى نراها وقد انسحبت من العالم الخارجي ، لكي تعاني في صمت مرارة الألم وقسوة الوحدة " " •

وقد وضعت هذه المشكلة الإنسان الحملوك في حياة إيقاعية أخرى تمثل بعدا وجدانيا آخر في مواجهة هذا الواقع لم تلبث أن تحولت الى طاقة جديدة محركة لوجود إنساني جديد مصوغ من قيم واحدة ونشاط واحد ، فهذا الشاعر الشنفرى ينقل الينا صورة حية تجسّد النزوع الى البرّ في جوّ عجيب من الفروسية الأصيلة تحت جناح الرحمة والأمومة ، بصورة عضوية تصدر عن نقاء موصول بتعشق الأنسان المثال : (٣)

١ـ ديوانه ص ١١٣ • الشرسوف : الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن • يريد أنه دائم الطوى حتى تبرز اضلاعه • الفتيل : يضرب المثل بها في حقارة الشيء •

٢ـ مشكلة الانسان ص ٣٥ •

٣ـ ديوانه من الطرائف الادبية ص ٣٣ •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأمِّ عيالٍ[١] قد شهدت نَقوتُهم ... إذا اطعَمَتْهم أو نَحَتْ[٢] وأقلَّتِ
تَخافُ علينا العَيْلَ إنْ هي أكثرَتْ ... ونحنُ جياعٌ أيّ آلٍ تألّتِ
وما إنْ بها ضنٌّ بما في وعائِها ... ولكنّها من خيفةِ الجُوعِ أبْقَتِ
مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُرُ السِّترُ دونَها ... ولا تُرْتَجى للبيتِ إنْ لمْ تُبيّتِ
لها وَقْصَةٌ[٣] فيها ثلاثونَ سَيْحَفاً[٤] ... إذا آنست أولى العدى .. اقْشَعَرَّتِ

أن يتجاوز الشاعر ما استقر عليه مجتمعه قد يبدو أمرا عاديا في زمن سحق فيه الضعيف ، واستعلى فيه ذوو الحول والطوْل ، وأمّا ان يتجاوز الشاعر ذاته ، وتتسامى مراميه فوق متطلباته الجسديه ، ويلتقي إحساسه بالحقية ، فذلك أسلوب غريب في مواجهة أعباء الحياة وطرح مشكلاتها .

هذه مقطوعة للشاعر عمرو بن مالك (الأعلم) ينقد بها الواقع وما تواضع عليه أبناء عصره من قيم فاسدة .. ويدعو فيها إلى الأخذ بأسباب المناعة والثقة ، والاعتصام بالصبر فيقول : (٥)

أتَيْتُ بني عَمْرِو وَرَهْطي فَلَمْ أجِدْ ... عليهم اذا اشتدّ الزمانُ مُعَوَّلا
ومن يفتقرْ في قومِه تجْمَدِ الغِنى ... وإن كان فيهم ما جدَ العمّ مُخْوِلا
يُمَنّون أنْ اعْطَوْا ، ويَبْخَلُ بعضُهم ... ويَحْسَبُ عجْزاً سَكْتَهُ إنْ تَحَمّلا
ويزرى بعقل المرء قلة مالِه ... وان كان أقوى من رجال وأحيلا
فإنّ الفتى ذا الحَزْمِ رامَ بنفسِه ... جَوانِبَ هذا الليلِ كي يَتَمَوّلا

جوهر القضية في رؤية الشاعر يتمثل في فهمه هذا التقابل الحادّ بين فئتين في المجتمع ماديّاً واجتماعياً . وإنّ حلّ المشكلات وخلقَ فرص التوافق الاجتماعي منوطان بتلبية الاحتياجات الضرورية ..

يبين لنا السّليك أنه لم يحصل على قوته اليوميّ إلا بركوب متن المغامرة وبدخوله معركة ضارية مع الموت . فتصعلكه ليس برغبة وشهوة ، ولكنه الخلاص من العدم : (٦)

وما نِلْتُها حتى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً ... وكِدْتُ لأسْبابِ المَنِيّةِ أعْرِفُ
وحتى رأيتُ الجوعَ بالصيفِ ضَرّني ... اذا قُمْتُ تَغْشاني ظِلالٌ فأسْدِفُ

فحين يحس الإنسان فجوة في حياته الشخصية يزداد تفاعله العكسي مع المجتمع ، ثم يشعر بالميل النفسي للانطلاق نحو قيم جديدة .

١- أم العيال : تأبط شرا
٢- أونحت : أعطت قليلا .
٣- وقصة : جعبة السهام .
٤- السيحف : السهم العريض النصل .
٥- معجم الشعراء : المرزباني ص ٢٠ .
٦- السليك بن السلكة أخباره وشعره ص ٦٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يصف الشنفرى حركة تأبط شرا ونشاطه قائلا : (١)

وَتأتي العَدِيّ بارزاً نصفُ ساقِها ... تَجُولُ كَعَيْرِ العانةِ المُتَلَفِّتِ
اذا فَزِعوا طارت بأبيضَ صارمٍ ... ورامَتْ بما في خيرِها ثمّ سلّتِ

هكذا يرى الشاعر ما لا يراه سائر الناس ، ويحلم ويرود المجهول قبلهم ، ولا تقع عينه على منظور ولا ذهنه على معقول في الزمان والمكان الا ألقى عليه شعاعا من نفسه مع اختلاف مساحة ما يسقط عليه الشعاع من شاعر لآخر . وهو إلى جانب ذلك ينطبق عليه القول : من البأس يستخرج الرحمة بالآخرين ومن الرحمة يستخلص الحب . حيث الانسانية جمعاء ، وهي التي تشاركه القناء ، كما تشاركه الرغبة في الخلود . (٢)

ومما يبعث على الإعجاب أن تدرك الثقافة الشفوية الجاهلية المتمثلة في شعر الجماعة غاية المال باعتباره منحى للحب . وأشاعة الألفة بين الناس ، وأنه ان ختم على الأفئدة استحالت الحياة موتا ، والعمر أغلالا مع تداعي القيم .

هذا عروة مثلا يتنبه إحساسه الى ضرورة اتخاذ موقف تجاه العالم المادي فيقول : (٣)

إذا المَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سواما وَلَمْ يَرُحْ ... عليه ولم تعطِفْ عليه أقاربُهْ
فَلَلْموتُ خيرٌ للفتى من حياتِهِ ... فقيرا ، ومِنْ مَوْلى تَدِبُّ عَقاربُهْ
وسائلةٍ أينَ الرحيلُ؟ وسائلٍ ... وَمَنْ يسألُ الصّعلوكَ : أيْنَ مَذاهبُهْ
مَذاهبُه أنّ الفِجاجَ عَريضةٌ ... اذا ضَنّ عنه بالفَعالِ أقاربُهْ
فلا أتركُ الإخوانَ ما عِشتُ للثّرى ... كما أنّه لا يتركُ الماءَ شاربُهْ

وهذه الروءية الجديدة للمال " لا تريد أن يحتبس الإنسان داخل بعض الصيغ الميتة الجامدة ، بل هي تريد له أن يتقدم باستمرار نحو المزيد من الحرية والمسوءولية والقدرة على توجيه الذات . (٤)

وهكذا أحس الشاعر الصعلوك أن محدودية الحياة بواقعها الراهن تأكيد لحضور وتكاسة وهزيمة المعنوية . ومن هنا أعلن الشاعر الاجيمر السعدى موقفه النفسي الناجم عن هذه المفارقات الاقتصاديه والاجتماعية ، قائلا : (٥)

وإني لا ستحيي من اللّهِ أن أرى ... أجرّر حَبْلاً ليس فيه بَعيرُ
وأنْ أسألَ الجِبْسَ اللئيمَ بعيرَه ... ويُعْرِان ربّي في البلاد كثيرُ

١- المفضليات ص ١١١ : شبه حركته الجادة بحركة حمار الوحش (في غيرته) يدافع الحمر عن أتانه
٢- في فلسفة النقد : د. زكي نجيب محفوظ - دار الشروق ١٩٧٩ ط١ ص ٥٧ .
٣- ديوان عروة ص ٢٩ .
السوام : ما يرعى من الابل ونحوها . يرح : ترد ابله الى المراح . المولى : ابن العم .
٤- المشكلة الخلقية ص ١٣ .
٥- الموءتلف والمختلف الآمدى ، دار احياء الكتب ١٩٦٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

هذا الذي يقوله الأحيمر السعدي لا يقف عند حد الكشف عما يعانيه من فقر ، ولكنه يجلّي وعيه نحو سيطرة أولي الطغيان المادي ، كما يقدم بداية لنظرة شمولية، فالعدمية (تجرير الحبل الخالي) ، وما يقابلها من وفر مالي (وبعران ربي في البلاد كثيرة) هما المجسّد الأولي على حلبة الصراع بين الفقراء والأغنياء .

ولقد يختلف تقييم الوضع الاقتصادي بين الفئتين لدى الشعراء نسقا .. فاذا كانت أهمية المال في نظر عروة والأعلم والأحيمر لطرح شبح الفقر وغائلة الموت ، فانه عند بعضهم لتعزيز المكانة وتضخيم النفوذ وربما كان أصحاب هذه النظرة أيسر حالا وأرضى عيشةً .

من هؤلاء مالك بن حريم الهمداني ، الذي يقول : (١)

أنبّئتُ والأيامُ ذاتُ تجاربِ ... وتُبدي لك الأيامُ ما لَسْتَ تَعْلَمُ
بأنّ ثراءَ المالِ ينفعُ ربَّهُ ... ويُثني عليه الحَمْدَ وَهْوَ مُذمَّمُ
وأن قليلَ المالِ للمرءِ مُفْسِدٌ ... يحزُّ كما حَزّ القطيعُ المُحَرَّمُ
يرى درجاتِ المجدِ لا يستطيعُها ... ويَقْعُدُ وسْطَ القومِ لا يتكلّمُ

فثمة علاقة إيجابية بين حضور المال وبين نسيج الحياة الاجتماعية عند الشاعر ، كما تكشف له تجاربه ، فهو حقه المشروع الذي يجعله يعيش في انسجام تام مع مجتمعه ، ومن طبيعة العربي في الجاهلية أن يتسامى بكلمة المدح ويتضاءل أمام كلمة الهجاء .

وينفرد الجوع من بين جميع الحاجات الحيوية للاعلان عن نفسه ، وهو عند الصعلوك تتدفق قواه لتبلغ بعدا يستطيل من ذاته الى ذات الآخرين ... ومن ثم يعلو من المادي المقيد الى الروحي المتصاعد .

فاذا كانت الحاجة إلى الطعام قد تهبط بكثير من الناس ، فلا يجدون وسيلة إلا التنازل عن بعض الإرادة فإنها عند الصعلوك تدرك بالاختطاف السريع كبقية متطلباته : من عمر يعيشه ولحم يبني جسده ، ولباس يكسو جسمه ، ومسكن يوءويه ، ونوم قليل يقرّبه مضجعه . فلعله أدرك بأن المطلب الوفير من ذلك - والطعام خاصة - يحدّ من حريته ، ويطامن من عزته ، ومن إعلان رفضه واحتجاجه .

ومن الجدير بالذكر أن جُلّ هؤلاء الصعاليك كانوا يختارون انتزاع قوتهم ممن تزايد دخله وتعاظم ترفه ، واتسعت نعمته وقبض يده ، لذلك كثرت غاراتهم - كما يبحدثنا تأبط شرا - على من كثر ماله كقبيلة خثعم وبجيلة وثمالة : (٢)

أرى قدميّ ، وفعهما خفيف ... كحليل الظليم حذا رئاله
نرى بهما عذابا كلّ يوم ... لخثعم او بجيلة او ثماله

١- معجم الشعراء ص ٢٥٥ .

٢- ديوان تأبط شرا ص ١٩٨ تحليل الظليم : أسرع عدوه . الرئال : جرأل وهو ولد النعام .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في حياة الصعاليك الشعرية تلتحم كلمات الجوع ، الفقر ، والطعام ، ويتضاعف ذلك عند بعضهم دون الآخرين ، كما سنوضحه عند عروة .. وتفسير ذلك يعود الى اهتمام عروة بالمعوزين من أفراد المجتمع اهتمامه بنفسه .

والقوات في هذه الحالة يشكّل عنده المعادل الموضوعي للعدم . وقد جسّد مطالبة بحقوق الناس قوله : (١)

دَعيني أطوّفْ في البلاد لَعلّني ... أُفيدُ غِنى ، فيه لدى الحقِّ مَحمَلُ
أليسَ عظيماً ان تُلمّ مُلمّةٌ ... وليس علينا في الحقوقِ مُعوَّلُ
فإنْ نحنُ لم نملكْ دِفاعاً بِحادثٍ ... تلمّ ألا يأتي ، فالموتُ أجْمَلُ

كذلك أبو خراش الهذلي فهو يضع القوة والفتوة وحرارة الشباب قبالة الجوع وجهاً لوجه بقوله يرثي أحد مريديه : (٢)

ولَمْ يَكُ مَثْلوجَ الفُؤادِ مهيّجاً ... أضاعَ الشَّبابَ في الرَّبيلَةِ والخَفْضِ
ولكنّه قَدْ نازَعَتْه مَجاوِعٌ ... على أنه ذو مِرّةٍ صادقُ النَّهضِ

وهذا تأبط شرا في محاورته الطريفة مع عالَم الجنّ - على الرغم من رمزيتها أو وهميتها - فإنه يلقي أمامنا موقفه من تلك الحياة التي يعيشها . يقول في ذلك : (٣)

أتَوْا نارِي فَقُلتُ مِنونَ أنْتم ؟ ... فقالوا الجنّ ، فقلتُ : عِموا ظَلاما
فقلتُ الى الطعامِ فقال منهُمْ ... زعيمٌ يجْسِدُ الإنسَ الطّعاما
لقد فُضّلْتُمُ بالأكلِ فينا ... ولكن ذاك يعقبكم سَقاما

إن الشاعر كما تشير الأبيات السابقة حريص على أن يلقي أضواء على الواقع الذي يعيشه سواء بالكلمة المجردة أم المصوّرة ، بالصريحة او الرامزة .

التأمل في هذه الابيات من خلال جوها النفسي يفضي الى أمور ثلاثة أولها : ضيق الشاعر بعالمه ، ونشدانه عالما أفضل . ثانيها : المثال الإنسان في رأيه يمثله ذلك الجنّ ، ولعله أقرب إلى طبيعة الصعلوك الذي لا سلطان للطعام على نفسه كحال الجن .

ثالثها : التعبير الحي عن الصراع بين طبقتين ، أحداهما ترضي بالكفاف ، والأخرى مُلِحّة بأشباع غرائزها وسائر متطلباتها . وذلك ما يبعدها عن العدل الذي ينشده الصعلوك .

١- ديوان عروة ص ١٣١ .
٢- ديوان الحماسة - شرح التبريزي ص ٣٢٦ . الربيلة : الهوى . الخفض . الدعة .
٣- ديوان تأبط شرا ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ . منون : من أين .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذا الموقف التخيلي شبيه بموقف أحد الشعراء الفرنسيين الرومانتيكيين يدعى " الفرد دي فيني " في وصفه للذئب قائلا : " حتى اذا أحاطت به البنادق ، ونفذت في جبينه السهام ، اذا به ينظر إلينا ثم يرقد ... ودون أن يلقي بالاً إلى أن يعرف كيف هلك ، أخذ يلعق ما انتشر على فمه من دم ، ثم أقفل عينيه وقضى نحبه دون أن يلقي صيحة ! واأسفا لقد فكرت فأدركني الخجل ...." (١)

الروعة في هذه التجارب أنها سرعان ماتتحول في وجدان المتلقي من مكوّنات مادية الى قيم معنوية كالأباء ، والصبر ، والشجاعة النفسية .

يقول الشّنفرى مثلا : (٢)

وأَطْوي على الخُمصِ الحَوايا كما انْطَوتْ
خَيوطَةُ ماريٍّ تُغَارُ رِتَافُهَا

وأَغْدو على القوتِ الزهيدِ كما غَدا
أَزَلُّ تَهاداه الشَّنائِفُ أَطْحَلُ

غدا طاوياً يُعارِضُ الرِّيحَ طافياً
يَخُوتُ بأذنابِ الشِّعابِ ويَعْسِلُ

التجربة السابقة لاتكاد تقرأها حتى تترك كلماتها في النفس أثرا يبصرنا بحالين متقابلين :
أحدهما : اختزال معظم ما يتطلبه الجسد يمثله الكلمات : (أطوى ، الخمص ، الزهيد ، طاويا ، الثنائف انطوت) .
والآخر : الجهد والصراع والمعاناة متمثلا في : " أغدو، غدا ، تهاواه ، يعارض ، يخوت " .

وقد يعرض الصعلوك مشكلة الجوع على نسق جدلي يقابل فيه بين موقفين إنسانيين متعارضين :
أحدهما يمثل امرأة تحاول أن تثنيه عما يفعل من اغارة ، وتغريه بالبقاء ، وتحذره مغبة خوض المعركة .
والآخر ذاته تحثه على النشاط والانطلاق الى جوف الصحراء ، كما في قول أبي خراش : (٣)

---

(١) الرومانتيكية . د . محمد غنيمي هلال - دار العودة ١٩٧٣، ص ٦٢ .

(٢) كتاب أعجب العجب في شرح لامية العرب - الزمخشري ، ص ٥٨ .

الخمص : الجوع . الحوايا : مايحوى البطن . خيوطة : الخيوط . ماري : اسم فاعل الخيوط
ازلّ : القليل لحم الوركين (صفة للذئب) . التنائف : جمع تنوفة . الفلاة
الأطحل : لونه بين الغبرة والبياض . يخوت : ينبقض . يعسل : يسرع باهتزاز .

(٣) ديوان الهذليين ، ص ١٧٩ ، ج ٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَلاَ وأبيكِ الخيرَ لا تَجدينَـــه جميلَ الغِنىٰ ، ولا صَبُورا على العَدْم
ولا بَطَلاً إذا الكماةُ تزيَّنَـــوا لَدىٰ غمَرَاتِ المَوْتِ بالحالِكِ الفَدْمَ
وإني لأَثْوِي الجُوعَ حتى يملَّـني فَيذهبَ لمْ يَدنَسْ ثيابي ولا جِرْمي

وقول عـــروة : (١)

أرى أمَّ حسّانَ الغداةَ تلومُـني تُخَوِّفُني الاعْداءَ ، والنَّفسُ أخْـوَفُ
تقولُ سُلَيْمى : لو أقَمْتَ لسرَّنا ولم تدرِ أنّي للمُقامِ أطـوَّفُ
لعلَّ الذى خوّفتِنا من أمامِنـا يُصادفُهُ في أهلِـه المتخـوِّف

وقولـــه : (٢)

سلـى الطارق المعتّر يا أم مالك اذا ما أتاني بين قدرى ومجـزرى

وقولـــه : (٣)

أقِلِّي عليَّ اللومَ يا ابنةَ مُنذِرِ ونامي ، فإنْ لمْ تَشتَهي النَّومَ فاسْهَرى
ذريني ونفْسي أمَّ حسانَ إنَّـني بها قبلَ أن لا أملِكَ البيعَ مُشْتَرِى

فهذا الذى قاله أبو خراش وعروة يقدم صورة نفسية للصراع الذى يدور في نفس الشاعر من الصعاليك ، فثمة مايغريه بالبقاء ، ويحدّ من ركوبه المخاطر ، يقابله هاجس التطلع والانطلاق حرصا على كرامته . فكأن الشاعر يعاني انفصاما تتقابل على طرفيه الرؤى والمشاعر .

ومنه ما قاله الشّنفرى في وصف المعركة التي شاركه فيها بعض الصعاليك ضد قبيلة خثعم : (٤)

دعيني وقولي بعدما شئت إنني سَيَغْدُىٰ بِنَعْشي مَرَّةً فأُغَيَّبُ

وقول قيس بن الحدادية : (٥)

قالَتْ وعيناها تفيضان عَبْرةً بنفسي بيِّن لي متى أنتَ راجِعُ
فقلتُ لها : واللهِ يدرى مسافرٌ إذا أضمرته الأرضُ ما اللهُ صانِعُ
ولا يَسْمعنْ سرّي وسرَّك واحدٌ ألا كلُّ شيءٍ جاوزَ اثنين شائِعُ

---

(١) ديوان عروة ، ص١٠٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص٩٠ . المعتّر : الجائع .
(٣) = = = ، ص٦٦ .
(٤) الطرائف الأدبية ، ص٣٢ .
(٥) معجم الشعراء / المرزباني ، ص ٢٠٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقول أبي الطمحان القيني ، ينتخلص من كل من يعوقه او يكثر من لومه على ركوب متـــــن الأهـــوال : (١)

لَوْكُنْتُ في ريمان تَحْرُسُ بابَـــه ... أَراجِيلٌ أحبوشٍ وأغْضَفُ آلِـــفُ
إذاً لأتتني حيثُ كنتُ منيّـــتي ... يَخُبُّ بِهـا هادٍ بِأمْرِيَ قانِـــفُ
فَمِن رَهْبَـةٍ آتـي المَتالِفَ صادِراً ... وأيّةُ أرْضٍ ليس فيها سَتالَـــفُ

وقول عمرو بن براقـة : (٢)

نَقُولُ سُلَيْمى لاتَعَرَّضْ لِتَلْفَـــةٍ ... وَلَيْلُكَ عن ليلِ الصعاليكِ نائمُ

فهذه التجارب أيضا تطرح مشكلة الجوع ومشكلة الفقر في صور نفسية تتفاعل فيهما غريـــزة حب الحياة (متمثلة بقبول الواقع)، ونزعة الحركة والمغامرة باعتبارها تشكل هاجس المثال للحيـــاة الأنسانية ، فضلا عما تتضمنه من نزوع لإيصال نسغ الحياة للناس جميعا . وهذا ما يقوى الإطمئنـــــان بالقول أن الشعراء الصعاليك أدركوا بصورة فطرية نقية دور الشاعر ومهمته الإنسانية .

يقول الأعلـــم : (٣)

أَحُبْشِيٌّ إنّا قد يُمَتِّعُنا الغِـــنىٰ ... بأموالِنا ... نُريحها ونُسيمُها
ونَحبِسها على العظائم .. نتّقي ... بها دعوةَ الداعين .. إنّا نُقَيمُها
إذا النّفساء لم تُخَرِّسْ بِبِكْرِها ... غُلاما ،ولم يَسْكُبْ بِحَترٍ فَطيمُها

فالغذاء قد تجاوز الكيان المادى عند الصعاليك الشعراء . ومن تحليـل مشكلته أبصرنـــا عالما نفسيا مخالفا للبنية الكلية التي تشكل فيها (المجتمع) .

وكان إيغال هذه الجماعة بالتعبير عن حاجتها للقوت أشبه شيء بزواجر نفسية تصدهـــم عن التجانس مع واقعهم ، وتغريبهم بالتهيئو لغرض زاخر بالحركة والنمـا ..

وإن أسلوب الحصول على الغذاء عندهم يتميز تميزا كبيرا عما يألفه غيرهم . فهو عندهـــم نقطة البداية لجدلية واعية بين صيغتين متباينتين في الوقت الذى يقوم عند غيرهم علـــــى الانقطاع والثبات على الشخصية الاجتماعية والاقتصادية المختلفة في ذلك الواقع .

---

(١) الاغانـــي ،جـ١١ ، ص ١٣٢ .

(٢) المؤتلف والمختلف الآمدى ،ص ٨٨ .

(٣) ديوان الهذليين ١/ ٦٧ . الخرسة : طعام الولادة . الحتر : الشيء القليل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأكثر الذّين مَسّهم الذل من الجـــوع من غير الصعاليك عاشوا عيشة راضية في كنـــــف من التمسوا في ظلهم لقمة العيش ٠

غير أن ذلك لايعني أن الصعاليك كانوا ذوى منحىٰ واحد من الوقوف فيوجه المجتمـــــع والمطالبة بحقوقهم ٠ فبعض الأغزية السود من الصعاليك خلدوا إلى الراحة ورضوا بالقليل ممـــــا جعلهم عرضة لتنديد الفئة المعارضة كما تبين ذلك في قصيدة عروة : " لحىٰ الله صعلوكا " ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢ - اللبـــــــاس والزينـــــــــــة

تشبّث الإنسان باللباس في جوهره بدأ منذ هبط الإنسان على عتبة وجوده ، ووقع في مأزق أثناء الرحلة المصيرية ، فوهبته الطبيعة ثاني معطياتها (الأول الطعام) منذ خلق آدم : " فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة "(١)

فكان هذا الواقي من معطيات الطبيعة إيذانا بغلبة الذات الموجهة على مشكلة حيويـــــة تتمثل في الغرّي القاسي من جهة ، ونزوع الإنسان إلى التعالي إلى حياة ما فوق الطين ، وفتح الأبـــواب الى عالم القيم من جهة أخرى .

بذلك فرض اللباس سلطانه بين الأحتياجات الأساسية للإنسان في بعديه الفردى والجماعي، (الجسمي والروحـــي) .

أمّا الفردى فلأنه يمثل استجابة لما فرضته حتمية الطبيعة وهو بهذا لايقل أهمية وضـــرورة عن أيّ مكوّن آخر يدخل في تصميم حياته .

أما كونه جماعيّا ، فلأنـه أصبح ممثلا لقرار جماعي (يمثله آدم وحواء) في سياق إعـــداد الإنسان لاستقبال حياة إنسانية متنامية مادة ومعنى .

يبين الدكتور محمد رياض بداية هذه العلاقة بين الانسان واللباس بجانبيها المادى والروحي قائلا : (٢)

" وعلى هذا فأن الانسان لم يهزم الظروف المناخية المختلفة الا بابتكار الملابس ، فـــأن الملابس أيضا - الى جانب وظيفتها - قد أصبحت جزءا جماليا من حضارة الانسان ، وذلك بفضل حـــب الإنسان للجمال ، ولايعني هذا مجرد الملابس ، بل إن الزينة جزء من ملابس الإنسان في مختلـــف الحضارات . وهي أيضا إنتاج جمالي بحت ، مرتبط بالقيم الجمالية عند الشعوب والحضارات المختلفة، وينطبق هذا على البدائيين وأصحاب الحضارات العليا وعلى الحضارات المعاصرة كافة .

هذا الدرس الأولي الذى تلقاه الإنسان من كتاب الكون يشكّل إنجازا حياتيا جاء نتيجـــة للتفاعل الجدلي بينه وبين الطبيعة ، وفي الوقت نفسه يجسد تجربة ثلاثية الأبعاد : ماديـــة، روحية ، ذوقيـــة .

---

(١) سورة الاعراف ، ى ٢٢.

(٢) الانسان ، ط٢ ، ٩٧٤ . دار النهضة العربية ، ص ٣٦٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تمشياً مع المنهج الذى سرت عليه وهو استنطاق الشعر فيما يقدم صورة عن فهم الصعاليك للإنسان ضمن إطار حاجاته ، لابد من الوقوف على قدر من نماذجهم باعتبارها المادة الأولية الداخلة في تحديد نظرتهم .

إن رصيد ما يتحدث عن اللباس والزينة والتزيّن في هذا الشعر في توزيعاته المتفرقة على المساحات الشعرية يشير الى قلة هذا النوع . وفي هذا القليل ما يعطي إحساسا لدى القارىء بأن اللباس لم يستأثر باهتمام هذه الفئة .

فهل كان تكريس الشاعر طاقته الفنية للبحث عن نموذج جديد لحياته وحياة البائسين ما شغله عن ذلك ؟ أم أدخل في خلده أن الحديث عن اللباس يبدو مجرد مظاهر عبثية أمام مشكلاته الأخرى ؟ أم أن ما تقتضيه حياته من ضرب في الصحارى وتخطٍّ للعقبات ، وترضٍّ لمطارح الغنى ، والعدْو السريع ، والتهيئو الشديد لما يتربصه ، وغير ذلك حمله على النزوع للتخفيف من اللباس ؟ أم أن صعوبة الجمع بين أوضار اللباس وحمل السلاح في حياة وسمت بالانطلاق فرضت عليه التخفف من اللباس ؟ .

جميع ذلك ممكن في تفسير قلة ما تردد من اللباس في تجارب الصعاليك الشعرية . يقوّى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من احتلال لباس القدم من مكانة جسدية ونفسية بارزة لديهم .

وحتى لباس المرأة - وهو من أبرز المظاهر الجمالية - لم تمتد أبعاده في شعرهم إلا قليلا ، ذلك لأن الشعر ليس تعبيرا منعزلا عن هموم قائله وهموم وعيه ، انما هو متولد عن ذلك إذا ما طرحنا منه شعر المناسبات والمجاملات الاجتماعية .

من هذا القليل في اللباس وعرض الزينة ما وقع في لامية الشنفرى في قوله : (١)

وَلاخالِفِ داريةٍ مُتَغَـــزِّلِ ... يَروُحُ ويَغْدُو داهنًا يَتَكَحَّـــلُ
إذاالأَمْعَزُ الصَّوّانُ لاقى مَناسِمي ... تَطَايَرَ مِنْه قادِحٌ وَمُفَلَّـــلُ
فإمّا تَرَيْني كابْنَةِ الرَّمْلِ ضاحِيًا ... على رَقّةٍ أَحْفَى ولا أَتَنَعَّـــلُ
تَصَبَّبْتُ له وجْهي ولاكِنَّ دونَـــه ... ولا سِتْرَ إلاّ الأَتْحَمِيّ المُرَعْبَـلُ
وضافٍ إذاهَبَّتْ له الريحُ طَيَّرَتْ ... لبائِدَ عن أَعْطافِهِ ما تَرَحَّيَـــلُ
بَعيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عهدُه ... لَهُ عَبَسٌ عافٍ مِنَ الغِسْلِ مُحْوِلِ
تَرُوْدُ الأَراوى الصُّحْمُ حَوْلي كأَنَّها ... عَذارَى عليهِنَّ المُلاءُ المذيَّلُ

---

(١) لامية الشنفرى ، ص٦٩ . الخالف : الاحمق . دارية : الذى لايترك داره . الأمعز : الصلب . المفلل : المكسر . ابنة الرمل : الحية . ضاحيا : بارزا للحر أو البرد . رقة : سوء العيش . الاتحمي : نوع من الأثواب . المرعبل : الممزق . العبس : ما تعلق في أذناب الإبل من أبعارها وجف عليها . الأراوي : أنثى الوعل . الصحم : السود .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالشنفرى كما يبدو في هذا القول يميل عن أعراض الزينة والاهتمام بأنواع اللباس والستائر الكثيفة ، فهو في حركة دائمة واتجاه نحو آماد بعيدة ، يشكل اللباس ونحوه حاجزا دونها ٠

فالعلاقة بين الشاعر واللباس وما يتصل به من مكملات علاقة ثراء نفسي وزهد في هذا المتاع ٠ وهذا الأنعتاق من قيود ما يشتهيه الإنسان العادى من اللباس يكاد يشكل منحى متميزا عند الصعاليك ، وهذا لايعني خلو شعرهم من الخبرات الجمالية الصادرة عن التأمل في مصادر الجمال، ولكن مطالب الحياة الأساسية هي التي وجهت استجاباتهم واستنفدت طاقاتهم ٠ أما ما لاعمق له في أصالة الحياة من مظاهر جمالية تبدو في اللباس فلا تحظى باهتماماتهم ٠

وتبدو العلاقة (الأهتمام) في النعال بصورة جلية أكثر من سائر اللباس ٠

ولئن رغب الشاعر في أبياته السابقة عن اللباس والثياب والدهن والكِنّ ٠٠ فلأن أكبر القوى التي تعوق نشاطه وحركته تتمثل فى عُري القدم ، ولأن أ هم القوى التي يصارع بها الطبيعة هي القدم ٠

ولايكفّ الشاعر عن حديثه عن الانتعال أو الحفىٰ أن يجعلهما محورا ثابتا لمطالبه الجسدية والنفسية ٠ يقول أبو خراش :(١)

وَنَعْلٍ كأشْلاءِ السَّمانِي نَبَذْتُها ... خِلافَ ندىٰ من آخرِ الليلِ أدْهَمْ

ويقول أيضا :(٢)

قليلُ جِهازِى غَيْرَ نَعليْن أُحفِيَت ... صُدورُهُما محفورةٌ لاتُخَصَّفُ

وَمِلْحفةِ دَرْسٍ وَجُرْدٍ مَلاءةٍ ... إذا أُنْجِمَت من جانبٍ لاتُكَفَّفُ

فاللباس بصورة عامة لم يقع إلا لماما وسبب تراجعه كماأشرت يعود الى طبيعة حياة الصعلوك التي فرضت عليه الاستغناء عنها.من مواقع ذلك قول الشنفرى :(٣)

وآلَفُ وَجْهَ الأرضِ عِنْدَ افتراشِها ... بأهدأَ تَنْبيهِ سَناسِنُ قُحَّلُ

وقول تأبط شرا :(٤)

لعمروفَتى نِلْتم كأنّ رداءَهُ ... على سَرْحَةٍ من سرحِ دَوْمةَ شانِقِ

وقولـه أيضا :(٥)

يَقولُ أهلكتَ مالاً لو قَنِعتَ به ... من ثوبِ صِدقٍ ومِن بَزٍّ واِعْلاقِ

---

(١) ديوان الهذليين ١٣١/٢ (٢) ديوان الهذليين ١٣١/٢٠

(٣) اللامية /الزمخشرى ،ص٨٥ ، الأهداء : الشديد الثابت ٠ يقول إنه يفترش الأرض بجسم قوي تعّود على الخشونه ٠ (٤) ديوانه ، ص١٢٣ ٠ سرحه : شجرة طويله ، شاحه : صعد رأسه الى اعلى ٠

(٥) ديوانه ، ص ١٤١٠

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لكن قسرية اللباس مع بقية الاحتياجات تراكما على كاهل الشاعر تبرز لامع ازدياد التباين بين الصعلوك الفرد والفرد الموسر فحسب ، وإنما بين أفراد أسرته وأسرة غيره ، إذ يترتب على هذا التباين سلسلة من العلاقات المتنافرة ، بل تتحول الى عقدة نفسية واجتماعية ولاسيما داخل أفرادالقبيلة الواحدة . يمثل ذلك قول الأعلم الهذلي : (١)

وَذَكَرْتُ أَهْلِي بالعَراءِ وحاجَةَ الشَّعْثِ الثَّوالِبْ
المُصْرِمين من التِّلادِ اللامحينَ إلى الأقارِبْ

ولا شك أن رؤية من يعولهم الأنسان على هذا الحال من البؤس والحرمان لمما يستحضر رؤى الحلّ لهذه المشكلة على صعيد الواقع أو في تصور الأوهام والأطياف .

لمثل هذا أطلق تأبط شرا لنفسة عنانأحلامه فقال : (٢)

ياعيدُ مالَكَ من شَوْقٍ وإيراقِ ومَرِّ طَيْفٍ على الأَهْوالِ طَرّاقِ
يَسْرِي على الأيْنِ والحيّانِ مُخْتَفِيًا نفسي فِداؤك من سارٍ على ساقِ

على أنه لافرق بين الغذاء واللباس من حيث شرف المكتسب وكرامة المجتني .

يكون اللباس كساء عزة إذا حصل عليه الإنسان بالمجاهدة لابالدعة والأمان .. بل انه تجسيد للحرية التي تؤخذ ولاتمنح . كثير من هذه التصورات النفسية نجد أصداءها في قول الأُحَيْمر السعدى : (٣)

أَشْكو إلى الله صبري عن زَواملِهِمْ وما أُلاقي إذا مرُّوا من الحُزْنِ
قُلْ للصوصِ بني اللَّخْباء يَحْتَسِبوا بَزَّ العِراقِ وَبِيْعُوا طَرفةَ اليَمَنِ
فَرُبَّ ثوبٍ كريمٍ كُنتُ آخُذُه مِنَ القِطارِ بِلا نقدٍ ولا ثَمَنِ

ويخيّل اليّ أن اقتران اللباس عند الصعاليك بالعلوّ النفسي إنما ظهر محاولة للتعويض عما افتقده في مجتمعه من التقدير والاهتمام .. فحرص على إظهار هذا الإحساس المقهور بصيغ متنوعه أظهر ما فيها النقمة على المترفين .

ومن الذين مضوا على هذا الطريق المتصاعد عروة بن الورد في قوله : (٤)

لحىٰ اللهُ صُعْلوكا مَناهُ وَهَمُّه مِنَ العَيْشِ أن يَلْقى لَبوسا وَمَغْنَما

---

(١) ديوان الهذليين ، ٢/٨١ .
(٢) ديوانه ، ص١٢٥ ،الايين : الحية . (٣) أمالي القالي ١/٨٤ ، وأشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١١٣ مع اختلاف في الترتيب . (٤) ديوانه . ص ١٢٥ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ولكن الموقف الشعرى الذى يعيشه الشاعر يمثل معبرا ينقل الشاعر من هذا العالم النكد والحياة الآسفة الى مثال يطمح في الوصول إليه ٠

وإن إلقاء الأضواء على إنسان الشاعر هنا من عرضه لمشكلة اللباس يعكس لنا تقابلا ضدّيا بين الطبيعتين :

فالفقر والشظف والتمزق الذى يعاني منه إنسان الصعاليك يقابله ثراء في النفس وسمّو في الروح ، وتماسك في الأرادة ، والعكس يصدق على انسان الطبقة الأخرى المقابلة ٠ فهذا الشاعر الأعلم يسخر من رجل سمين ، يعيش بين الستائر والحضائر ، وجهت اليه امرأته برّها وعنايتها حتى سمّنته ، فأصبح من صنعها ، ولكنه ضعيف القلب ٠ يقول في ذلك : (١)

أيَسْخَطُ غَزْوَنا رجلٌ سمينٌ ... تُكَنِّنُهُ السِّتارةُ والكَنيفُ
ولو رقَّعْتَ ثوبَكَ في خُروقٍ ... تَهَوُّلُك في مهالِكِها الشُّذُوفُ

ولعل رفض الشاعر لواقعة وشعوره بانغلاق ذلك المجتمع مما عمّق صلته بعالم آخر ، أفراده مثل الشاعر ضآلة جسدية ، واختراقا للزمان والمكان ٠

إن الشاعر يحاول أن يصنع معظم ما يتفاعل معه في بنية الإنسان الذى يريده من حيث نزوعه عن الكثافة المادية ٠ فسلاحه مثلا لايكون فعّالا إلا اذا كان ذا خصوصية تشبه خصوصية الشاعر في تجردة من ربقة اللباس ٠ يقول تأبط شرا : (٢)

فَطار بقِحْفِ ابنةِ الجِنّ ذو ... سَفَاسِقَ قد أخْلَقَ المِحمَلا

حتى بعض الحيوانات الدنيا كالهوامّ يضفي عليها مثل هذا الوصف كما في قوله : (٣)

عَظاءَةَ قَفْرٍ لها جُلَتانِ ... من وَرَقِ الطَّلْحِ لم تُغْزَلا

فهذا وغيره يكشف عن رؤية خفية للشاعر إن لم تعكسها الألفاظ مباشرة أمكن فهمها من الواقع الذى انغرست فيه هذه الألفاظ (حياته) ٠

---

(١) شرح ديوان الهذليين ١/٦٨٠
(٢) ديوان تأبط شرا ، ص ١٦٤ القِحف : العظم الذى فوق الدماغ ٠ ذو سفاسق : السيف ٠
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٥ ٠ عظاءة : دويّبة أرضية ٠ الطلح : الشجر ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣- المسكـــــن / المرقبـــــــة

تبين أن الاحتياجات الأساسية من غذاء ولباس لازمت بني الانسان منذ دبت الحياة فـــي كيانهم ، وتبين أيضا موقع هذه الأحتياجات عند الصعلوك جسميا ونفسيا من خلال ما تحدث به الشعر، فما هو دور المسكن بعامة ؟ وما وظيفته بخاصة عند الانسان الصعلوك ؟ ٠

لعل في طرح تساؤلات الدكتور محمد رياض هنا ما يبين لنا مدى التلاحم بين الانســـــــان والسكـــن :

يقول رياض : " فهل المسكن أساسا عبارة عن مأوى يحمي ممن بداخلة من تقلبات الجـــو ، ويعطيه الأمان ضد المعتدين من حيوان وإنسان ؟ وهل فكرة الشعور بـ " الخصوصية ٠٠٠ داخل المسكن فكرة قديمة تعكس رغبات الإنسان في الاختلاء الحرّ ٠ وأن يكون بمنأى عن أعين الناس ؟ أم أن هـــذه الفكرة حديثة نسبيا ؟ ماهي احتياجات الناس المادية والخلقية بالنسبة للمأوى ؟ وبعبارة أخـــرى ماهي وظيفة المسكن في الحضارة ؟

يبدو أن المسكن كان في أصوله الأولى الأداة الحضارية التي تغلب بها الانسان على الظروف المناحية ٠٠٠٠ وفكرة الخصوصية تدو ر في جوهرها حول الاحتياجات البيولوجية بين الجنسين ٠٠ " (١)

وظيفة المسكن على هذا النحو تتحدد بـ (الإيواء والحماية ، والخصوصية) ٠ فما الذى حققه الشاعر الصعلوك من هذا التثليث لهذهه الغايات ؟ وماذا كانت رؤيته لذلك ؟ وهل تجاوزت هـــذا التثليث أم وقفت عنده ؟ ٠

الذى يؤكده الشعر الجاهلي أن الانسان في الحياة الجاهلية لايستطيع أن يحيا الاّ في ظـل قبيلته ٠٠٠ فهي جناحه ، وهي منطلقه ، وهي مقره ، وهي بالتالي مَن يحدد له المسكن الذى يلتصـق بهه ويذود عنـــه ٠

في غياب التوازن بين الصعاليك ومجتمعهم ، وفي إيقاع الخلع على هؤلاء الأفراد ، وفـــي ظل المطاردة والترصّد لهم من قبل الأعداء يفقد المسكن أهميته ووظيفته ، وعندما تفرض غريزة حـــب البقاء على الأنسان البحث عن أماكن توفر له الأنعتاق من الخوف والذل ، فكان أظهر معادل يعوضهم ما افتقدوه يتمثل فيما أطلق عليه اسم المرقبة ٠ وهي " مكان حصين يجتهد الصعلوك في حسن اختياره ، بحيث يحقق له غرضين ، أحدهما مراقبة الطريق والمكان المحيط به ، فيكشف السائرين في الطريـــق

---

(١) الانسان ٠ ص ٣٧٧٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أو الطرق المحيطة به ، والآخر حصانة المكان بحيث يتيح له التخفي عن الأعين ، ويتيح له الدفاع عن نفسه إن أحس الخطر " (١)

وإذا كانت المرقبة تقوم بوظيفة المسكن وأكثر من ذلك فمن الطبيعي أن يلتحم بها ذووها أشد الألتحام ، وأن يضفوا عليها كثيرا مما يحسونه من الحب والافتخار ، فما حقيقة شعورهم وارتباطهم بهذه المراقب ؟

يقول الشنفرى : (٢)

وَمَرْقَبَةٍ عيطاءَ يَقْصُرُ دونَها ... أخو الضَّرْوَةِ الرِّجْلُ الخَفيفُ المُشَفْشَفُ
نَمَيْتُ إلى أعلى ذُراها وَقَدَّدنا ... من اللَّيْلِ ملتفُّ الحديقةِ أسدَفُ
فَبِتُّ على حدِّ الذِّراعين مُحْدِبا ... كما يتطوّى الأرْقَشُ المتقصّف

ان مرقبة الشاعر عالية لايرقى اليها إلا من تميز بالشدة والفاعلية ، وهذا العلو الخارجي ينقلنا الى ما يتفرد به قائله من تسامٍ عن الحياة المادّية المتولدة عن التعايش الوضيع بكل ما فيه من مواقف الهزيمة الى حياة عميقة نامية . هي باختصار تحقيق " أنا " الإنسان فوق الواقع الذى تخلى عن الصعلوك . وتعمل على مستويين ، أحدهما يسد حاجاته الجسدية من إيواء وتحصين واستمرارية والآخر ، يبرزه بصورة متفردة من السمّو والمضاء وحدة المراس . وقدكثر الحديث عندهم عن المرقبة حتى كادت أن تشكل في شعرهم خطا مميزا وعلامة فارقة .

ومن الملاحظ أن بين حديث الشنفرى وحديث غيره من الصعاليك تماثلا في المضمون ، كما بينهم تماثل في الرابط الأجتماعي والنفسي ، وان كان لكل مرقبة خصوصيتها الفنية في ملامحها الدقيقة . وهذا التماثل نجده في وصف تأبط شرا لمرقبته بقوله : (٣)

وَمَرْقَبَةٍ شماءَ أقْعَيْتُ فوقَها ... ليَغْنَمَ غازٍ أو ليُدْرِكَ ثائرُ

وقوله : (٤)

وَقَلَّدَكَسِنانِ الرُّمحِ بارزةٍ ... ضَحْيانةٍ في شهورالصَّيْفِ مِحْراق
بادَرْتُ قُنَّتَها صَحْبي، وماكسلوا ... حتى نَمَيْتَ إليها بعدَ إشْراق
لاشَيْءَ في ريْدِها إلا نعامتُها ... منها هزَيمٌ، ومنها قائمٌ .. باقي

ان مرقبة تأبط شرا فيها انعكاسات من شخصيته : فيها الكبرياء والمضاء والتحدّى ، وفيها

---

(١) شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه . د . عبدالحليم حفني ، ص ٢٤١ .
(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية ، ص ٣٧ . العيطاء : المرتفعة . أخو الضّروة : الصياد معه الكلاب المشفشف : النحيل . الأسدف : المظلم .
(٣) ديوانه ، ص ١٦ .
(٤) ديوانه ، ص ١٣٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تهدم ٠ وما علّوها إلا صورة عن تفوق الشاعر على غيره ، وما انهدام أحد جوانبها (فيها هزيم) الاّ صورة لتحطم بعض جوانب حياته ، اذا ما تجاوزنا المعاني اللفظية لتلك الأبيات ٠

ويتبدى هذا التماثل المعنوى والنفسي أيضا في وصف أبي خراش لمرقبته قائلا : (١)

لَسْتُ لِمُرّةَ إن لم أوفِ مَرْقَبَـةً ... يبدو لي الحرفُ منها والمَقاضيب
في ذاتِ ريدٍ كَذَلْقِ الفأسِ مُسْرفةٍ ... طَريقُها سَرِبٌ بالناسِ دَعْبـوب
لَمْ يَبْقَ مَن عرشِها إلا دعامتُهـا ... جَذْلانِ مُنْهَدِمٌ مَنها ومنصـوب

فابو خراش فيما سبق يجعل وجوده رهنا بهذه المرقبة (لست لمرّة) وهي قدرة موجهّة لسلسلة صراعاته مع الزمان والمكان ورمز لقيمته ومواصلة كفاحه لتلبية حاجاته المادية والنفسية ٠

كما نجد أثر هذا التناغم بين الشاعر ومرقبته ، عند ذى الكلب ٠ فمرقبته عجيبة تثير الشوق لرؤيتها ٠ وهي ذات مكانة مرموقة في نفس الشاعر ٠

يقول في ذلك : (٢)

وَمَرْقَبَةٍ يَحارُ الطَّرْفُ فيها ... تَزِلُّ الطَّيرُ مُشرفةِ القُذالِ
أقَمْتُ بِرَيْدِها يومًا طويلا ... ولَم أشْرُفْ بها مثلَ الخَيالِ
ولم يَشْرُفْ بها شَرَفي ولكنْ ... دَنَوْتُ تَحَدُّرَ الماءِ النَّزّالِ

فالشاعر يعني عناية فائقة في اظهار مرقبته ، ويسبغ عليها من الوصف ما ينسجم مع نفسه التائقة للخلاص من الأوجاع والهموم ٠

ويقول عروة في المرقبة : (٣)

إذا ما هَبَطْنا مَنْهَلاً في مَخوفَةٍ ... بَعَثْنا رَبيئًا في المرابِئِ كالجَذْلِ
يُقَلِّبُ في الأرضِ القضاءَ بطرفِهِ ... وَهُنَّ مَناخاتٌ ، ومِرْجَلُنا يَغْلي

فهو يشق طريقه بأرادة قوية ليصل الى المرقبة ، متخذا منها معادلا يجسّد مطامحه ويعوضه ما افتقده من نسب موروث ٠

---

(١) ديوان الهذليين ، ١٥٩/٢ ٠ الريّد : حرف الجبل الناتيء ٠ ذلق : حد ٠ دعبوب : موطوء مطروق ٠
(٢) شرح أشعار الهذليين ، ٢٣٧/١ ٠ القذال : الرأس ٠
(٣) ديوانه ، ص١١٦ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالشعراء الصعاليك في بحث مستمر عن نماذج سامية ، يسقطون فيها إحساساتهم ورؤيتهم ولو كانت هذه النماذج من أشياء لم يألفها غيرهم . وهم إذ ينسبون لمراقبهم العلوّ وصعوبة المرتقى والمضاء وغير ذلك من التشخيص لعلهم يستعيرون هذه الدلالات الطريفة ليقدموا لنا صورا لذواتهم. ولا غرابة في ذلك فالمرقبة والحالة هذه فيما عرضناه من شعر قطعة من نفسه الصاعدة المرهقة بالتبعات . وبهذا الاتجاه يقرب هذا النزوع مما صنعه اليونان بإحلال أبطالهم قمم الجبال .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السـلاح :

أ - الأداة

إن تشكل العلاقات الضدية بين الشاعر الصعلوك وبين مجتمعه وبينه وبين مظاهر الطبيعة القاسية في محاولته بلوغ ذاتيته عن طريق مجابهة هذه الظروف الحياتية والتصدّي لها فرض عليه التماس مؤهلات جسدية وعقلية ووجدانية تؤمّن له مايمكن اكتسابه من ضرورات الحياة المادية والروحية . وبتعبير آخر لتحقيق رزقه اليومي وتحقيق مضمونه الأنساني .

وليس كالسلاح المادى والمعنوى ما ينبغي امتلاكه والتعضون معه في ظل هذه الحياة . وهو عند عمرو بن برّاقة ثالث ثلاثة لاتستقيم الحياة دونها . : (١)

مَتى تَجْمعِ القَلْبَ الذكيَّ وصارِمًا ... وأنْهَاَ حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المَظالِمُ

ويزداد الألتصاق بالسلاح بقدر ماتزداد الهوّة بين حامله من الصعاليك وبين مجتمعه

ويؤكد الشنفرى هذه القربى العضوية بينه وبين السلاح قائلا : (٢)

وإني كَفاني فَقْدُ مَنْ ليس جازِيًا ... بحسنيٍ ولا في قُرْبِه مُتَعلَّلُ
ثلاثةُ أصْحابٍ فؤادُ مشيَّعٌ ... وأبيضُ إصْليتٌ وَصَفْراءُ عَيْطَلُ

وهذا التشكيل الوشجي للسلاح وخاصة السيف يكثر لدى شعراء الصعاليك ؛ ذلك لأن حياة حاملة رهن بوجوده . وهو على ما يحمله من مودة وإيلاف وحماية للنفس من المهالك ، وبما يجلبه من رزق عاجل ومطالب أولية كالماء ، يجسّد قيما تنتشر عبر صور الأسلحة .. ثم تصبح رمزا للإنسان الذى ينشده الصعلوك .

وقد تكرر ذلك عند الشنفرى كمافي قوله : (٣)

وإنّكِ لو تدرين أنّ رُبّ مَشْرَبٍ ... مَخُوفٍ كَدَاءِ البَطْنِ أو هُوَ أخْوَفُ
وَرِدْتُ بمأثورٍ يمانٍ وَضَالَةٍ ... تَخَيَّرْتُها مما أُرِيشُ وأرْصُفُ
أُرَكِّبُهَا في كلِّ أحْمَرَ غائرٍ ... وأنْسِجُ لِلْولدانِ ما هو مُقْرِفُ
وتابَعْتُ فيه البَرْيَ حتى تَرَكْتُهُ ... يُرِنّ اذا أنزفتُه ويَزَفْزِفُ

---

(١) الأغاني ، جـ٢١ ، ص ١٧٦ .
(٢) اللامية ، ص ٥٣ . المشيّع : المقدام . إصليت : الصقيل المجرد - عيطل : القوى الطويلة .
(٣) ديوانه ، من الطرائف الأدبية ، ص ٣٨ . مأثور : سيف ذى أثر . يزفزف : صوت القدح حين يدار . أي يصف حرفه سهمة حين انطلاقه .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فالشنفرى يمنع من ورود الماء وقد استبدّ به الظمأ ، عندئذ يصبح السلاح المخلّص الوحيد من الهلاك وتهديده الأرواح الظامئة .

وكما هو وسيلة الأمن المادى فهو وسيلة لحماية فضائله وقيمه يقول تأبط شرا : (١)

لأَطْرُدَ نَهْباً أو نَرودَ بفتيةٍ ... بأيمانهم سُمْرُ القنا والعَقائقُ

ويقول عروة مصورا أهمية السلاح : (٢)

ومالي مالُ غيرَ درعٍ مُعَفَّرٍ ... وأبيضَ من ماءِ الحديدِ صَقيلُ

وأسمرَ خطّيٍّ القَناةِ مُثقَّفٍ ... وأجردَ عُرْيانِ السَّراةِ طويلُ

فاذا كان السلاح هوالذى يعزز وجود الصعلوك ، ويحمي قيَمه ، ويصعّد رفضه لما هو عليه ، ويمكنه من اعادة النظر في صياغة حياة جديدة تنسجم مع احساسه ، ويحل أهم مشكلاته ، فانه ينبغي أن يكون جزءا لاينفصل عن كيانه جَسَداً وروحا ، بل ينبغي أن يكون في حياة الصعلوك أشدّ ظهورا من كثير من الاحتياجات الضرورية الأخرى .

ويلاحظ أن السلاح يتحول إلى إنسان ذى تطلعات يحاول الخلاص من ضيق الواقع إلى حياة أفضل ، وأن الشاعر يحمّله صفات نفسه وأخلاصه من رفعة وعشق للكرم ،والزهد في مباهج الحياة .

من هذه المضاهاة بين الانسان المثال والسيف قول أبي خراش : (٣)

أَشَمُّ كنَصلِ السيفِ يرتاحُ للنَّدى ... بَعيدًا من الآفاتِ والخُلُقِ الوَخْمِ

ومنها قول تأبط شرا : (٤)

اذا كَلَّ أمهيتُه بالصَّفا ... فَحَدَّ ولم أُرِهِ صَيْقَلا

وقد تنسحب هذه الصفات التي يضعها الصعلوك نصب عينيه على كل ما يدخل دائرة نشاطه ورغباته متوحدة فيها وفي معظم أشيائه . فأبو خراش مثلاً يجعل الثور الوحشي الذى يأخذ من جلده الترس نموذجا يصوغ منه بعض قيمه كالقوة والثبات والصبر فيقول : (٥)

---

(١) ديوانه ، ص ١٢٣ . العقائق : السيوف . أى تزور أعداءنا بفتية أشداء طلبا للثأر .

(٢) العمدة /ابن رشيق ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . دار الجيل ، ط٤ ، ص ٣٦٣ /ج٢ .

(٣) ديوان الهذليين ، ١٥٣/٢ .

(٤) ديوانه ، ص ١٦٥ . أمهيته : أحددته . الصقيل : شحّاذ السيوف .

(٥) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ . آلوك : ليس لك عندى ، أبو عجل : الثور . جلده : الترس . إخلاص الذكورة : شفرته حادة .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أواقِدُ لا آلُوكَ إلاّ مُهَنَّداً ... وجِلْدُ أبي عِجلٍ وَثيقُ القَبائلِ
غَذاهُ مِنَ السُّرّيْن أوْ بطنِ حلبه ... قُروعُ الأباءِ في عَميم السوائل
يَشِبُّ إذا الثيرانُ صَدّت طريقَه ... تَصَدّ عَنْ عَنه دامياتِ الشّواكِلِ
يَظَلُّ على البُرْز اليَفاعِ كأنّهُ ... طِرافُ رَستٍ أو تارُه عِنْد نازلِ

وعروة يجسّد في سلاحه الفاعلية والاستجابة السريعة والقدرة على المبادرة في الظروف الحرجة، كما في قولـــه : (١)

فكَيْفَ وقَدْ ذَكّيتُ واشتدّ جانبي ... سُلَيْمى ، وعِنْدى سامعٌ ومُطيـــع
لِسانٌ وسيفٌ صارمٌ وحفيظـــة ... ورأيٌ لآراءِ الرّجالِ صَـــــرُوعُ

وقولـــــه :(٢)

إذا قيلَ يا ابنَ الوَرْدِ أقْدِمْ إلى الوغى ... أجَبْتُ فلاقاني كَمِيٌّ مُقـــــارِعُ
بِكَفّيّ من المأثورِ كالملحِ لونُـــــهُ ... حديثٌ بإخلاصِ الذّكورَةِ قاطِـــعُ

ولعل ما يمتاز به بروز السلاح عند الصعاليك هو صدق الفعالية والمطابقة بين الواقع النفسي والواقع الفني في اعتدال بعيد عن المبالغات والقوالب الجوفاء . وكأن السلاح انبثق مع القيم التي تحيا في ذاته . وهو أيضا أداة لرفض القهر الاجتماعي والاقتصادى ، ووسيلة فعالة لاستمرار حركة المعارضة في قلب مجتمعهم ، وحماية المظلومين وحماية القيم التي يتمسك بها الصعلوك ، وأكثر ما يستخدم لصد مايعادى حريته وانطلاقه ، ويطغى على انسانيته . يقول حاجز الأزدى : (٣)

ألا زَعَمَتْ أبناءُ يَشْكُرَ أنّنـــــا ... بِرِبْعِهِمُ باءٌ وهُنالِكَ ناضِـــلُ
سَتَمْنَعُنا منكم ومن سوءِ صُنْعِكُم ... صَفائحُ بيضٌ أخْلَقَتْها الصّياقلُ
وأسْمَرُ خطّيٌ إذا هزّ عاسِـــلٌ ... بأيدى كماةٍ جَرّبَتْها القبائِـلُ

فالإعتدال ورؤية الشيء على حقيقته والدعوة إلى إعادة التوازن في الحقوق والواجبات والوصول إلى حلول ما يعانيه الصعلوك من الأزمات .. هو ما تملك تجربته في حديثه عن السلاح .

وفي اطار هذه الرؤى يتجه عمرو بن براقة ، فيقـــول : (٤)

---

(١) ديوان عـــروة . ص ٩٦ .
(٢) = = . ص ٩٧ .
(٣) الأغاني ، جـ١٢ ، ص ٥٠ .
(٤) المؤتلف والمختلف . ص ٨٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تَقُولُ سُلَيْمى لاتَعَرَّضْ لِتَلْفَةٍ ... وَلَيْلُكَ عن ليل الصَّعاليكِ نائِمُ
مَتى تَجْمعِ القلبَ الذكيَّ وصارِمًا ... وأنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المظالِمُ
وكنتُ إذا قومٌ غَزَوني غزوتُهم ... فهل أنا في ذا يالَ همدانَ ظالِمُ
ولا صُلْحَ حتى تُقْرَعَ الخيلُ بالقَنا ... ويُضْرَبَ بالبيضِ الرِّقاقِ الجَماجِمُ
اذا جرَّ مولانا علينا ظُلامةً ... صَبَرْنا لها إنا كرامٌ ، دعائِمُ

والشنفرى كما تحدثنا تجربته الشعرية في السلاح يتحرك في هذا المسار ، (الدفاع عن المظالم) ، ويحول سلاحه للأنتقام من القتلة ، يقول بعد قتل أبيه : (١)

فإن تطعنوا الشَّيْخَ الذى لم تُفَوِّتوا ... مَنِيَّتَهُ ، وَعْيِتْ ! إذْ لم أُشَهَّدِ
فَطَعْنَةُ خَلْسٍ منكمُ قد تَرَكْتُها ... تَمُجُّ على أقطارِها سُمَّ أسْوَدِ

فالسلاح فضلا عن كونه أداة حماية ودفاع وتحصيل للرزق عند الصعاليك في مجتمع غير متجانس اقتصاديا واجتماعيا ، فأنه يعدّ معوضًا نفسيا لهم عما افتقدوه من القبيلة والأهل ، كما يتحول عندهم الى موقف تتبلور فيه أبعاد مشكلاتهم ، يقول صخر الغي : (٢)

ذلِك بَزِّي فَلَنْ أُفَرِّطَهُ ... أخافُ أن يُنْجِزوا الذى وَعَدوا

والأسلحة كمانرى : " تكاد تكون كل مايملكون في حياتهم الفقيرة ، وهي من غير استخدام الأفعال المقاربة كل مايحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة ." (٣)

---

(١) ديوانه من الطرائف الأدبية ، ص ٣٥ ، تفوتوا : من الفوت (الترك)
(٢) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ ،
(٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د ، يوسف خليف ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ص ١٩٥ ،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - القـــوة الجسديـــــــة

التمس الجاهليون القوة من جميع مظانهـا ومصادرها للتكيـف مع طبيعة حياتهـم ٠ التمسوهـا في صلة الدم في القبيلة ، وفي الذكور من الأبناء ، فمن مظاهر اهتمامهم بالبنين أنهم " كانوا يسمـــون أبناءهم بأسماء قاسية مثل : حجر وصخر وضرغام وتأبط شرا وطارق ، لما يتفاءل فيه الشدة والصلابة ٠ " (١) والتمسوها في أطراف الرماح والسيوف والقسي والخيل والأبل ٠

أما الصعاليك فلم يكن لهم من ذلك إلا ما يقدرون على امتلاكه ، فبحكم الخلع فقدوا شوكـــــة القبيلة ، وبحكم الفقر لم يقدروا على امتلاك السلاح الكافي إلا في حالات قليلة مع اضطرارهم لـــــه أكثر من سواهم لمواجهة الخطر المحدق بهم ولجلب معاشهم من أيدى غيرهم ٠

واذا كان "قد ظهر بالحجاز والسراة من هؤلاء العدائيين الذين يَعْدُون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين " (٢) فلا بدّ أن يكون لهذه البيئة الجبلية أثرهـــا في تشكيل قواهم الجسدية وحركاتهم النشطة ٠

ذلك مما فرض على الصعلوك (وهو لا يملك إلا قُواه الجسدية في الغالب) أن يكون على درجـة عالية من الاستعدادات القتالية ، الهجومية والدفاعية ٠ وهو من جهة أخرى مطارد، ومترصّد له لا مـــن أعدائه الناس فحسب ، ولكن من القوى التي تحيط به وتساعد عليه تخطفه ٠ عليه مثلا أن يتجنـــــب الغفلة والنوم وضوء القمر ونور الشمس وكثافة الجسم وثقل الملابس ، فذلك مما يساعد عدوّه علـــــى اللحاق به ، من هنا اتسمت حياته بحدة التوفز والاضطراب ، وغلب عليها الفزع والهرب والتستر ٠

في ظل هذه الحياة المضطربة تصبح القوة الجسدية هي المعتمد التي يسندهـــــا ما قد يتوافر من الأسلحة إن وجد ٠

ومن أظهر ما ينجم عن هذه الطاقة الجسدية يتمثل في اجتياز المسالك الوعرة واقتحـــــام الكائنات والهوامّ المخيفة كالحيات والشعابين ٠ فتأبط شرا يبدى لنا صورة من ذلك فيقول : (٣)

يُسْرِي علىٰ الأيْنِ والحيّاتِ مُحْتَفِيـًا نفسي فداؤك من سارٍ على سـاق

فلا يسير على الشعابين والحيات إلاّ من أُوتيَ طاقة جسدية مذهلة ٠

---

(١) الحيوان - الجاحظ، جـ١ ، ص٣٢٤٠

(٢) الشعراء الصعاليك ٠ د٠ يوسف خليف، ص ٨٠ ، نقلا عن الأصمعي / فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة١٥٠

(٣) ديوانـــه ٠ ص ١٥٢٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما نجد هذه الفاعلية أو مثلها عند الشّنفرى في قولـــه : (١)

إذا الأَمْعَزُ الصّوّانُ لاقىٰ مناسِمي تَطايَرَ مَنهِ قـادحٌ وفُلَّـــلُ

فالقوة التي تدع الصوان يقدح تحت مناسم صاحبها لهي خصوصية نادرة ٠

وقد أبرز الصعاليك هذه القوى بأشكال مختلفة فهي في القدم أو الساق أو المنكب أو باطـــــني الركبة أو انحناء الساقين أو نحولة الشرسون (عظم مقدمة الساق) ٠

فعند أبي خراش في الساق ٠ يقول في ذلـــك : (٢)

وَرفَعْتُ ساقاً لايُخافُ عِثارُهـا وَطَرَحْتُ عنّي في العراء ثيابي

وهي عند أبي كبير في الساق والمنكب ، اذ يقـــول : (٣)

فإذا نَبَذْتَ لهُ الحَصَاةَ رأيتَـــه كَرَتوبِ كَعْبِ الساقِ ليسَ بُزمَّلِ

ما إن يمسّ الأرضَ إلا مَنْكِبٌ منه وحَرْفُ السّاقِ طيّ المِحْمَلِ

وعلى الرغم من غرابة هذا القول فإننا نحس فيه الصدق ، لا بالنسبة لمطابقته الواقع العـــام ، وإنما بالنسبة لواقعه النفسي الموصول بالحركة والتحدّى ٠

وتبدو عند أبي جندب في تقوّس الساقين ونحولهما ، فيقـــول : (٤)

أماتَرَوْنـي رَجُلاً جُونيّـــا جَفَلجَّ الساقَيْنِ أفْلَجيّـــا

وعند تأبط شرا أيضا في خفة اللحم وبروز العروق ٠ يقول في ذلـــك : (٥)

عَارِى الظّنابيبِ مُمْتَدٍّ نواشرُه مِدلاجِ أدهَمَ واهي الماءِ غَسّـــاقِ

والمظهر الآخر الذى تتجلى فيه قدرتهم الجسدية سرعة العدو والفرار في مواقف مختلفة لا مـــــن حيث درجتها فحسب ، بل من حيث غرضها كما سيأتي ٠

---

(١) لاميتـــــه ٠ ص ٥٦

(٢) ديوان الهذليين ٠ ص ١٣٦

(٣) حماسة أبي تمام ، ج ١ ، ص ١٩ ـ ٢١ ٠

(٤) ديوان الهذليين ٠ ٣/٨٧

(٥) ديوانه ٠ ص ١٣٦ ٠ الظّنابيب : ج ظنبوب وهو حرف عظم الساق ٠
النواشر : عروق ظاهر الذراع ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لمّا عرف الصعاليك داخل المجتمع بارتكاب ما يثير الرعب والقلق - وان كانوا مقتنعين بسرعة أعمالهم - فقد قدرلهم أن يعيشوا حياتهم طُرداء المجتمع ، فجاءت علاقتهم بأكثر الناس ضدية يقول تأبط شرا : (١)

لاشَيْءَ أسرعُ مِنّي ليسَ ذا عُذَرِ ... وَذاَ جَناَحٍ بِجَنْبِ الرّيْدِ خفاقِ

ويقول : (٢)

أُجارِي ظِلالَ الطّيرِ لوفاتَ واحِدٌ ... ولو صَدَقوا قالوا له : هُوَ أسْرَعُ!

فتأبط شرا يظهر خصوصية في سرعة العدو لا قِبَل لها إلا عند أقرانه . وأحسب أن التبادل النظرة بينه وبين مجتمعه ارتباطا في إبراز هذه الخصوصية ، ذلك أن الشاعر وهو يتخذ من سرعة العَدْو تجسيدا لمواقف واتجاهات قد يميل إلى ان يخالف المجتمع ويصل إلى مالم يصله ، ولايكون له ذلك إلا إذا بلغ حدّاً لا يبلغه سواه .

وقريب من هذه الصور في العدو قول الأعلم : (٣)

كأنّ مُلاءتيّ على هِزَفّ ... يُعَنّ مع العشية لِلرّئالِ

كأنّ جناحَه خَفَقانُ ريحٍ ... يَمانيةٍ بريْطٍ غيرِ بالي

ومما يزيد هذا الأمر طرافة أن الشاعر يحوّل مواقف فراره مضامين ومقولات تخالف ماتعارف عليه مجتمعة . فيدخلها في عداد ما يفاخر به . فالمعروف في المجتمع أن الفرار حالة بشعة تعكس موقفا سلبيا ، أما عند الصعلوك فتتحول من نسق سلبي الى نسق إيجابي جميل . وفي هذه الأبيات لأبي خراش ما يكشف عن هذه الرؤية التي تصور فراره من قبضة الأعداء بأنه ظاهرة جسدية متميزة : (٤)

لَمّا رَأيْتُ بني نُفاثةَ أقْبَلُوا ... يَشْلُون كلّ مُقَلّصٍ جنّابِ

فَتَشَبّثُ ريحَ الموتِ من تِلقائهم ... وكَرِهْتُ كلّ مُهَنّدٍ قضّابِ

ومما يصور هذا الإحساس بالعَدْو على أنه قيمة إيجابية هذا الأعتذار اللطيف لأبي خراش الذى لايعبّر عن حبّ الشاعر لنفسه بالقدر الذى يصور حب الإنسان للإنسان : (٥)

ولولا دراك الشدّ قاظت حليلتي ... تخير من خطابها وهي أيّم

فتقعد أو ترضى مكاني خليقة ... وكاد خراش يوم ذاك بيتيم

---

(١) ديوانه ، ص ١٣٣ . عذر : جعذرة وهي الخصلة من الشعر (الطرف) وقصد الفرس .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٣) ديوان الهذليين . ٢/٨٣ .

(٤) نفس المرجع السابق . ٢/١٦٨ . يشلون : يدعون . مقلص : فرس طويل القوائم . خناب : طويل - نشيت : شممت . أقب : ضامر . الأقراب : الخواصر .

(٥) ديوان الهذليين . ٢/١٤٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهكذا يغدو الفرار إلى جانب الظاهرة الجسدية المتميزة مسؤولية وحقا لازما للأسرة على الصعلوك حفاظا على قوام هذه الأسرة من غوائل الزمن ٠

ويخشى الشاعر أن يُتّهم بالجبن لفراره ، فيبادر الى نقض ماقد يقع في خلد حبيبه (ولعله يتحدث الى نفسه) ، جاعلا لفراره فضلا ومزية جسدية في بنيته فيقول : (١)

فأنْ تَزْعُمي أنّي جَبُنْتُ فإنّني ... أَفِرُّ وأرمي مَرّةً كلَّ ذلكِ
أُقاتِلُ حتى لا أرَى لي مُقاتِلاً ... وأنْجو اذا ما خفت بعضَ المهالك

وهذا حاجز الأَزْدي يندفع بحركات تصور سرعته الفائقة قائلا : (٢)

وكأنما اتبع الفوارس أرْنَباً ... أوْ ظَبْيَ رابيةٍ خِفافاً أشْعَبا
وكأنّما طَرَدوا بِجَنْبَيْ عاقلٍ ... صَدَعاً من الأَرْوَى أحَسَّ مُكَلَّبا

فالسرعة في الفرار في أكثر الأحيان هواية يمارسها الصعلوك ويعتز بها ٠ وحاجز إذيُشَبّه نفسه في الخفة بالأرنب أو الظبي ، فانما يعرض نفسه بصورة من الأنطلاق لامثيل لها عند أعدائه على حدّ نظرته سواء أصحت هذه النظرة في الواقع العام أم لم تصّح ٠ ولعل هذا الأعتقاد يعود لأحساسه بضرورة الأرتياد وكسر المألوف ورفض التبعية ٠

ومع أن أعضاء جسم الإنسان تشكل لدى الجميع تماثلا وظيفيا ٠ ـ فاليد مثلا ذات طبيعة واحدة ـ فالملاحظ أن القدم أو الساق تمتلك عند الصعلوك خصوصية جديدة بتفاعلها مع البيئة ونشاطها في منح وثيقة وجوده في صراعه مع الحياة ، وتمجيده للقدم لايقل عن حبّه للحياة، إذ على شدتها وتحملها يتوقف انعتاقه أو استسلامه وحركته أو خموله ٠

يصف تأبط شرا حركة قدميه ، وهو يخوض مغامرته ضد أعدائه قائلا : (٣)

أرَى قَدَمَيّ وَقْعُهُما خَفِيفٌ ... كَتَحليلِ الظَّليمِ خَدا رِئالَهْ
أرى بِهما عَذابَاً كُلَّ يَوْمٍ ... لِخَثْعَمَ ، أو بَجيلَةَ أو ثُمالَهْ

ويذهب حاجز الى أبعد من ذلك فيحوط رجليه بهالة من التقديس لما لهما من فضل عليه في نجاته فيقول : (٤)

---

(١) ديوان الهذليين ، ١٦٩/٢ ٠

(٢) حماسة البحتري ، ص ٥٠ ٠ الخفاف : المتوقد القلب ٠ اشعب : ماكان بين عينيه ٠ بعيدا جدا ٠ الصدع : الشاب القوي ٠

(٣) ديوانه ، ص ١٩٨ ٠ الظليم : ذكر النعام ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فِدًى لَكُما رِجْلِيَّ أمِّـي وَخَالَتِي بِشدِّكما بَيْنَ الصَّفَا والأثَائِـبِ (١)

وهما أيضا موضع التركيز عند الشنفرى حين يتحدث عن ملكاته إذ يقـول : (٢)

وَخَرْقٍ كَظَهْـرِ التُّرسِ قَفْرٍ قَطَعْتُه بِعامِلتَيْـنِ ظَهْرُه لَيْسَ يَعْمَـلُ

وسواء كانت هذه الصور التي يقدمها الشعراء الصعاليك واقعية أم وهمية ، فإنها تقدم صـورة للإنسان المثال على أنه متميز بالمناعة والصلابة وبخاصة في القدم والساق . ولا شك بأن العَدْو السريـع من مزايا الصعاليك ، وهو بالاضافة لذلك حركة تنسجم مع احساس الصعاليك وطبائعهم التي تأنـف من الأقامـة ، والخضوع .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(١) الأغاني ، ٢/٥٢ . الصفا والأثائب : أماكن .

(٢) لاميته ، ص ٧٠ . العاملتـان : رجلاه .

الفصل الثاني

الحاجات الروحيـــة عند الشـــعراء الصعاليـــك

الحريـــــــة
الإيثـــــــار
الصـــــــبر
موقفهم الوجودى من :
٠١ الزمن والمـــــــوت
٠٢ الخرافة والاســـــطورة
٠٣ الجن والغـــــــول

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني
الحاجات الروحية عند الشعراء الصعاليك

يقصد بالحياة الروحية ، تلك القوى المحركة للانسان في اتجاهاته الغيبية ، ومفاهيم الخصوصية للمبادىء الخلقية ، وما تحمله تلك المبادىء من رؤية للخير والشر ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والنظر لنواميس الكون والصلة بينها وبين الانسان ، سواء أكانت الرؤية عقلية أم غير عقلية كما تشمل النظرة إلى طبيعة التواصل بين الأفراد وبين المجتمع الذي ينتمون اليه من جهة ، وبين الهيئات الأخرى من سائر البشر ، كما تشمل الإنسان لحلّ مشكلاته وقضاياه .

ويبحث هذا الفصل أهم القضايا التي تشتمل عليها الحياة الروحية من خلال شعر الصعاليك ، والتي ظهرت فيها صورة الانسان متمثلا في رؤيتهم .

مشكلة الحرية :

إن مشكلة الحرية في حياة الناس عامة كما يقول الدكتور زكريا ابراهيم : هي " مشكلة الوجود الإنساني في أسره ، وهي لهذا مشكلة المشاكل ، وإن اكتسابها لا يمكن أن يجيء إلاّ ثمرة لجهاد عنيف في سبيل التحرر من نير المظاهر المختلفة كالاستغلال والاستعباد والاسترقاق ، والرقيق هو إنسان حرّ ولو كان لا يزال يرزح تحت وطأة القيود والسلاسل . "(١)

والصعاليك هم جزء من بني الإنسان امتلأت نفوسهم بازدراء المجتمع لهم ، وهضم حقوقهم الذاتية والقيمية والاجتماعية . وأظهر صفاتهم التجلّد وشدة الإحساس . فأين وقف هؤلاء الناس من هذه المشكلة وما مفهومهم لها ؟

بدأ إحساس الصعاليك بظلم المجتمع واستعباده لهم يزداد ، ويقترن بقلق وتساؤل عن سبب تباين الناس في أمور كثيرة منها ، التطاول والعبودية وعلوّ النسب ووضاعته . وقد انتهى بهم هذا القلق إلى أنه ليس هناك نظام خالد لا يمكن تجاوزه . وليس هناك مستضعفون لا يقدرون على رفع الذلّ عن كاهلهم ، فكان التمرد والعمل على زعزعة نظام المجتمع والقبيلة سبيلا لهم ، وكان عالم الوحش والرعب أكثر البيئات استجابة لحالتيهم النفسية والاجتماعية ولو كان لا يؤمّن لهم أقلّ احتياجاتهم المادية التي يمكن أن تتوفر لهم في المجتمع لو شاءوا ذلك .

فمشكلة حريتهم لم تنفصل عن المعاناة الداخلية والصراع الخارجي في آن واحد . هذا أبو خراش مثلا يختار الجوع القاتل على الشبع المذلّ ، ويختار الموت الكريم على الحياة المهينة :(٢)

أُرِدّ شُجاعَ البَطْنِ لو تَعْلَمينَه ... وأوثِرُ غَيْري من عِيالِكِ بالطُّعْمِ
مَخافةَ أنْ أحيا بِرُغْمٍ وذلّةٍ ... وَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياةٍ على رُغْمِ

---

(١) مشكلة الحرية ، ص ٦٠ .
(٢) ديوان الهذليين ، ص ١٢٨/٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما تبرز الحرية عنده إلى قمة هرم احتياجاته في الغائب والحاضر ، فحين يسترجع أبو خراش صورة ولده ، وهو يرثيه يرى أن أقوى ملكاته التي يتميز بها تتمثل في روحه العاشقة المتعالية على حاجات جسده فيقول :(١)

وَلَمْ يَكُ مَثْلُوجَ الفُؤَادِ مُهَيَّجًا ... أضاع الشَّبابَ في الرَّبيلةِ والخفْضِ
ولكنه قد نازعَتْه مَجَاوِعٌ ... على أنه ذو بِرَّةٍ صادقِ النَّهْضِ

والحرية كذلك عند السليك ، معيار الحياة الكريمة ، وعدمها هو الموت ، أو أداته الفاعلة ، اذ يقول :(٢)

أشابَ الرأسَ أني كلَّ يَوْمٍ ... أرى لي خالةً وَسْطَ الرِّجالِ
يَشُقُّ عليَّ أنْ يَلْقَيْنَ ضَيْمًا ... وَيَعْجِزَ عن تخلصهن مالي

ولعله يريد بـ " الخالة " جنس النساء ، فيكون بهذا قد وضع المرأة في مكانها الحقيقي باعتبارها النصف العضوي الآخر في بنية الحياة ، فلا يجوز مصادرة حريتها ووقوعها ضحية العوز أو السبي في قبضة الأعداء . ويجوز أيضا أنه يريد للحرية الشمول والتأصل في حياة الناس جميعا .

وهذا تأبط شرا يرجح كفة الموت على كفة حياة هابطة بالذل وهو يخاطب جماعة أسروه قائلا :(٣)

لَكُمْ خَصْلةٌ إمّا فِداءٌ وَمِنّةٌ ... وإمّا دمٌ ، والقَتْلُ بالحرِّ أَجْدَرُ

ويقول :(٤)

إذا راع روعَ الموتِ راعَ وإن حَمى ... حمى مَعَهُ حرٌّ كَرِيمٌ مصابِرُ

هكذا تشكل الحرية مقدمة مطالب الإنسان الصعلوك ، بل هي القيمة الأساس في ماهيّة حياته .

وصخر الغي ممن يقفون بالشعر في وجه أشكال العبودية ، فيقول :(٥)

فلستُ عبيدًا لِمَوْعِدِيّ ... وَلا أقْبَلُ ضَيْمًا يأتي به أَحَدُ

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٢/٦٠ .
(٢) شعر السليك ، ص ٦٣ .
(٣) ديوانه ، ص ٨٩ .
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٨٥ .
(٥) ديوان الهذليين ، ٢/١٢٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول صخر الغي :(١)

أبَتْ لِيَ عِمْرُوْ أنْ أضامَ ومـــأزِقٌ ... وقِرْدٌ ولحيانَ وسهمٌ فسُـــلِّمُ

وبذلك تتوحد رؤية هؤلاء الصعاليك منبثقة عن توحد إحساسهم بالظلم الذى يدفعهم للتمرد على نمـــط الحياة وعلى مطالب الجسد في سبيل نيل حريتهم وقد تجلت نفس هذه الرؤية عند الشنفرى وهو يحـــدد عناصر التآلف والتنافر القائمة بينه وبين الناس فيقول :(٢)

وإني لَحُلْوٌ إن أريدت حلاوتـــي ... ومُرٌّ إذا نفس العَزُوفِ اسـتَمَرَّتِ
أبيٌّ لِما آبى ، سريعٌ مِبَاءَتِـي ... إلى كلِّ نَفْسٍ تنتحي فـي مَسَـرَّتِي

ويقول أيضا :(٣)

أنا ابنُ خيارِ الناسِ بيتاً ومنصِبًا ... وأُمّي ابنةُ الأحرارِ لو تَعلمينهـــا

ويقول عمرو بن براقة :(٤)

متى تجمعِ القلبَ الذكيّ وصارِمـــاً ... وأنفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ المَظالِـــمُ

تبدو أهمية منحى الصعاليك في رؤيتهم للحرية من أنهم تخلّوا في سبيل نيلها عن أهم مقومات وجـــود الإنسان العربي في ذلك الوقت وهو " القبيلة " . وهذا العمل لا يعدّ في نظر المجتمع تحوّلاً عاديـــا يخضع لحاجة طبيعية ، ولكنه يشكل ارتدادا خارقا لحياة تعدّ تمايز الإنسان طبيعـة وجودية .

كما أن نزوع الصعاليك المبكر إلى الهجرة عن المجتمع ، وتشكيل جماعة من أنساب مختلفـــة ومتباعدة من أهم هذه المظاهر .

يقول صخر الغي :(٥)

لستُ بِمُضْطَرٍ ولا ذى ضَراعـــةٍ ... فَخَفِّضْ عليـك القولَ يا بـا المثلّـم

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٢/١٤٠ .
(٢) المفضليات ، ص ١١٢ .
(٣) ديوانه ، الطرائف الأدبية ، ص ٣١ .
(٤) الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ١٧٦ .
(٥) ديوان الهذليين ، ص ٢/٢٢٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهو يتجاوز الحاجة مهما كانت مُلِحّة إن لم تتأتَ إلا بالخشوع والذلّ .

والشاعر المعلوك لا يريد أن تصدر الفاعلية من أجل الانعتاق عنه وحده فيما يبدو ، ولكنه يريد لها الانتشار ، لذلك ينعىٰ على أولئك الناس الذين يعيشون في كنف الأغنياء أسارى لمطالبهم الجسدية ، يقول عروة :(١)

فَقلتُ له ألا احّيْ وأنتَ حُـــرٌّ ... سَتَشْبَعُ في حَياتِـك أو تَمـــوتُ

وليس حديثهم المباشر عن رفضهم الاستعباد ومطالبتهم بحريتهم كل ما يمثل نظرتهم لذلك ، ولكن يمكن أن نحس وقعة وأثره في كثير من مواقفهم الأخرى ، وفي كل ما يباعد بينهم وبين المجتمع ، في العادات والسلوك والتفرد بمزايا جسمية ونفسية وشكلية ، شأنهم في ذلك شأن المتمردين على عصرهم في أزمنة كثيرة ، حين تقع الجفوة بينهم وبين من يمثلون التقاليد السائدة .

تعامل الشاعر المعلوك مع الحرية (التحرر مما درج عليه المجتمع) في أكثر مواقفه تعامل الشعراء الآخرين مع " الحبّ " أو كما يتعامل أهل العقائد مع عقائدهم . فإذا حَرَص المُحبون على الوصل بأساليبهم الخاصة ، وإذا حَرَص أهل الملل على التوجّه إلى معبوداتهم بشعاؤهم المعروفة ، فإن الشعراء يتوصلون إلى حريتهم بترويض أنفسهم على خِلالٍ تؤكد وجودهم ، وتناهض ما تعارف عليه القوم ، كما رأينا في مساواتهم بين الموت والعبودية .

وإن تتبع مفاهيم الشعراء للتحرر يسلم إلى القول بأنهم اتخذوا منها طاقة ظهرت في أشكال متنوعة : في مَقْتهم لما يحدّ نشاطهم ، وفي غضبهم من معلوك ينسجم مع الواقع أو متثاقل عن العمل ، وفي رفضهم الإقامة في كنف الأهل وفي مقاومتهم الرغائب ومطالب الجسد .

من ذلك وغيره ينكشف للدارس أن المعلوك أدرك إحساسا فطريا ضرورة " رفض أن يكون على ما هو عليه ، وأن على الانسان أن يعيد تشكيل العالم وصياغته من خلال عمله الفني أو بمعنى آخر : على الفنان أن يحاول فرض شكل فني منظم أو صورة معقولة على العالم . "(٢) .

كما ينكشف أن في شعرهم تجاوزاً واضحا للواقع ونفاذا إلى المستقبل ورفضا للعبودية ، وهذا بحد ذاته يضيف بعدا جديدا للشعر العربي يفوق كل صفات المطابقة والمحاكاة . وفي هذا اقتراب مما يقوله علماء الاجتماع والدراسات الانسانية من أنه " ليس بعدا مكانيا فحسب ، وانما هو بعد روحي ، وهو يعبر عن عمق الحياة الباطنية للانسان " .(٣)

---

(١) ديوانه ، ص ٣٦ .

(٢) فلسفة الجمال في الفكر المعاصر ، د. محمد زكي العشماوي - دار النهضة ، ص ٢٣٢ .

(٣) مشكلة الإنسان ، د. زكريا ابراهيم ، ص ٢٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واذا صحّ التمييز بين نوعين من الحرية " حرية سالكة وحرية واصلة " [١] فان حرية الصعاليك من النوع الأول ، لأنها لا تتأتى لهم إلا بعد معاناة كبيرة من الكبت والقهر ، ونتيجة صراع حاد بين إرادتهم وبين المجتمع . فكانت هذه الحركة الشعرية متنفسا لحقيقة معاناتهم أو ، وإيقاظا لإحساس الناس ثانياً .

وقد لوحظ أن مشكلة الحرية عند الشاعر الصعلوك قد اقترنت بمشكلة الطعام في أكثر المواقف ، وذلك لأن الطعام - وقد حرموه - أول قيد تصطدم به الحرية ، فكان التعالي عليه يمثل بعدا داخليا يزيد الصعلوك فعالية وتمسكا بحريته . وكذلك فان الاستسلام لسائر مطالب الجسد كما تقول أشعارهم يمثل العبودية . أما التعالي عليها فيمثل موقفا يصل به الى ما فقده منذ زمن طويل.

وهكذا تبرز مشكلة الحرية في مقدمة الحاجات الأساسية التي يكافح الانسان الصعلوك في سبيلها . وهو لا يقف في وجه من يصادرها فحسب ، ولكنه يقف في وجه من يتغافل عن حقه فيها . ويمكن القول بأن هؤلاء الشعراء الصعاليك هم أكثر شعراء عصرهم صحوةً وإحساساً بالحيْف وإيقاع العبودية .

والصعلوك الذى أحس بضرورة مقاومة عناصر كثيرة منها القبيلة والمجتمع وبعض مظاهر الطبيعة وسائر ما يحدّ من حريته ، لا بدّ له من أداة فاعلة ذات حضور متجدد وحركة مستمرة تساعده على نيل حريته . والصعلوك بحكم طبيعته وبحكم ظروفه إنسان تجاوزيّ إن جاز هذا اللفظ ، أى أنه نزّاع للوصول بذاته أو بإنسانه إلى أعلى مستوى روحاً ومادةً .

ولما كانت الحرية أهم القضايا الوجودية بالنسبة إليه ، فلا غنى له عن الاهتمام بإظهار الأداة التي تتحقق بها حريته وهي تتمثل بقواه الجسدية والنفسية .

يصور لنا أبو كبير هذه الاداة (القوة) عند صاحب له قائلا :[٢]

فإذا نظرتَ الى أسرّةِ وَجْهِهِ ... رقّتْ كَبَرْقِ العارضِ المتهلّلِ
وإذا قَذفْتَ به الحَصاةَ رَأيْتَهُ ... يَنزو لوقعتِها طُمورَ الأخْيَلِ
وإذا رَمَيتَ به الفِجاجَ رأيتَهُ ... يهوى مَخارِمَها هَوِيَّ الأجْدَلِ
وإذا يهبّ مِنَ المَنامِ رأيْتَهُ ... كَرْتوبِ كعبِ الساقِ ليس بِزَمّلِ

---

(١) الحرية السالكة : التي يعتمد نيلها على الكفاح ومقاومة الفرد لقيد عبوديته .
الحرية الواصلة : ان يكون الانسان حرّا ابتداء أى في مقابل أن يكون عبدا .

(٢) ديوان الهذليين ، ٢/٩٤ . أسرة : طرائقه ، الأخيل : طائر يتشاءم منه . صعب الكريهة : صبور على البلاء .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ما إن يَمسُّ الأرضَ إلاّ مَنْكِبٌ مِنْه ، وَحَرْفُ السَّاقِ طيَّ المِحْمَلِ
ضَعْبُ الكَرِيهةِ اذا تكونُ كَريهةً وإذا هُمُ نَزَلُوا فمأوى العُيَّلِ
فإذا وذلك ليس إلاّ ذِكْرُه وإذا مَضى شيءٌ كأنْ لَمْ يَغْفَلِ

إن حركات صاحبه التي تجسد قوته سريعة تتميز بالخطف ، وصاحبه أيضا متوفز لاستقبال كل مفاجأة ، فتراه ينزو كالصقر ، يستيقظ من نومه القليل كالمذعور ، تكاد قدمه لا تمس الأرض . وهذه السمات تجعل وجه الموصوف متهللا يرفّ بنور قد نعتبره بشيء من التأمل نور الحرية الذى ينبثق من استمرار الاندفاع ومقاومة الظلم والاستعباد .

وعلى هذا النحو الذى يعكس وعي الشاعر للقوة التي ينبغي أن يكون عليها الصعلوك قول تأبط شرا :(١)

قَليلِ غرارِ النّومِ أكبرُ همّه دَمُ الثّأرِ أوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُقَنَّعَا
قليلِ ادخارِ الزّادِ إلا تَعِلّةً وقد نَشَرَ الشّرْسُوفُ والتصقَ المِعىْ

فكون الشاعر قليل النوم ، متحررًا مما يثقله يجعل جسده - كما يقول - طوع إرادته ، كما يجعله أكثر استعدادا للتحدّى والرفض .

يقدم لنا عروة صورتين متباينتين للصعاليك : إحداهما نموذج للسكون والراحة والاستسلام للواقع من أجل حاجة الجسد ، لكن على حساب حريته . والأخرى نموذج لليقظة والتطلع والترصّد لأعدائه .

يمثل النموذج الأول قوله :(٢)

لَحى اللهُ صُعْلوكًا إذا جَنّ لَيْلُه مَضى في المَشاشِ آلفًا كلّ مَجْزَرِ
يُعَدّ الغِنى من نفسِه كلّ ليلةٍ أصابَ قِراها من صديقٍ مُيَسَّرِ
قليلَ التماسِ الزادِ إلا لنفسِه إذا هو أمْسى كالعَرِيشِ المجوَّرِ

ويمثل الآخر قوله :(٣)

ولكنّ صُعْلوكًا صفيحةُ وَجْهِه كَضَوْءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ

---

(١) ديوانه ، ص ١١٣ .
(٢) ديوانه ، ص ١١٣ .
(٣) ديوانه ، ص ٧١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مُطِلاًّ على أعْدائِه يَزْجُرونَـــــــه ... بساحَتِهم زَجْرَ المُنيـــحِ المُشَـــهَّرِ
إذا بَعُدوا لا يأْمَنون اقْترابَـــــــه ... تَشَوُّفَ أهلِ الغـــائبِ المُتَنَظِّـــرِ
فذلك إنْ يلقَ المنيّةَ يَلْقَهـــــــا ... حَميدا ، وان يَسْتَغْنِ يوماً فَأَجْـــدِرِ

فما يميز النوع الأول - وان كان ينتمي للصعاليك - أنه منسجم مع طبيعة الحياة في مجتمعه ، ومتثاقل عن العمل ، فلا معنى لوجوده .

أما الآخر فانه متميز بالفاعلية ، والاستجابات الرافضة ، والضيق بالحياة الراهنة . والموت عنده يمثل موقفا إنسانيا لأنه يهيء لحياة جديدة .

وأبو خراش يرى أن الانسان كلما ازداد تداعيا جسديا ازداد تعاليا نفسيا ، اذ يقول :[1]

رَأَتْ رَجُـلاً قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخامِـــصٌ ... وطَافَتْ بِرُنّانِ المُعِدّيـن ذِي شَـحْمِ
أفاطِمُ إني أَسْبَقُ الحَتْفَ مُقْبِـــلاً ... وأَتْرُكُ قِرْني في المَزاحِفِ يَسْتَدْعِـي

هكذا ترتبط الحرية بفاعلية أدائها المتمثلة في القوة النفسية التي لا تعمل باتجاه مضاد للكثافة الجسدية فحسب ، ولكنها تقدم صورة الموت متحدة مع نوع الحياة التي يحلم بها المعلوك .

---

(١) ديوان الهذليين ، ٢/١٢٨ . المخامص : جمع مخمصة وهي الجوع . المعدان : الجنبان . يعني أنها رأته ناحلا من الجوع فتطلعت إلى شاب مكتنز لحما لو ضرب جنباه لسمع لهما رنين من السمنة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإيثـــــــــــار

الايثار : أن يتخطى الانسان ذاته متخليا عن حاجاته الجسدية ، وهو في حقيقته لا ينبعث من التعاظم والتظاهر ، ولكنه موجه بفعالية ملتزمة تتحرك ضمن إطار إنسانيّ شامل .

وعند الصعاليك - كما يبدو في شعرهم - يتخذ الإيثار في أكثر صوره طابعا جدليا ، وفي هذا اظهار للمحتويات النفسية ، وايقاعها في النفس ايقاعا فعالا . يتجلى هذا التفاعل بين الشاعر وبين طرف آخر في قول تأبط شرا :(١)

يا مَنْ لِعذّالـــهِ خذّالـــةِ أشـــبِ ... حَرّق باللومِ جِلْدى أيّ تَحْـــراقِ
يقولُ أهلكتَ مالاً لو قنِعْتَ بـــه ... مِنْ ثوبِ صِدقٍ ومِنْ بَزٍّ وَأعْـــلاقِ
عاذِلتي إنّ بعضَ اللّوْمِ مَعْنَفـــةٌ ... وهل متاعٌ وإنْ أبْقيتُـــه ... باقِ
إني زعيمٌ لئِنْ لَمْ تتْرُكي عَذلـــي ... أنْ يسألَ الحيّ عنّي أهلَ آفـــاقِ
أن يسألَ الحيّ عني أهـــلَ معرفـــةٍ ... فَلا يُخبِرْهُمْ عن ثابـــتٍ ... لاقي

وأرجّح أن تكون العذالة وأهل الحي وما صاحبهما من توابع مما سكن في نفس الشاعر من منازع متباينة . وتكاد هذه الجدلية التي تصور ما بنفوس الشعراء من دوافع الإقدام والإحجام حول موضوع الإيثار تطّـــرد في أشد أوقاتهم عسرا .

هذا أبو خراش تتنازعه امرأته (وهي رمز للذات) بسبب هذه المواقف فيزجرها قائلا :(٢)

لَقدْ عَلِمَتْ أمُّ الأدَيْبِرِ أنّـــني ... أقولُ لها هدّى ولا تُدّخِرِي لحمـــي
فانّ غداً إلا نَجِدْ بعضَ زادِنـــا ... نُفِيءْ لَكِ زاداً أو نعـــدّك بـالأزم

والمُؤْثر الصعلوك ، باعتباره أقل الناس امتلاكا للحاجات ، لا بدّ أن يتجاذبه وأن يصطدم بمطالـــب العيش على قلتها ، فهو أولا يتخلى عن حاجاته ، وهو ثانيا يكابد ويرتاد المهالك لينقذ غـــيره ، وهو ثالثا قلق ينظر الى المحتاجين بحاسة متميزة بسبب معاناته لها في معركة البقاء .

ان البحث عن الأقواه الجائعة عندهم من أكبر المسائل التي ارتبطت بالصراع على المستويـين النفسي والاجتماعي . يقول عروة :(٣)

---

(١) ديوانه ، ص ١٤٠/١٤١ .
(٢) ديوان الهذليين ، ١٢٥/٢ .
(٣) ديوانه ، ص ٣٣ - ٣٤ . الناب : الناقة المسنة . الكتيت : صوت غليان القدر - استعاره لشخيرها . الحميت : السقاء يرب بالرب . الهتيت : السريع .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أفي نابٍ مَنَحْناها فقـــــيرًا ... له بِطنابِنا طُنُبٌ مُصيـــــتُ
وفَضْلَةِ سَمنةٍ ذهبَـــت إليـــه ... وأكبرُ حقِّه مالا يَفـــــوتُ
تَبيتُ على المَرافِقِ أمُّ وَهْـــبٍ ... وَقَدْ نام العُيونَ لَها كَتيـــتُ
فانّ حميتَنـــا أبدًا حَـــرامٌ ... وليس لجـــارِ منزلِنا حَمَيـــتُ
وربّتَ شَبْعةٍ آثرتُ فيهـــــا ... يدًا ، جاءَتْ تُغـــيرُ لَها هَتيتُ
وقد عَلِمَتْ سُلَيْمى أنّ رَأيـــي ... ورأيَ البُخْـــلِ مُخْتلفٌ شَـــتيتُ
وأني لا يريني البُخْـــلُ رأيٌ ... سواءٌ إنْ عَطِشْـــتُ وإن رَويـــتُ

هذا الإيثار الذي يمثّل الوصول إلى الاكتمال لا يتأتى إلا ممن يتخطى ذاته ومجتمعه من أجـــل الإنسان أيا كان جنسه أو مذهبه أو استعداده . وعُروة كما يلاحظ لا يرتاح إلا في هذا السلوك المتسامي عن الذات . ويلح عليه ذلك إلى أن يصل به إلى مرتبة من الإيثار قلّ أن يصل اليها كثير من الناس ، كما في قولـــه :(١)

وإني امْرؤٌ عافي انائـــي شِرْكةً ... وأنت امْرؤٌ عافي انائك واحِـــدُ
أنَهْرَأُ مِنّي أنْ سَمِنْتَ وَأنْ تَـــرَى ... بجِسْمي شحوبَ الحقّ ، والحقُّ جاهِدُ
أفَرِّقُ جِسمي في جسومٍ كَثـــيرةٍ ... وأحسو قَراحَ الماءِ ، والماءُ بـــارِدُ

وقوله هذا أثار شعورا من الغيْرة - كما يروى الأصبهاني(٢) - عند عبد الملك بن مروان الذي قال بعـــد سماعه هذا الشعر : " ما يسرني أن أحدا من العرب ممن ولدني لم يلدني إلاّ عروة بن الورد لقولـــه " ، (وذكر الشعر) .

وهذه القيمة لا تنبع عند عروة وغيره من الصعاليك من نفس خائفة ضعيفة ، ولكنها نابعـــة من نفس معانية متسائلة ذات أهداف نبيلة تتمثل في النور الحقيقي الذي يقوى على تبديد الخـــوف والظلم ، كما يتراءى في قوله :(٣)

سُلِّي الطارقَ المُعْتَرَّ يا أمّ مالِـــكٍ ... إذا ما أتاني بين قِدْرِي ومَجْـــزَرِي
أيَسْفِرُ وجهي ، إنّه أولُ القِـــرى ... وأبذُلُ معروفي له دونَ مُنْكَـــرِي

لعل في هذا الالحاح من الشاعر الصعلوك على تقديم هذه الصورة للإيثار بابعادها النفسية والإنســـانية ما يدلّ على ما يطمح إليـــه الشاعر من تحقيق التماثل بين الناس ، ولعلـــه يهدف أيضا الـــى

---

(١) ديوانه ، ص ٥٢ .
(٢) الأغاني ، ص ١٩ ، جـ ٢ .
(٣) ديوان عروة بن الورد ، ص ٩٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بسط الأيدى المتمنعة والأنفس المتأبية . كما في قوله :[١]

إذا قلتُ قد جاء الغنى حال دونـــه ... أبو صِبيةٍ ، يَشْكو المَفاقِرَ ، أعْجَفُ
لَهُ خَلّةٌ ، لا يدخل الحقّ دونَهـــا ... كريمٌ أصابَتْهُ خُطوفٌ تُجَـــــرّفُ

وتتحول هذه الغاية الى مركز تتجاذب حوله علاقات ذات ثراء عاطفي واسع ، تجسد صدق الصحبة ، وفضل الأمومة ، والترفق بالصغار ، يقول في ذلك :[٢]

فإني وإياكم كَذِي الأمّ أرْهَنَـــتْ ... له ماءَ عينيها ، تفدّي وتَحْمِـــلُ
فلما تَرَجَّتْ نَفْعَهُ وَشَـــبابَه ... أبَتْ دونَها أخرى جيديدَ تَكَحّـــلُ
فَباتَتْ لِحَدِّ المِرْفَقَيْنِ كِلَيْهِمـــا ... تُوَحْوِحُ مما نابَها وتُنَولْـــوِلُ
تَخَيّرَ من أمرين ليسا بِغِبْطَـــةٍ ... هُوَ الثُّكْلُ ، إلاّ أنها قد تَجَمّـــلُ

إن الالحاح على هذا الاتجاه لا يمثل موقفا أو سلسلة من المواقف فحسب ، ولكنه يمثل مذهبا وجّـــه حياة الشاعر لمقاومة التفاوت الطبقي في المجتمع ، فضلا عن الصمود في وجه الحياة الصحراوية المجدبة ، وقد يفيد في تحريك إحساس الموسرين لبذل العون للمعوزين .

وشبيه بهذا موقف الشنفرى ، ففي حديثه عن تأبط شرا تلتحم ممارسات الصعلوك مع الأمومة ، باعتبارها الينبوع المتفجر خيرا وإيثارا . وهو كعروة لا تقر عينه إلا برؤية إنسانه يستجيب فطريا لهذه القيمة استجابة الأمومة ، اذ يقول :[٣]

وأمّ عيالٍ قدْ شَهِدتُ تَقوتهَـــا ... إذا أطْعَمَتْهُـم أوْ تَحَتْ وأقلّـــتِ
تَخافُ عليّنا الجوعَ إن هيَ أكْثَـــرَتْ ... ونَحْنُ جِياع ، أيّ آل تَأثّـــتِ
وما إن بِها ضِنّ بما في وعائِهـــا ... ولكنّها مِنْ خيفةِ الجُوعِ أبْقَـــتِ

فحين تزداد حدة الجوع وتتعرض الأنفس للهلاك ينجبس صدر تأبط شرا حنانا كحنان الأم الذى يعكـــس صورة الإنسان المتمثل في وعي الشاعر .

وتنسحب هذه الحالة الوجدانية أو هذه القيمة الأخلاقية على معظم الصعاليك .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٠٨ .
(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ . توحوح : تتوجع .
(٣) المفضليات ، ص ١١٠ ، ١١١ . أوتحت : قللت طعامهم ، يصفها بالتقتير . الألبة : المجاعة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول أبو خراش :[١]

أَرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ لو تَعلمينَهُ ... وأُوثِرُ غيري من عيالِكِ بالطُّعْمِ
مَخافَةَ أنْ أَحْيَا بِرُغْمٍ وذِلَّةٍ ... ولَلمَوْتُ خيرٌ من حياةٍ على رُغْمِ

يعلق الدكتور يوسف خليف على ذلك بقوله :[٢]

فإذا ما تلظى الجوع في بطنه فإنه يرده ، ويغلبه على أمره ، وهو يُؤْثر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش حياة كريمة مترفعة لا تسقط إلى مهاوى الذلة والهوان والعار حيث يكون الموت خيرًا من الحياة .

وهكذا يتخذ الإيثار نقاط تواصل بين أفراد هذه الفئة من جهة ، وبينهم وبين المحرومين من أفراد المجتمع من جهة أخرى ، مما وصل بالصعاليك حدا إنسانياً فذاً .

---

(١) ديوان الهذليين ، ٢/١٢٥ .
(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص ٢٣٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصبـــــــر

تتخذ ظاهرة الصبر عند الانسان نمطين : أحدهما يسير في طريق المقاومة والتحدى ، سواءٌ في التعالي على مطالب الجسد أم في مواجهة مظاهر الطبيعة ، أم في مصاولة الحياة البشرية . وهذا ما يمكن تسميته بالصبر الإيجابي . أما الآخر فيمثل الإذعان للواقع بكل صيغه ومقولاته كالظلم والتفـــــوق العنصـــرى .

ومن المعروف أن الصعلوك أحسّ غـربة عنصره عن بنية مجتمعه فماذا كان اتجاهه وهـــــو يواجه هذه الأعباء :[1] يقول الشنفرى :

إذا الأَمْعَزُ الصَّوَّانُ لاقَى مَنَاسِمِي ... تَطَايَـرَ مِنْـهُ قَادِحٌ وَمُفَـــــلَّلُ

ويقول :[2]

فإما تَرَيْني كابْنَةِ الرَّمْلِ ضَاحِيًا ... على رِقَّةٍ أحْفَـى وَلا أَتَنَعَّـــــلُ
وَيومٍ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُـــــه ... أُفَاعِيـه فِي رُمْضَائِه تَتَمَلْمَـــــلُ
نَصَبتُ لَهُ وَجْهِي وَلا كِنَّ دونَـــــه ... ولا سَتْرَ إلاَّ الاتْحَمِيُّ المُرَعْبَـــــلُ

ليس في هذا الموقف ما يشير الى الإذعان ، أو الهروب من الواقع ، لكنه يحمل ميزة التجدد في إظهـــار المقاومة الجسدية والحركة الفاعلة وبخاصة في مواجهة المظاهر الطبيعية .

والشاعر في كثير من مواقفه لا يتحول عن التركيز على صبره الذى قد يصل إلى حد الانسهيـــــار الجسدى كما في قوله :[3]

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتى أُلِفْتُـــــــه ... وأضرِبُ عنه الذِّكرَ صَفْحًا فَأُذْهِـــلُ
وأستفُّ تُربَ الأرضِ كَيْلا يَرَى لَـــــهُ ... عليَّ مِن الطَّوْلِ امرُؤٌ مُتَفَضِّـــــلُ
ولولا اجتنابُ الذامِ لم يُلْفَ مَشْـرَبٌ ... على الضَّيْمِ إلا رَيْثَما أتَحَـــــوَّلُ

---

(١) اللامية ، الزمخشرى ، ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٦٩ ، الاتحمي : نوع من الثياب .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٦٩ ، استف : التهم . الطَّوْل : الفضل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول السليك :

وَحتّى رأيتُ الجُوعَ بالصَّيْفِ ضَرَّنـــي إذا قُمْتُ تَغْشاني ظِلالٌ فَأُسْـدِفُ

وقد ينفسح المجال أمام هذه القيمة لتدخل مسائل كثيرة في المواقف العاطفية ، كاجتذاب نظرات الناس أو استمالة قلب الحبيبة ، أو اشباع حاجته الروحية ، وغير ذلك مما يزيد في شعوره بأهليته للحياة وتفرده بدرجة الصبر .

هذا تأبط شرا يبلغه أن شخصا [1] " ينتحل اسم (تأبط شرا) ، لعله يقع في نفس من أراد موقع صاحب الاسم الصحيح ، فيخبره تأبط شرا بأنه لم ينتحل إلا اللفظ والشكل ، أما الروح فلن يقوى عليها ، وأن قيمة الاسم بقيمة ما يوقظه من آثار نفسية ، ويعبر عن هذا الموقف بقوله :[2]

أَلا هلْ أتى الحسناءَ أنّ حَليلَهـــا تأبط شرا ، واكتَنَيْتُ أباَ لَهَـبْ
فَهَبْهَ تَسَمّى اسْمي وَسُمّيتُ باسْـمِه فأيْنَ لَهُ صَبْرِي على مُعْظَمِ النّـوَبْ
وأيْنَ لَهُ بَأسٌ كَبأسِي وَسَوْرَتـي فأين له في كلّ فادِحةٍ قَلْـبي

فالصبر الذى يفتخر به الشاعر هنا هو أساس تميزه عن سواه ، وهو موقف إيجابي ، يقوم على قهر كل لحظة ذعر أو جبن أو قلق ، وليس الصبر الذى يقوم على استجابات آلية خاضعة لحياة المجتمع .

ويصف قيس بن الحدادية في موقف كهذا صبره الذى أدهش محبوبته قائلا :[3]

فَمَا زِلْتُ تَحْتَ السِّتْرِ حتى كأنّـني من الحَرِّ ذو طِمْرَيْنِ في البَحْرِ كارِعُ
فَهَزَتْ إليّ الرّأسَ مِنّي تَعَجُّبـا وعضّ مما قـد فَعَلْتُ الأصابِـعُ

إن تجاوز الحد المألوف في " الصبر " على مواجهة الطبيعة ، والصبر على تحدى الآخرين هما من أهمّ ما يثري العلاقة بين الشاعر ومن يحبها إن لم يكونا السبيل الوحيد للكشف عن صدق إحساسه فيما يقول.

وقد يكون هذا الصبر موجّها برواسب الانتماء الشعورى أو اللاشعورى للقبيلة ، فالعلاقة بينه وبين القبيلة برغم وهنها قد تَثِبُ إلى ذهنه حين تتاح له أن يعيد النظر بتكوينه الوجودى ، أو في

---

(١) الأغاني ، جـ ١٨ ، ص ٢١١ .
(٢) ديوانه ، ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حالة من حالات الفزع ، أو توقّي الشر المتوقع لها . يقول أبو الطمحان :(١)

إذا قيل أيّ الناس خَيْرُ قبيلةٍ ... وأصْبرُ يوماً لا تُوارَى كواكِبُهْ
فإنّ بني لأمِ بنِ عمرِو أرومةٌ ... سَمَتْ فوْقَ صعبٍ لا تُنال مَراقِبُهْ
أضاءتْ لهُمْ أحسابُهُمْ ووُجُوهُهُم ... دُجَى اللّيْلِ حتى نَظّمَ الجِزعَ ثاقِبُهْ

أما عروة فلا يتردد في النهوض بمسؤوليته نحو قبيلته حين أصابتها سنة جدباء عرضتها للذل والبلى ، فيقول :(٢)

صَبُوراً على رُزْءِ المَوالي وحافظاً ... لِعِرْضِي حتى يُؤْكَلَ النّبْتُ أخْضَرا
اقبّ وَمِخْماصُ الشّتاءِ ممرزأً ... إذا اغبرّ أولادُ الأذلة أسْفرا

ويقول عمرو بن براقة :(٣)

إذا جَرّ مَوْلانا علينا ظُلامةً ... صَبَرْنا لها . انّا كِرامٌ دعائِمُ

إن هذا النمط من الصبر في أكثره صبر على ما يصيب الصعاليك من ضرر مادّيّ عن طريق القبيلة ، دون الأذى النفسي ، ذلك أن مشكلة الصعاليك مشكلة نفسية بالدرجة الأولى .

ولعل من أهمّ ما يميز الصعاليك في هذا المجال أنهم يريدون أن يعيشوا بأرواحهم لا بأجسامهم ، وذلك يتحقق بمقدار تحمله للانقطاع عن قومه ، وبمقدار مناعته أمام المطالب الجسدية ، وبمقدار مواجهة للمقادير الآتية بصورة لا يقدر عليها الآخرون حتى يرتفع فوق مستوى من يدعي أنه ارتفع عن الصعاليك نسبا واقتدارا .

موقفهم الوجودي من :

١. **الزمن والموت :**

لم يُقْلِق الانسان من أقدم العصور أكثر من قضية الزمن في امتداداته الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . وقد ارتبط هو والدهر والأيام في الفكر العربي القديم بالهرم ، فالزمانة

---

(١) الأغاني ، جـ ١١ ، ص ١٣٢ .
(٢) ديوان عروة ، ص ٦٥ . أقب : أوثر . مخماص : شدة السنة .
(٣) المؤتلف والمختلف ، ص ٨٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهي من " الزمن " ما يصيب الإنسان فيقعده "[١] . والدهر عند ابن فارس " الغلبة والقهر ، وسمي الدهر دهرا لأنه يأتي على كل شيء ويغلبه "[٢].

" وهو عند كانت يشكل مع المكان العودة الأولية القبلية لإحساساتنا وتصوراتنا "[٣] .

والإنسان مع شدة جهله بهذا المطلق لا ينفكّ يحسب حضور نفسه " عمره " بمقدار ما يمنحه هذا الزمن من مجاهيله ومضمراته التي لا يتجاوز فهم الانسان لها مقايسة بين فعاليات تقع بين بداية ونهاية منتسبة إلى الزمن لكنها ليست بداية الزمن ونهايته ، بل نهاية لجرم ضئيل في امتداد مجهول . والوجود الانساني كما يقول فؤاد رفعة " انطلاق إلى الموت ، ومقاومة هذا الانطلاق في نفس الآن "[٤]

ما يهم الباحث هنا هو استكناه رؤى هذه الطائفة لهذا الأمر ، ومدى إحساسهم بسلطانه والكشف عن علاقته بفهمهم للكون ومجرى الحياة وهذا النزوع للكشف عن المجهول تكمن بذوره في أعماق الانسان ، يقول الدكتور زكريا ابراهيم " والواقع أنه ليس في وسع الإنسان أن يقف من الكون موقف الناظر ، فإن الكون ليبدو له منذ البداية مجموعة من الألغاز التي تتطلب الحل وبالتالي فإن العلاقة بين الإنسان والكون قد اتخذت منذ اللحظة الأولى طابع الحوار " أو الجدل " حسبنا أن نرجع إلى تاريخ البشرية منذ البداية لكي نتحقق من أن الإنسان قد أبى منذ أقدم العصور أن ينقبل الواقع على ما هو عليه "[٥] .

وإذا كان الناس جميعا يشتركون بالتطلع للمجهول فان الشعراء من أكثر الناس استغراقا واندماجا في ذلك ، وهم يشاركون الفلاسفة والأنبياء في أنهم " ينظرون إلى الحياة في وجهها لا في قفاها (اذا استعرنا تعبير كامن) ، وينظرون اليها ككل لا كشذرات متفرقة في أيام وساعات ومن هنا فان همومهم تختلط فيها الميتافيزيقياء والواقع والموت والفكر والحلم "[٦] .

من البداهة أن الانسان الصعلوك وهو يعيش ظروفه القاسية التي ينعدم فيها الأمن والعدل وتتشكل فيها إيقاعات مجهولة ورموز كثيفة أن يتساءل بقلق عما يكسبه

---

(١) لسان العرب .

(٢) معجم مقاييس اللغة (زمن) .

(٣) قضايا الفلسفة العامة ومباحثها / علي عبد المعطي محمد ، ١٩٨٣ ، ص ١١٩ .

(٤) الشعر والموت ، ص ٢٧ .

(٥) مشكلة الانسان ، ص ٤١ .

(٦) الشعر بين الرؤيا والتشكيل / د. عبد العزيز المقالح ، ص ٤٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الانسان من خير أو يكتسبه من شر وبخاصة أمام اختلال ميزان الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

أحسّ شاعرهم بحركة الزمن وبمشكلتها الأزلية . فعروة مثلا يرى أن الدهر طاقة جبارة وإرادة قهرية ذات نزعة عدوانية ظاهرة ومضمرة ، يقول في ذلك : (١)

ولكنّها والدّهْرُ يومٌ وليْلَةٌ ... بِلادٌ بها الأحْياءُ والمُتصيَّدُ

كما يقول أيضا : (٢)

فإنْ فاز سَهْمٌ للمنيّةِ لَمْ أكُنْ ... جَزُوعًا ، وَهَلْ عن ذاكَ مِن متأخَّرِ

فهو لا يجزع مما يضمره الدهر لأن ما بينهما لم يكن بين متماثلين ، ولكنه بين طبيعتين أو قوتين لا تماثل بينهما إطلاقا . انه بين نسبي (الإنسان) ومطلق (الزمن) ، ومحدود وغير محدود ، وبين وجود له أبعاد وموجود لا يُسْتكْنه أو يبرّر .

ومع ذلك فالشاعر يقابل هذا اللغز المتعالي على الفهم بتعال آخر يتمثل بالميل إلى النزوع والتجرد عن مادية الحياة والافتخار بقيم التحرر والشجاعة وعدم التردد . وجميع ذلك يمكن اعتباره معادلا نفسيا لمضمرات الزمن .

وهذه الظاهرة المتمثلة بنزعة الانبثاق من خلال المخاطر لا تكاد تنقطع عند الشاعر ، يقول في ذلك : (٣)

تُخَوِّفُني ريبَ المَنونِ وَقَدْ مَضَى ... لنا سَلَفٌ : قَيْسٌ معًا وَرَبيعُ
فلا أنا مما جرَّتِ الحَربُ مُشْتَكٍ ... ولا أنا مما أحدث الدهرُ جازِعُ
لَبوسُ ثيابَ الموتِ حتى إلى الذي ... يَوائِم إمّا سائِمُ أم مُصارِعُ
فما شاب رأسي من سنينٍ تَتابَعَتْ ... طِوالٍ ولكنْ شيّبَتْهُ الوقائِعُ

التجارب الشعرية السابقة لعروة لا تمثل موقفه في مواجهته للقوى الظاهرة والكامنة التي يكشف عنها الزمن فحسب ، ولكنها تكشف عن رؤيته للإنسان الذى يريده وكما ينبغي أن يكون . إنه الإنسان المتمرد على القوى وعلى الكبت حتى لو كان قدرا محتوما أو عيشا مستمرأ مأمونا كما يراه البعض .

---

(١) ديوانه / ص ٥٠ ، الأخباء : التمور ، المتصيد : الصيد .
(٢) ديوانه ، ص ٦٧ .
(٣) ديوانه ، ص ٩٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدهر عند عروة كائن بدرك ، ويمسك بالقضايا الوجودية ، ولكن استكناه ماهيته أو تحليل خطوط بؤرته غامض جدا ، عمله عشوائي لا يتورع عن إيقاع الشر بالإنسان دون هواده .

وإن تكرار هذا التدافع بين الشاعر وبين الدهر وصروفه عن طريق الكلمة القوية يرسم خطًا ثابتا (ظاهرة) . يكشف عن رؤيته ورؤياه . وسبب ذلك أن عروة الصعلوك محروم من أبسط الحقوق الإنسانية ، ولا يلقى من الدهر إلا الجوع والعطش والغربة والشقاء ، لهذا اتخذ لهذا العدوّ أمضى الأسلحة ، ووجد في الاستعلاء عليه نشوة جمالية . يقول في ذلك :(١)

فَإنْ نحْنُ لَمْ نُمْلِكْ دِفاعًا بحادثٍ ... تُلِمُّ بِهِ الأيّامُ فَالمَوْتُ أجْمَلُ

ويلاحظ أن هذا الموقف (التصدى للزمن والموت) يكثر فيه ذكر (تخوفني) أو ما يرادفها . كما في قوله :(٢)

أرَى أمّ حسّانَ الغداةَ تَلومُني ... تَخَوّفُني الأعْداءَ ، والنّفسُ أخْوفُ
لعلّ الذي خوفتِنا من أمامِنا ... يُصادِفُه في أهْلِهِ المُتَخَوِّفُ

وقوله :(٣)

تَخوّفني ريْبَ المَنونِ وَقدْ مَضَى ... لَنا سَلَفٌ قَيْسٌ معًا وَرَبيعُ

وقوله :(٤)

وَغَبْراءَ مخشيٍّ رَداها مَخوفةٍ ... أخوها بأسبابِ المنايا مغرَّرُ

وقوله :(٥)

فَلا أنا مِمّا جَرّتِ الحَرْبُ مُشْتكٍ ... وَلا أنا مِمّا أحدثَ الدهرُ جازِعُ

---

(١) ديوانه ، ص ١٠٧ .
(٢) ديوانه ، ص ١٠٧ .
(٣) ديوانه ، ص ٩٦ .
(٤) ديوانه ، ص ٧٧ .
(٥) ديوانه ، ص ٩٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

على الرغم من إظهار الشاعر مناعته وتماسكه أمام الموت فإننا نحس من وراء ذلك خوفا مستورا • وقد يعبر لفظ " الخوف " أو بعض مشتقاته أو مرادفاته عن هذا الوضع النفسي • ولا شك بأن الخوف من المجهول سمة فطرية ، تزداد في حالة عدم تبلور الحياة الروحية ، وفي ظل المعتقدات الحسية التي لا يمكن أن تقدم حلاّ للتناقض بين محدودية حياة الفرد ، وأبدية حياة الانسان / النوع كما يتصورها شاعر جاهلي •

ان مثل هذا الشعور المتمرد على الدهر وما ينجم عنه يتردد عند تأبط شرا أيضا ، فكلا الشاعرين يتشابهان تشابها عميقا في رؤيتهما للأزمة ورؤياهما لها • ومع هذا التشابه الكبير لا نعدم انفراد كل منهما بانسجة دقيقة من هاجس النفس ، وإيقاع الرد على قسوة الزمن • فتأبط شرا لا يمتد في صراعه مع الزمن إلى أقصى مدى فحسب ، ولكنه يأذن لنفسه أن يجدد خلقه مرات كثيرة ليبوح عن تعاظم شوقه لمحاربة الزمن وأهل الزمن • يقول في ذلك :(١)

إذا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدّ جِدّهُ ... أضاعَ وقاسَى أمرَهُ وَهْوَ مُدبِرُ
ولكنْ أخو الحَزْمِ الذى ليس نازلاً ... به الدهرُ إلا وهْوَ لِلْحَزْمِ يُبْصِرُ
فَذاكَ قَرِيعُ الدهرِ ما عاش حُرّ ... إذا سدّ منه مِنْخَرٌ جاشَ مِنْخَرُ
فإنكَ لو قاسيتَ باللّصْبِ حيلتي ... بِلَحْيانَ لَمْ يَقْصُرْ بِكَ الدّهرُ مُقْصِرُ

وهو في الوقت نفسه يرسم صورة للإنسان الذى يريده في مواجهة نوازل الدهر ، وإنسانه هذا لا يختلف عن إنسان عروة ، لأنهما كما عرفنا يصدران عن **موقف تتماثل أسبابه وبواعثه وامتداداته** النفسية • ومما يؤكد تحدّي الشاعر للدهر انتشار ضمائر المتكلم ، وهي تبرز عظمته التي لم يتح لها أن تبرز من خلال الروح الجمعية ، ولا يشبع حاجته لهذه العظمة ما لم يتجاوز بها ما يصل إليه الناس ، باحثا عنها في ظلام الحياة ، فيقول :(٢)

فَخَالَطَ سَهْلَ الأرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصّفَا ... بِهِ كَدْحَةٌ والمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ

وهكذا يشخص الموت ويغيظه كأنه يعيش معه في إيقاع زمني واحد وحضور واحد • وفي ذلك تجسيد لذاتية الشاعر كلما لج به تذكر ما فاته في قومه وفي مجتمعه • ويقول :(٣)

فَزَحْزَحْتَ عَنْهُمْ أو تَجِئْنِي مَنِيّتي ... بِغَبْراءَ أوْ عَرفاءَ تغزو الدفائنا
كأنّي أراها المَوْتَ لا دَرّ دَرّهَا ... اذا أمْكَنَتْ أنْيابَها والبَرَاثِنا

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ٨٦ - ٨٨ • اللصب : المضيق في الجبل •
(٢) ديوانه ، ص ٩٠ •
(٣) ديوانه ، ص ٢١٧ •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا يكاد الباحث يجد من يخلع على الموت صفة جمالية إلا عنده وعند بعض لداته ، فقد ألبس الموت لباس الجمال والصبر ، بل يلقي في خلدنا أن الموت إحدى هذه القيم ، فيقول :(١)

وأجْمَلُ مَوْتِ المَرءِ إنْ كان ميّتاً ... ـ ولا بُدّ يوماً ـ موتُه وَهْوَ صابِرُ
وَخَفْضُ جَأْشي أنّ كلّ ابنِ حُرّةٍ ... إلى حيثُ صِرْت لا مَحالةَ صائِرُ

وهكذا يظهر للشاعر من الموت ما لا يظهر لغيره ؛ اذ يرى فيه مسحة الجمال كما في الأبيات السابقة ، ويرى فيه الجلال كقوله في رثاء الشنفرى :(٢)

جَزَى اللهُ فِتْيانَاً على العَوْصِ أمْطَرَتْ ... سَماؤُهُمُ تَحْتَ العَجاجَةِ بالدَّمِ
وَقَدْ لاحَ ضَوْءُ الفَجْرِ عَرْضاً كأنّه ... بِلَمْحَتِهِ أقرابُ أبْلَقَ أدْهَمِ

في محاولة إيجاد علاقة نسقية بين كلمات المطر والضوء ، والأبلق ، والأدهم ، وبين المعركة وما يتلظى فيها من وهج القتال ، وما يرعف فيها من دماء يمكن الكشف عن وجه " الجلال ... المفترَض ؛ ذلك أن الشاعر ينتشي برؤيتها كما ينتشي بمشهد الفجر يعقب الظلام .

إن حياة الصعلوك الشاعر غير حياة الإنسان العادي داخليّاً وخارجيّاً (الذات والمجتمع) . فلا عجب إن كان غيره في رؤيته للحياة وللموت في صورة جدلية يمتزج فيها إيقاع الوجد بكبرياء الذات يقول تأبط شرا :(٣)

وَقالُوا لَها : لا تَنْكِحيه فإنّه ... لأوّلِ نَصْلٍ أنْ يُلاقِيَ مَجْمَعا
وإني ـ ولا عِلمٌ ـ لأعلَمُ أنَني ... سأُلْقَى سِنانَ المَوْتِ يَبْرُقُ أصْلَعا

إنه لا يحرص على الحياة ، وهي تستوي في نظره مع الموت ، بل قد تقرّ عينه بذكر الموت وطيفه في هذه الأحوال العصيبة .

ونجد هذا الاخلاص لمبدأ " الذات " في مواجهة الموت عند السليك ؛ ذلك أن الظروف التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء الى جانب الاستعدادات المتشابهة ساعدت على تكوين هذا الحس المشترك لمعنى الحياة وأحوال الزمان وتقلباته ، وهو حس مبني على المقاومة ، والظروف كما كتب كارل ماركس : " تخلق الإنسان بالمقدار الذي يخلق فيه

(١) ديوانه ، ص ٨٤ .
(٢) ديوانه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٣) ديوانه ، ص ١١٨ . أصلع : بارزا بارقا .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإنسان الظروف ."[1]

والسليك كسابقيه في صراعه مع واقعه من أجل المحافظة على قيمه ووجوده . وإنسانه كإنسانهما نموذج في الشجاعة والمبادرة والحركة .
يحس السليك أنه مقتول لا محالة فيقول :[2]

مَنْ مُبْلِغٌ حربا بِأنّي مَقْتُـــــــولٌ
يارُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عَشَكْـــــولٌ
وَرُبَّ خَرْقٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجَـــــدولٌ

في هذا الموقف يتلاشى حاضره ومستقبله ، ولم يعد أمامه أية فرصة لمواصلـــــة سعيه في الحياة واستثمار مؤهلاته . فيتأسى عن ذلك بماضيه الذى ملأه بما يجسد ذاته فـــي مقابلة غلبة الزمن له .

كما يكشف عن رؤيته في أسلوب حوارى بين ركود العيش والسعي المتجدد ، أو بين القناعة بالحاضر والشوق الهاجس بقوله :[3]

بَكى صُرَدٌ لمّا رَأى الحيَّ أَعْرَضَـــتْ ... مَهامِهُ رَمْلٍ دونَهُم وَسُهُـــــوبُ
وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزمانِ وَفَقْـــــــرَه ... بِلادٌ عَدُوٍ حاضِـــرٌ وَجُـــدُوبُ
وَنَأْيٌ بَعيدٌ عَنْ بِلادٍ مُقامِيـــــــسٍ ... وأنّ مَخاريقَ الأُمورِ تَريـــــبُ
فَقُلتُ له : لا تَبْكِ عَيْنُـــــكَ إنّهـــــا ... قَضِيةُ ما يُقْضَى لَها فَتَـــؤُوبُ
سَيكْفيكَ فَقْدُ الحيِّ لَحمَ مُغَـــــــرِّضٍ ... وَماءُ قُدُورٍ في الجِفـــانِ مَشُوبُ
أَلَم تَرَ أنّ الدهرَ لونان لونُـــــــه ... وطورانِ بِشْـــرٌ مرةً وَكَـــذُوبُ

فعيشه رهن قوّته ، ولا سبيل للكسب إلا في وهج القتال والمطاردة يقول في ذلك :[4]

وَمَا نِلْتُها حتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَـــــةً ... وَكِدْتُ لِأَسْبابِ المَنِيّةِ أَعْـــرِفُ

---

(١) الانسان نشاط وتواصل ، ص ٥٢ .
(٢) شعر السليك ، ص ٦٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٤٤ .
(٤) شعر السليك ، ص ٦٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويعكس شعر الشنفرى صورا مماثلة لما سلف ، وان كانت أقل منه حدّة ولـــــه أشعار كثيرة تحمل رؤية للدهر ونوازله منها قوله :(١)

إذا ما أتتْني مَنيّتي لَمْ أُبالِهـــــا ... وَلَمْ تَذْرِ خالاتي الدموعَ وَعَمّـــتي
وَلَوْ لَمْ أُرِمْ في أهلِ بَيْتيَ قاعـــــدًا ... إذنْ جاءني بين العَمودين حُمّـــتي

فالشاعر لا يبالي بالموت ، فقد حرم من أسباب التواصل والتناغم في ظل علاقات اجتماعيـــة ودودة ، فلا خالة ولا عمة تبكيه أو تتأسى لفقده . والشنفرى كثيرا ما يرغب في التجـــرد من هذا العيش الزائل فيقول :(٢)

وأُعْدِمُ أحيانًا وأغْني وإنّمـــــا ... يَذالُ الغِنى ذو البصرة المُتبـــذّلُ
فلا جَزِعٌ مِن خَلّةٍ مُتكَشّـــــفٌ ... ولا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنى أتَخَيّـــــلُ

فهو يرى في تعاقب أنماط الحياة ما لا يراه سواه ، وبشيء من الفلسفة يظهر لنا تجـــاوز الآن ، والانعتاق من مؤثراته سلبا أو ايجابا ، فلا تفزعه المِحن ولا تغره أسباب النعم . وهـــذا بحد ذاته يشكل تحديا لمعطيات الدهر .

وتأخذ مواقفه مع الدهر والموت صورة الرفض لما جرى عليه العُرْف في طريقـــة الدفن ، لأنه يشكل في نظره عبودية أخرى فيقول :(٣)

لاتَقْبروني إنّ قَبْرِي مُحَـــــرّمٌ ... عليكم ولكن أبشِري امّ عامـــــرِ
هنالك لا أُرْجو حيـــاةً تَسُرّنـــــي ... سَجيسَ اللّيالي مُبْسِلاً بالخرائـــرِ
اذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثـــرى ... وغودر عند الملتقى ثم سائـــرى

واذا كانت " لحظات الحياة البشرية لا تتكرر ، وتتكون منها الساعات وحياة كاملة ، وتتحدد قيمة الوقت البشرى بالمضمون الذى يملؤه هذا الوقت "(٤) فلْيملأِ الشاعر حياته على نحـــو ما يريد ، ولْيَصُغ إنسانه كما يشاء :(٥)

دَعيني وَقَوْلي بعد ما شِئْتُ إنّـــني ... سَيَغْدى بِنَعْشي مَرةً فَأُغَيّـــبُ

---

(١) المفضليات ، ص ١١٢ .
(٢) لاميته / الزمخشري ، ص ٦٦ .
(٣) ديوانه ، الطرائف الأدبية ، ص ٣٦ .
(٤) الانسان نشاط وتواصل ، ص ٣٤ .
(٥) الطرائف الأدبية / ديوانه ، ص ٣٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والعمر عنده قد يتحول إلى أداة تبرز نمطا من العلاقات العدائية ، لكنها تشعرنا بأن وراء هذا التبتل بامتداد العمر فكرا إنسانيا ، وذلك في قوله متوعدا بني سلامان الذين كانوا سببا في تصعلكه :(١)

فإلاّ تزرْني حنْفَتي أوْ تُلافِني ... أُمشِّ بدَهْوٍ أو عذافرِ بنوَّرا
أمشّي بأطراف الحماط ، وتارة ... يُنفضّ رجلي بسبْطا فعصنصرا
أبغيّ بني صعب بن مرّ بلادهم ... وسوف ألاقيهم ان الله يسّرا

وهكذا يلتمس الشاعر حبل النجاة من الموت لا ليعيش لنفسه ، ولكن ليخلّص المجتمع من الشرور والآلام التي تمتد إلى قلوب جميع الأشقياء معطلة إرادتهم ممزقة أنسابهم ، كما فعلت بالشاعر . وهذا الدهر ، وما تولّد عنه من العدم والترصد وحصر النعيم وشرف النسب في طائفة يتخطى الإنسان ليشمل عالم الحيوان أيضا .

ولعل في هذا الأمر المجهول الذي يكشف عما يواجهه الشنفرى وإن كان يصور مأساة جماعة النحل في عيشها المذعور ، فإنما يسجل حياة الصعاليك وما تموج به من اضطراب وعثرات . فزين للشاعر هاجسه الشعري أن يلبس هذه الجماعات لبوسا غير لبوسها وصورة غير صورها ... ذلك لأن الحالة ... التي كثيرا ما تحدث عنها الشنفرى ، ليست طارئة عابرة ، لكنها منغرسة في نفسه ، متجذرة في كيانه .

والأبيات هي :(٢)

أوّ الخَشْرَمُ المبعوثِ حَثّحَث دبْرَه ... مَحابيضُ أرْداهُنّ سامٍ معسّلُ
مُهرّتَةٌ فُوهُ كأنْ شُدُوقَها ... شُقوقُ العِصيّ كالحاتٌ وبُسّلُ
فَضَجّ وَضَجّت بالبَراحِ كأنّها ... وإياهُ نَوْحٌ فَوقَ علياءَ ثُكّلُ
وأغْضَي وأغضَتْ واتّسَى واتسَتْ بِه ... مَراميلُ عزّاها وعزّتْه مِرْمِلُ
شكا وشكَتْ ، ثم ارعوى بعدُ وارْعَوَتْ ... وللصّبرُ إن لمْ ينفعِ الشّكْوَ أجْمَلُ
وَفاءَ وَفاءَتْ بادِراتٍ وكلّها ... على نَكَظٍ مما يُكاتِم مُجْمِلُ

الروح الانسانية العظيمة في هذا الموقف الشاعري لا تتجلى في تجاوز الشاعر الجماعة والبيئة والجنس وحسب ، ولكنها تتجلى في تجاوزه الواقع البشري بأكمله من جهة ، والواقع المكاني والزماني من جهة أخرى ... فان احساس الشاعر بهذا ينساب في أعماقنا ويشع عبر كل نفس

---

(١) الطرائف الأدبية / ديوانه ، ص ٣٥ ، دهو وعذاف : موضع . بنوّرا : جبل . فعصنصرا والحماط : ضرب من النبات .

(٢) اللامية ، ص ٥٩ ، ٦٠ . الخشرم : رئيس النحل . حثحت : حض وطلب من الاسراع . الدبر : جماعة النحل . المحابيض : عيدان يتخذها مشتار العسل فيثير بها النحل . مهرته : مشقوقة

© Arabic Digital Library Yarmouk University

متطلعة إلى تحرير الإرادة المسلوبة ، وهذه الحالة من أعلى مراتب الإنسانية وأعمقها ، كما أن هذه الصورة الشاعرية أقوى في الدلالة والاضاءة وبلوغ الغاية من التعبير المباشر .

وهكذا تتعاون فاعلية الواقع مع فاعلية الخيال مع فاعلية العاطفة في اظهار مواجهة الشاعر لتلك الأحداث مصورة لنا رؤية للانسان في نقاء من الفطرة وعفوية من السلوك . وهي رؤية تشق حدود الزمان والمكان لتمس جوهر الإنسان أيّاً كان . وقيمة ذلك أنه يبصّر الانسان بمشكلاته وحقوقه فيندفع معلنا رفضه وتمرده على واقعه متلمسا تحرير روحه ولو كان ذلك بين سنان الرماح ، وقضقضة أنياب الضباع .

وجوهر الحياة عند الشنفرى يزداد توهجا ولمعانا في اصطراعه مع الأحداث . وزيادة التعلق في الحياة سعي للانتهاء ، ومحو للروح الخالدة فينا . وإن إرادته أكبر من أن تحتويها أحداث الزمان ، يقابل ذلك النغم القوى الصاعد من بين الهموم نغم من نوع آخر يمكن تسميته بالنغم اليائس ، وسبب هذه التسمية عندى هو أن الذين يمثلون هذا النمط لم يكن حديثهم عن الدهر وأحداثه امتدادا لذوى النغم الأول ، فأشعارهم تكتنز بالذكرى حنيا ، وبالألم من التقلبات الزمنية الماضية والحاضرة والمتوقعة ويغلب على شعرهم طابع الرضا والاستسلام .

يقول أبو الطمحان القيني :(١)

ألا عَلّلاني قَبْلَ نَوْحِ النَوائِحِ ... وقَبْلَ نُشوزِ النّفسِ بينَ الجَوانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يا لَهْفَ نَفْسِي علَى غَدٍ ... إذا راحَ أصحابي ، ولستُ برائِحِ

فهو هنا في موقفه من الدهر لا يتحدى ، بل تتقاصر فاعليته في وجه الزمان . ومثل هذه المسالمة مع الدهر نجدها في كثير من شرائح قصائده . ومن ذلك :(٢)

حَنَتْني حانِياتُ الدَّهْرِ حتى ... كأني خاتِلٌ يدنو لِصيْدِ
قَريبُ الخطوِ يَحسَبُ مَنْ رآني ... - ولستُ مقيّدا - أني بِقَيْدِ

وقوله :(٣)

وإني رأيتُ الدهرَ إن تَكْرَ لا يَنَمْ ... وإن أنْتَ تَغْفَلْ تَلْفِهِ غيرَ غافِلِ

---

(١) الأغاني ، جـ ١١ ، ص ١٣٣ .
(٢) صورة عن " منتهى الطلب " في قصائد جاهلية نادرة ، ص ٢١٨ ، د. يحيى الجبورى .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذا هو أفنى بَرْزَخاً زيدَ مِثْلَـــــه ... يُرادُ على المِنْوالِ كالمُتطـــاوِلِ
فَمَنْ يَأْمَنِ الأيّامَ بعدَ ابنِ هَرْمَـــزٍ ... وبَعْدَ أبي قابوسَ مذكي الفنابـــل

ان اقتحام فكرة الموت وسبر أبعادها عند أبي الطمحان لم تضعف من إقباله على الحيـــــاة وانصرافه عن أسباب نعيمها فحسب ، ولكنها تدخلت أيضا بالعلاقات الاجتماعية بينـــــه وبين الناس من جيران وأصدقاء ، يقول في ذلك :(١)

أجِدَّ بَنِي الشَّرْقيِّ أولَعَ أنَّـــــني ... متى استَجِرْ جاراً وإن عَزَّ يَغْـدُرِ
إذا قُلْتُ أوفي أدْرَكَتْهُ دَرُوكَـــــةٌ ... فَيا مُوزِعَ الجِيرانِ بالغَيِّ أقْصِـرِ

ويكاد يتطابق موقف عبدة بن الطبيب مع أبي الطمحان في إحساسهما بقضية الزمن والموت ، باعتبارهما قوة أزلية كبيرة لا عاصم منها مهما بالغ المرء في اتخاذ أسباب المنعـــة . يقول عبدة :(٢)

والمَرْءُ ساعٍ لِأمرٍ ليس يُدْرِكُـــــهُ ... والعَيْشُ شَحٌّ وإشْفاقٌ وتأْمِيـــلُ

وهذا مثل آخر من شعره يشير إلى هذه الظاهرة ، أعني : تماثل الموقف عند هذه الفئة مـــن الصعاليك :(٣)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بأنّ قَصْرِيَ حَفْـــرَةٌ ... غبراءُ يَحْمِلُني إليهـــا شَرْجَعُ
فَبكَى بَناتي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَـــتي ... والأقْرَبونَ اليَّ ثُم تَصَدَّعُـــوا
وَتَرَكْتُ في غَبْراءَ يُكْرَهُ وِرْدُهـــا ... تَسْفي عليَّ الريحَ حـــينَ أوَدَّعُ
فإذا مَضَيْتُ إلى سبيلي فابْعَثُـــو ... رَجُلاً له قَلْبٌ خَديدٌ أصْمَـــعُ
إنّ الحَوادِثَ يَخْتَرِمْنَ وإنمـــا ... عُمْرُ الفَتى ... في أهلِه مُسْتَوْدَعُ
يَسْعَى وَيَجْمَعُ جاهِدًا مُسْتَهْتِـــراً ... جِدّاً وَلَيس بِآكِـــلٍ ما يَجْمَـــعُ
حتى إذا وافى الحِمـــامُ لِوَقْتِـــهِ ... ولكلِّ جَنْبٍ لا مَحالةَ مَصْـــرَعُ
نَبَذوا إليه بالسَّلامِ فَلَـــمْ يَجِـــبْ ... أحداً ، وَصُمَّ عنِ الدّعاءِ الأسْـــمَعُ

ذلك الهاجس بسرعة الانقضاء ، وذلك الإحساس بضيق الزمن ، وهذا الحوار الداخلي مـــع صورة الموت التي تكاد لا تفارق الخيال ... ذلك ما سلك سبيله أبو خراش ؛ اذ شارك سابقيه

---

(١) صورة عن " منتهى الطلب " في قصائد جاهلية نادرة ، ص ١٧٦ .
(٢) المفضليات ، ص ١٤٨ .
(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٨ - ١٤٩ . الشرجع : سرير من خشب يحمل عليه الميت . الأصمع : الحديـــد .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في النفور من الموت والزمن المحدود . ومن إيقاعاته الشعرية المسكونة بإحساسه بمشكلة وجوده قوله :(١)

لَعَلَّكَ نافِعي يا عُروَ يوماً ... إذا جاوَبْتُ مِنْ تحْتِ القُبُورِ
إذا راحُوا سِواتي وأسْلَمُوني ... لِخَشْناءِ الجِجارةِ ... كالبَعيرِ

ويقول شاكيا تقلبات الزمن :(٢)

وَمَا بَعْدَ أنْ قَدْ هدّنِي الدهرُ هَدَّةً ... تَضالُ لها جِسمِي وَرَقَّ لها عَظْمِي ؟

ان الفرق في الرؤية الزمنية بين هذه الفئة وسابقتها هو كالفرق بين السكون والحركة . فاستجابات الأولى كانت تعاليا والأخرى استسلاما . وعلة هذا الاستسلام يعود الى أن ممثليه أحسوا بالعجز أمام قوة لا حيلة لهم بمقاومتها . فأبو الطمحان الذى عمر طويلا كما تذكر الروايات أحس بتداعي قدرته ولم يعد له من الأمل ما يقوى به أو يدعي به مجالدة الأيام . والزمن يأخذ منه شيئا فشيئا وكل لحظة تمر تمثل موتا جزئيا من عمره .

أما أبو خراش فلا يخفى ما صار إليه من التصدع بسبب موت إخوته وموت أصحابه وهجرة ابنه ، فهو يقف من الدهر موقفا سلبيا لا يستطيع مقاومته .

أما عبدة بن الطبيب فقد أحسّ أيضا أن التعالي لا يجدى أمام حقيقة أزلية ، ولا سبيل إلى تجاهل آثار فعل الزمن ولم يجد بُدّاً من الاستسلام لحتمية النهاية ورقدة الموت . وإن التأمل في تصوير عبدة للقبر ، وإشاعة الألم والفزع في نفوس بناته وزوجته وذويه مما يُظهر الفارق النوعي بين حديث هذه الفئة عن الزمن والموت والفئة السابقة .

٢. الخرافة والأسطورة :

سواء كانت الأسطورة " قصة خرافية ، عادة ما تكون من أصل شعبي تصور كائنات تجسد في شكل رمزى ، فوق الطبيعة ، أو بعضا من جوانب عبقرية البشر ومصيرهم " كما في أحدث مفاهيم اللغة الفرنسية وأشملها (Le Robert)(٣) أو " سلسلة من المؤثرات والاستجابات بين الإنسان والطبيعة ، اذ " تقوم الطبيعة في حياة الانسان بدور المؤثر ، فتكون الاستجابة هي الاسطورة ، وتتحول الأسطورة الى مؤثر يؤدى إلى استجابة هي الشعائر ،

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ١٣٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢/١٥١ . تضال : مخفف تضاءل (تخفف) .
(٣) الاسطورة في الأدب الفرنسي / سامية أسعد ، ص ١٠٩ ، مجلة عالم الفكر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتتحول الشعائر إلى مؤثر ، وتكون الاستجابة هي الفن "[١] . فللشعراء الصعاليك إحساسهم البدائي ورؤاهم الخاصة للقوى الكونية . فإذا كانت الكعبة بالنسبة لبقية العرب تشكل مركز التوجّه الى ما وراء الطبيعة ، ومنطلق التواصل بين الواقعي والروحي ، فإن للهائمين على وجوههم في بطون الأودية وانفساح الصحراء المجدبة (الصعاليك) من ألوان الظنون والهواجس ، فضلا عن انقطاع أسباب الحياة ما يقوّى افتراض سيطرة الخرافات والأساطير على العلاقة الوجودية المتبادلة بين الانسان والطبيعة .

وليس من الضروري أن تصل إلى درجة عالية من التعقيدات الفكرية والنظام الروحي ، كما هو الحال في التجليات الصوفية عند المسلمين ، أو مبلغ البعد الغني عند اليونان في أساطيرهم ، ولكنها عبرت عن واقع الصعلوك النفسي ، وما اتسم به من قلق ورهبة وجوع وبما ينسجم مع بدائيته . يفسر لنا المسعودي الدور الذي تمثله هذه الحياة في تشكيل النمط الفكري عند الجاهلي عامة بقوله :[٢]

" وقد تنازع الناس في الهواتف والجان : فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد في القفار والتفرد في الأودية ، والسلوك في المهامة والمروراة [٣] الموحشة ، لأن الانسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحّد تفكّر ، واذا هو تفكر وَجِلَ وجبن ، واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية (الفاسدة) ، فصوت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته المحال " بنحو ما يعرض لذوي الوسواس ، وقطب ذلك وأسّه سوء التفكير ، وخروجه على غير نظام قوى ، أو طريق (مستقيم) سليم ، لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجانّ له ."

ان هذا العرض التفسيري يكشف بعمق عن ثلاثة أمور :

الأول : نوع الغيبيات التي تشبث بها أولئك القوم من جنّ وهواتف ورؤى .
الثاني : الاستعانة بهذه الغيبيات على التغلب على ما يتعرضون له .
الثالث : إن هذه الطريقة التفكيرية نمط جماعي تشمل كل من عاشوا مثل هذه الحياة ، مهما اختلفت الديار ، وتباينت الأعراق .

وفي غياب المعتقد الحقيقي تقوم الخرافة والأسطورة ببعض وظائفه في تفسير الظواهر الطبيعية ، لكنها في أغلب الحالات تتخذ موقفا توفيقيا سلبيا ، ووسيلة للهروب دون أن

---

(١) الأسطورة والشعر العربي / المكونات الأولى ، احمد شمس الدين الحجاجي ، ص ٤٢ .
(٢) مروج الذهب ، ص ١٦٠ .
(٣) المروراة : الأرض لا شيء فيها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تحل مشكلة روحية ، ويمتزج بها الوعي باللاوعي ، وتتعانق براءة التصوّر بحلم الاستكشاف للقوى الخلاّقة لهذا الكون ، وهي القوة التي تصل ما بين الإنسان والطبيعة .

وهذا التفكير الأسطوري يختلف في ميزان النقد عند القدامى والمحدثين . فعلى حين يراه الجاحظ وهما ويعلله بقوله[١] : " اذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير كبيرا ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير الحقير على أنه عظيم جليل " .

يراه بعض المحدثين من النقاد[٢] : " أحد هواجس الإنسان الحياتية والحضارية لتحقيق الاستمرار أو الوصول إلى الخلود أو بعضه " .

ويتوزع الشعر العربي في الجاهلية كثير من الخرافات والأساطير منها في التراث العربي[٣] : " الغول والسعلاة * ، والهامة ، والكهانة ، والرقي ، والتمائم ، والجنّ ، والشياطين ، والهواتف ، والزجر ، والسانح ، والبارح ، والقطرب (نوع من الأشخاص المتشيطنة) ، وغير ذلك " .

أما أعمال الصعاليك الشعرية فقد حملت صورا من طقوسهم الدينية ذات التفكير الأسطوري ، يتمثل الشاعر في أغلبها لفاعلية الزمن ، ولا عجب في ذلك ، فهو كما تبين في موضع الموت / الدهر يجسد مهد حياته ولَحْد مصيره المجهول .

ومن هذا الانطباع امتزج الزمن عندهم بالمعتقد الديني ، فنظروا لبعض أجزاء الزمن كشهر محرم نظرة روحية وقدسوه ، بل جعلوا له الحاكمية عليهم ، والحائل بينهم وبين أنفسهم حين يلج بهم طغيان الاقتتال .

---

* الغول : في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم . والسعلاة نوع من الغيلان .
الهامة : كانوا يزعمون أن الانسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة ، وهو كالبومة ، فلا يزال يصيح على قبره : اسقوني الى أن يؤخذ بثأره / المستطرف ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .
(٢) من مقال : " الرمزي والأسطوري وحاوي " ، وجيه فارس ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد ٣٨ ، آذار ، ١٩٨٦ ، ص ٩٤ .
(٣) المسعودي والأبشيهي : أفردا لذلك أبحاثا : الأول في مروج الذهب والآخر في المستطرف .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول تأبط شرا :[١]

فَعَدَّوا شُهورَ الحُرْمِ ثم تَفَرَّقُوا ... قَتيلَ أُناسٍ أو فَتاةٍ تُعانِقُ

لكن هذا لا يعني الالتزام المطلق ، والصعلوك بخاصة الذى أنفت نفسه القيود ونزعت إلى التجاوز لا يجد غضاضة في اختراق ما هو مقدس ... فالشنفرى ، لا يهاب صعوبة المرتقى وكسر طوق النواميس ، ولو كانت دينية ، ولا يتوانى عن قتل عدوّه ولو كان في جوف الكعبة :[٢]

قَتَلْنا قَتيلاً مُهْرِياً بِمُلَبَّدٍ ... جِمارَ مِنىً وَسْطَ الحَجيجِ المُصَوِّتِ

غير أن التتبع لصور هذه المعتقدات في شعر الصعاليك يكشف عن مشاهد فردية تخلو من الأنساق الجماعية ، وقد يبدو الأمر طبيعيا إذا عرفنا أن " هذه الطقوس لم تكن إلا في ظل الجماعة ومنها وعن طريقها يحقق الإنسان لنفسه التماثل مع سائر قبيلته ؛ لأن فقدان هذا التماثل يعرضه للخطر ، الخطر الداخلي الذى تلحقه القبيلة نفسها ، والخطر الخارجي الذى يتحتم عليه أن يواجهه حين يصبح وحيدا معزولا ، ولعلنا نذكر هنا كيف كان العرب في جاهليتهم ينبذون الخارج على نظم القبيلة وتقاليدها ، ويطردونه ، ويسمونه لذلك (الخليع)[٣] .

وممن استخف بهذه الطقوس عروة بن الورد ، فهو يسفّه تلك الأساطير والخرافات التي تدخل في توجيه نشاط الانسان ، فيتردى في بؤر اليأس والخذلان ، من ذلك قوله :[٤]

وقالوا : احْبُ وانْهَ لا تُضِيرُكَ خَيْبَةٌ ... وذلك من دينِ اليَهودِ وُلُوعُ
لَعَمْري لَئِنْ عشّرْتُ من خَشْيةِ الرَّدى ... نُهاقَ الحَمير ، إنني لَجَزُوعُ
فلا وَألَتْ تلك النفوسُ ، ولا أتَتْ ... على رَوْضَةِ الأجدادِ ، وَهْيَ جَميعُ

غير أن إيمانه بهذه التصورات ينسجم مع ما طبع عليه ، فهو نزّاع لعداء كل أمر يحدّ من اقتحامه ، عاشق لكل ما يشحذ همته لنيل ما يريد .

كما ظهر في شعرهم لمع أخرى من الخرافات كالاعتقاد بأن الانسان اذا جاع عض شرسوفه (ساقه) . قال تأبط شرا :[٥]

قَليلُ ادِّخارِ الزادِ إلا تَعِلَّةً ... فَقَدْ نَشَرَ الشَّرْسُوفَ والتصقَ المِعىُ

---

(١) ديوانه ، ص ١٢٤ .
(٢) المفضليات ، ص ١١١ . مهريا : محرما ساق الهَدْي . ملبّد : محرم لبد رأسه .
(٣) الفن والانسان ، ص ٢٤ ، د. عز الدين اسماعيل .
(٤) ديوان عروة ، ص ٩٥ . وَألَتْ : نجت .
(٥) ديوان تأبط شرا ، ص ١١٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويستخدم معظمهم الخرافات لإبراز تميّزه الجسدى والنفسي في القوة والشجاعة ومواجهة الطبيعة بشعور عبقرى (أسطورى) . أو لعلها تترجم ما في نفسه من التوق للاكتمال الجسدى والنفسي لحماية نفسه مما في بطون الصحراء من خراب موحش وحيوان آبد . فالشاعر المعلوك أبو كبير الهذلي مثلا - وهو شبيه لتأبط شرا في تكوينه الخلقي والنفسي وسعيه - يقول :(١)

وَلَقَدْ سَرَيْتُ على الظلام بِمِغْشَمٍ ... جَلْدٍ مِنَ الفِتْيانِ غَيرِ مُهَبَّلِ
مِمّن حَمَلْنَ بِه وَهُنّ عَواقِدٌ ... حُبُكَ النِّطاقِ، فَشَبَّ غَيرَ مُثَقَّلِ
ومبرأٍ مِنْ كلِّ غبرِ حَيْضَةٍ ... وَفسادِ مُرْضِعَةٍ وَداءٍ مُغْيِلِ
حَمَلَتْ به في لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ ... كُرْهاً ، وَعِقْدُ نِطاقِها لَمْ يُحْلَلِ
قامت به حوش الجنان مبطنا ... سُهُداً ما قام ليل الهوجل
فإذا طَرَحْتَ له الحَصاةَ رَأَيْتَهُ ... يَنْزُو لِوَقْعَتِها طُمُورَ الأَخْيَلِ

فالأبيات السابقة تمثل لنا إنسان الشاعر المنشود ضمن إطار أسطورى إذ يقرنه بصفات ترتبط بمعتقداته من حيث كونه مولودا في ليلة مزءودة ، وأنه مبرأ من كل حيضة وغير ذلك مما ذكر من صفات صديقه .

٣. **الجن والغـــول :**

هجر الصعاليك ديارهم حين تقطعت بينهم وبين قومهم الأسباب ووطئوا أرضا مقفرة من الأنس ، فعمروها بمخلوقات أخرى صوروها تصويرا حسنا ، وخلعوا عليها أوصافا غريبة .

الشاعر غريب وهذه المخلوقات غريبة - وكل غريب للغريب نسيب - فهذه الرؤى (الجن / الغول / العفاريت) مثلا ليست بمعزل عن تفرد الشاعر الذى تميل نفسه إلى الاستئثار بالقيم العليا . ولقد يكون الحديث عنها في معرض البطولة تعويضا عما افتقده من خيول / كرمز للفروسية وعنوان الشهرة بين الناس ونيل استحسانهم . والخيول توصف في الشعر الجاهلي بالجنون لفرط نشاطها ، بل هي العاديات المقتحمة تجيش جيشان المرجل . يقول الشنفرى :(٢)

وَكَمْ مِنْ عَظيمِ الخَلْقِ غَبْلٍ مُوَثَّقٍ ... حَذاه ، وفيهِ بَعدَ ذاكَ جُنُونُ

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٩٠ . مغشم : ظالم . المهبّل : الكثير اللحم . مزءودة : فزعة . حوش : رقيق . الهوجل : الثقيل .

(٢) الطرائف الأدبية ، ص ٤٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وللشاعر شيطانه أو جنّه ، يوجه طاقته الفنية ، ويلهمه القول ونفاذ البصيرة [١] . بل وكل شيء أكمل صنعته ، فللجن فيه لمسة ، يقول تأبط شرا في وصف من سبقه : [٢]

فَطارَ بِقَحْفِ الجِنِّ ذو سفاسِقٍ قَدْ أَخْلَقَ المِحْمَلا

ويصف الشنفرى غارة مفاجئة قام بها الصعلوك في ليلة باردة قائلا : [٣]

فإنْ يَكُ من جِنٍّ لأبْرَحَ طارِقاً وإن يَكُ إنسٌ ما كَذا الإنسُ تَفْعَلُ

وينوّه الشنفرى بوصف صاحبته قائلا : [٤]

فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ وَاسْبَكَرَّتْ وأُكمِلَتْ فَلَوْ جُنَّ إنسانٌ من الحُسْنِ جُنَّتِ

ويقول في وصف واد ارتاده : [٥]

ووادٍ بعيدِ العَمْقِ ضَنْكٍ قَطَعْتُهُ بَواطِنُه للجِنِّ والأُسْدِ مَأْلَفُ
تَعَسَّفْتُ مِنْه بعدما سَقَطَ النَّدى غَمالِيلَ يَخْشَى عَيْلَها المُتعَسِّفُ

أما الغول فقد شكل عنصرا هاما في رؤى تأبط شرا الشعرية ، بصورة جلية ، فكاد يكون خصيصة تفرد بها ، والطريف في هذا أنه وظف الغول في القصيدة ، وأضفى عليها ما يشبه البطل في القصة أو المسرحية ، وهذه السمة يمكن فهمها على أنها مرحلة متطورة على طريق الأسطورة استخداما رمزيا ، لا من حيث خروج الشاعر عن حدود الواقع فحسب ، ولكن من حيث استخدامها نقيضا مقابلا لقيم اطرحها الشاعر .

والجاهلي الشاعر اذا كان ممن اتسمت حياته بشيء من الاستقرار في الحياة المادية والاجتماعية ، فالمتوقع منه أن ينتباهى بما في حوزته من نياق وخيل ومال طريف وتالد يهلكه في ملذاته ، أو ينفقه في الكرم . كما يلاحظ عند طرفة في معلقته وعند عنترة وغيرهما .

---

(١) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٠٣ ، والحيوان ، ٣٢٦/٦ .
(٢) ديوانه ، ص ١٦٥ . سفاسق السيف : طرائقه .
(٣) اللامية ، ص ٦٩ .
(٤) المفضليات ، ص ١٠٩ . اسبكرت : طالت وامتدت .
(٥) الأغاني ، ج ٢١ ، ص ١٩١ . غماليل : روابي . عيلها : فقرها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الصعلوك منهم ففيم يفتخر ؟ أغلب الظن أنه لا يجد سوى بأسه وشدة شكيمته واندفاعه في المغامرات في جنبات الصحراء يصف تغلبه على عدوّ ، أو نجاته من كمين متربص . وربما أسلم النفس للهواجس والخواطر ، فتتزاحم في نفسه صور الأوهام ، والتصورات الغريبة ثم لا يفتأ أن يفرغها في قصيدته على هيئة صور حسية متخذا منها مناطا لإظهار التفوق والتميز على غيره ممن لا قِبَل لهم بذلك .

والذى أدت إليه الدراسة أن تأبط شرا هو أكثر الشعراء الصعاليك في الجاهلية افتتانا بذكر " الغول " ذكرا يجسد مشاعره بإظهار مواقفه الزاخرة بالتغلب الناطقة بالاكتمال ، في كل ما يحتفي به قبالة من يستعلي به الآخرون . من ذلك قوله :(١)

ألا من مُبلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ ... بما لاقَيْتُ عندَ رَحَى بِطَانِ
بأنّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَها كِلانا نِضْوُ أَيْنٍ ... أخو سَفَرٍ فَخَلِّي لي مَكانِي
فَشدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فأهْوَى ... لَها كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
فَأَضْرِبُها بِلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرانِ
فقالت : عُدْ ، فَقُلْتُ لَها : رُوَيْداً ... مَكانَكِ إنّني ثَبْتُ الجَنَانِ
فَلَمْ انْفَكَّ مُتَّكِئاً عَلَيْها ... لأنظُرَ مُصْبِحاً ماذا أتاني
إذا عَيْنانِ في رأسٍ قَبيحٍ ... كَرَأْسِ الهِرِّ مَشْقوقِ اللِّسانِ
وساقا مُخْدِجٍ وشَواةُ كَلْبٍ ... وَثَوْبٌ مِن عَباءٍ أوْ شِنَانِ

لعل الشاعر في تصويره لموقفه المتفوق على هذه المخلوقات يريد أن يثبت قدرته على الانسجام والتكيف مع أقسى الظروف من جانب وليثبت كفاءته وفعاليته من جهة أخرى . وهذا في حدّ ذاته كاف ليسترعي انتباه القبيلة فعساها تعيد النظر في تصحيح موقفها منه فتسترضيه فتعيده إلى حظيرتها .

كما تبدى أيضا انعطافه وتحوله كردّ فعل لزهد مجتمعه وترفعه عنه بقوله :(٢)

وأَدْهَمَ قَدْ جَبَنْتُ جِلْبابَتَهْ ... كَمَا اجْتَابَتِ الكاعِبُ الخَيْعَلاَ
على شِيمِ نارٍ تَنَوَّرْتُها ... فَبِتُّ لَها مُدْبِرًا مُقْبِلا
فاصبَحْتُ والغُولُ لي جارةٌ ... فيا جارتا أنتِ مَا أهْوَلا

---

(١) ديوانه ، ص ٢٢٢ . سهب : الفلاة . الصحصحان : الواسعة . النضو : الدابة الهزيلة من السفر . الجران : مقدم العنق . المخدج : الناقص الخلق المشوه .

(٢) ديوانه ، ص ١٦٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَطالَبْتُهـــا بُضْعَهـــا فالْتَـــوَتْ بِوَجْـــهٍ تَغَوَّلَ فاسْـــتَغْوَلا
فَمَنْ كان يَسألُ عنْ جَارتـــــي فإنّ لَهَا باللِّـــوى مَـــنْزِلا

إن تأبط شرا لم يطبع على حب العداء للناس ، ولم ينصرف قلبه جوّلا عنهم ابتـــداء ... فله نوازعه ونشاطاته الحيوية المختلفة في المجتمع كالميل للتكاثر والتملك ، ولكنه حـــين يزورّ عنه الأهل ويتنكب عنه ذوو الأرحام لا يتردد في التحول إلى الطبيعة المتمادية بقسوتهـــا يصنـــع منها الجار ويصوغ منها ما تسكن إليه نفسه .

ولعلك تلمح في شغفه بالحديث عن الغِيلان ما يكشف عن روح ناقمة على المجتمـــع ، وهو أيضا خير وسيلة لرسم نموذج لإنسانه وإثبات وجوده أمام من جحده أو تنكر له ، كما فـــي قوله أيضا :(١)

أنا الذى نَكَح الغِيـــلانَ فـــي بَلَـــدٍ ما ظَلّ مِنْه سِماكِيٌّ ولا جَـــادا
في حَيْثُ لا يعْمَت الغَاوى بِمَا يَتَـــهُ وَلا الظَّليمُ به يَبْقى تَهيّـــادا
وَقَدْ لَهَوْتُ بمَصْقولٍ عَوارِضُهُـــــا بِكْر تنازعني كأساً وعِنْقَـــادا
ثم انقضى عَصْرها عـــنّي وأعْقبَـــــه عَصْرَ المَشيبِ ، فَقُلْ في صالحٍ بَاداً

هذا القول يشعرنا بأن تأبط شرا يعرض هذه القصة الخيالية ردّا على اعراض المرأة التي رغب في الزواج منها ، وإثباتا لشخصيته ووجوده ، وبذلك يتماثل هذا الموقف مع ما أبلغه لقبيلتـــه في أبيات سابقة (ألا من مبلغ فتيان فهم) .

تلك هـــي رؤيـــة الشـــعراء الصعاليك إلى الخرافة والأسطورة باشكالهما المتنوعة مما سلف ، تحولت على أيديهم من مفاهيم تقليدية محددة تستخدم للتسلية إلى مواقف حيوية تحاور الواقـــــع لا لتستوعبه ، بل لتجنح عنه وتتجاوزه .

وتلك المقطّعات الشعرية السابقة تمثل أهم ما يلقى الأضواء على أنماط تفكيرهم ، وعلـــــى مسارهم في معالجتهم لبعض مشكلاتهم .

ولعل بينها وبين ما جاء بعدها من خرافات وأساطير نسبا دلاليا ، إن لم تكن هي البذور الـــتي تخلقت منها الأساطير والخرافات المتأخرة ، على الرغم مما بينهما من التباعد الزمني والتفكـــــك التاريخـــــي .

---

(١) ديوانه ، ص ٧٧ : تهيّادا : مصدر تهيّد إذا أكل الحنظل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصـــل الثالـــــث

العلاقات الاجتماعيـــة فـي شـــعر الصعاليـــك

٠١ القبيلـــــــة
٠٢ الأبـــــــوان
٠٣ الأبنـــــــاء
٠٤ الأخوة والرفاق
٠٥ الجـــــــار
٠٦ المـــــــرأة
٠٧ القبائل الأخرى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العلاقـــــات

يبحث هذا الفصل أهم العلاقات الإنسانية التي تشكّل ما يسمى بـ " الجماعات المرجعية "[1] في حياة الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي داخل نطاق الأسرة بما تتضمنه من زوجية وبنوّة وأبوّة ... ، وداخل حياة المجتمع بما تنشأ فيه من علاقات .. كالصداقة ، والجوار ، والحلف . ويبحث في التأثير المتبادل بين الصعاليك وتلك الجماعات ، والى أي مدى تحكم هذه العلاقات حياة الصعاليك النفسية والاجتماعية .

ولما كان ميل الإنسان إلى الجماعة - والأسرة بعضها - أمراً بدهيا ، باعتبار هذا الميل أحد مقوّمات الحياة ، فلا بدّ أن تكون هذه الجماعة شاخصة في شعور الانسان أيّاكان ، سواء أظهر ذلك ام أضمر ، والنفس البشرية كما يقول الدكتور عز الدين اسماعيل[2] : " في وجودها الظاهري نفس جماعية . " كما نراه في غياب التوافق بينه وبين جماعته لا يفتأ أن " يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بحياة أصابها ، فيدعي بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقول وحمل الديات وسائر الأحوال ، وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد " .[3]

لكن هذه العلاقات لم تجر على نظم محكم ، وتتحرك وفق قانون مطرد ، لأن الإنسان يرغب ويحلم ، ورغباته وأحلامه تتداخل وتصطدم مع ما يرغب ويحلم به سائر بني جنسه ، لذلك كثيرا ما يعترض هذه العلاقات التمزق والخوف والتطرّف .

فأين وقف الشعراء الصعاليك من هذه الجماعات ؟ .

الجواب عن هذا السؤال يوضحه شعر هذه الجماعة . وسنبحث في سلسلة هذه العلاقات بترتيب خاص يتفق وأهميتها في حياة الصعاليك .

- علاقة الشاعر بقبيلته :-

إن الحياة الصحراوية بما اتصفت به من جدب وجفاف وقسوة قد فرضت على العرب في الجاهلية تشكيلا اجتماعيا خاصا ، يتمثل في القبيلة ، والتعصب الشديد لها ، والقبيلة : " وحدات تقوم على أساس صلة الدم ، سميت بأسماء مختلفة . "[4]

---

(١) وهي الجماعة التي يرجع اليها الفرد في تقييم سلوكه ، كما يعرفها الدكتور حامد زهران في كتابه : علم النفس الاجتماعي - عالم الكتب ، ط ٤ ، ١٩٧٧ ، ص ٦٨ .

(٢) الفن والانسان ، ص ١٥ .

(٣) مقدمة ابن خلدون - دار الكتب العلمية ، ط ٤ ، ١٩٧٨ ، جـ ١ ، ص ١٣ .

(٤) صبح الأعشى - القلقشندي - دار الكتب ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أوجدت صلة الدم " ما يعرف بالحسب " [١] ، وهو " خلال الآباء والأجداد من أهل عشيرته التي جاءت نتيجة طبيعية لثمرة النسب "[٢] فكان العربي يجد في جماعته " العزة " ويعتبر كل غريب عنها " ذليلا "[٣] ويسميه " اللزيق " أما من تطارده جماعته وتحرمه من حمايتها فيسمى " الخليع " [٤].

فكان لهذا البناء الاجتماعي القائم على العصبية القبلية أثره في توجيه معظم العادات والقيم العربية في ذلك العصر ، كالإغارة والأخذ بالثأر والصبر والحميّة وغير ذلك . يقول ابن خلدون : " فصار (التمسك بالقبيلة) لهم إلفا وعادة ، وربيت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبلة ، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم ان يساهمهم في حالهم ، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال ، بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه ، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ..."[٥]

وكانت أية محاولة للخروج على هذا الوضع الاجتماعي يعدّ خلخلة لدعائمه وتهديدا لمصالحه في مواجهة ما صبغت به الحياة الجاهلية من نزاع وحروب متصلة . لكن الافراط في الحرص على نقاء النسب أدى الى نتائج معكوسة تتمثل في تكوين ما سمي بـ الخلعاء ، والأغربة ، والشذّاذ الذين لقوا عَنَتا شديدا باضطهاد القبيلة وتنكّرها لهم ، وشعروا صعوبة في الاستمرار بهذا النمط من الحياة بين قوم يَسِمونهم بالوضاعة والحقارة وسوء الأحدوثة . " ويخرج هؤلاء " الشذاذ " على حياتهم ليجدوا في الصحراء متسعا لنشاطهم المتمرد الذى لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم في الحياة بأسلوبهم الذى اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قوتهم "[٦]

وسأناقش هنا ما أفضى بالشاعر إلصعلوك الى هذا الوضع مع قبيلته من هذه الجوانب : متى كان يقع هذا الوضع ومتى لا يقع وهل كان هذا الوضع نهائيا ؟ ومن الذى كان يبتدره ، ألشاعر أم القبيلة ؟ وما بواعثه النفسية ؟ وذلك من خلال ما تقوله أشعارهم في هذا المجال .

يقول أبو الطمحان :[٧]

إذا كانَ في صَدْرِ ابنِ عمّكَ إحْنَةٌ ... فَلاَ تَسْتَثِرْها ، سَوْفَ يَبْدُو دَفِينُهَا
وإنْ حَمأةٌ المعروفِ أعطاكَ صَفْوَها ... فَخُذْ عَفْوَه ، لا يَلْتَبِسْ بِكَ طِينُهَا

---

(١) التاريخ الكبير - اليعقوبي ، تحقيق هاوتزما ، طبعة باتافورن ، جـ ١ ، ص ٣٩٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٠٦ .
(٣) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، القاهرة ، ١٢٩٣ هـ ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ .
(٤) الحيوان - الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٢٩ .
(٦) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ص ٩٨ .
(٧) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ٩٦ . الحمأة : الطين الأسود المنتن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالشاعر يعبر عن شدة التحامه مع بني قومه ، وعن ضرورة التجاوز عمّا يمكن أن يؤدى إلـــــى القطيعة ، وكأنه يملك حسّا يتنبأ بما سيؤول اليه الحال من الضياع في حمأة الخلافات التي تهدم بنيان القوم . وهو حريص أيضا على تحرير النفوس من أنانية الذات وكل ما يؤدى الى تمزيق لشخصية الجماعة .

ويقول عروة :(١)

صَبُوراً على رُزْءِ المَوالي وَحافِظاً ... لِعِرْضِيَ ، حتّى يُؤْكَلَ النبتُ أخْضَرا

ويقول :(٢)

أيَهْلِكُ مُعْتَمٌّ وَزَيْدٌ ولم أقُمْ ... على نَدَبٍ يَوْماً ، وَلي نفسُ مُخْطِرِ

ويقول :(٣)

لِكلِّ أُناسٍ سَيِّدٌ يَعْرِفُونَهُ ... وسيِّدُنا حتى الممات رَبيعُ
إذا أمَرَتْني بالعُقوقِ حَليلَتي ... فَلَمْ أعْصِها ، إنّي إذن لَمُضيعُ

عروة كما يبدو في هذه الأبيات منصهر في جسد القبيلة ، صابر على ما يصدر عنهم ، لا يتوانى عـــن درء الأخطار عنهم ، وحتى الألفاظ التي يستخدمها مستمدة من معجم قبلي : الموالي ، معتمّ ، وزيـــد ، ربيع ، العقوق .

وهو في الأصل مخلص لقبيلته ، مؤمن بمسؤوليته نحوها ، متأثر بما ينتابها من الظروف ، مـــن فوز أو فشل . ومن هذه المواقف ما يتمثل في قول مالك بن حريم :(٤)

وآخُذُ لِلْمَوْلى إذا ضِيمَ حَقَّـــهُ ... من الأعْيَطِ الآبي ، إذا ما تَمَنَّعَـــا
فَواحِدَةً : ألاّ أبيتَ بِعِـــزَّةٍ ... إذا ما سَوام الحيِّ حَوْلي تَضَوَّعَـــا

فهو إذن ... مندمج في قومه أتم اندماج ، يعطيهم من نفسه كل ما يمكّن لوجودهم ويدعم مكانتهم .

والعاطفة نحو القبيلة تمثّل بداية الوعي للوجود عند الصعلوك ، وهي بتعبير آخر " الأنـــا " الممتدة لذات الإنسان في ذلك الوقت .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٦٥ .
(٢) ديوان عروة بن الورد ، ص ٧٣ ، معتم وزيد : قبيلتان من عبس . على ندب : نادبا .
(٣) ديوان عروة ، ص ١٠٢ .
(٤) الأصمعيات ، ص ٦٤ ، ضيم : انتقص حقه . الأعيط : الممتنع . تضوّعا : تفرق .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد عبر تأبط شرًا عن هذا الالتزام بقوله :(١)

وَذِي رَحِمٍ أحالَ الدَّهْرُ عَنْـــــهُ ... فليس له لَدىٰ رَحِمٍ حَرِيـــــمُ
أصابَ الدهرُ آمَنَ مَرْوَتَيْـــــهِ ... فألْقاهُ المَصاحِـــبُ والحَمِيـــمُ
مَدَدْتُ لهُ يَمينـــًا من جَناحِـــي ... لها وُفْرٌ وَخافِيَـــةٌ رَخُـــومُ
أُواسِيهِ على الأيّـــامِ إنّـــي ... إذا قَعَدَتْ بِهِ اللُّـؤْمـا ألُـــومُ

الشاعر في الأبيات السابقة يعيد النظر في تقييم موقفه من ذي رحمه ، فهو حين يتأزم الموقف يتحـــوّل عن موقفه النفسي ليقوم بمسؤوليته نحو الاقارب / القبيلة .

ولا يتحول عن ذلك الشعور إلا اذا أحس ما يتنافى مع قدره وفرديته ، باعتباره إنسانا له قيمتـــه ، كأن يتنكر له القوم ... عندئذ يتخذ لنفسه مسارا جديدا ولو كان أشق عليه من الموت .

هذا عروة يؤكد لنا بأن الذى باعد الشقة بينه وبين أقاربه أعنف من أن يطاق . وثمة احســـاس بأنّ الأنفصال عن القبيلة إنما هو انفصال عن الحياة . يقول في ذلك :(٢)

إذا المَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سَـــوامًا وَلَمْ يَـــرُحْ
عليهِ ولَمْ تَعْطِفْ عَلَيْـــهِ أقارِبُـــهْ
فَلَلْمَوْتُ خَـــيْرٌ لِلفتى مِنْ حَياتِـــهِ
فَقيرًا وَمِنْ مَوْلـــى تَدِبُّ عَقارِبُـــهْ

فالمشكلة التي تقابل خروجه عن القبيلة كبيرة ، والإذعان لها معناه المسغبة والقهر والهلاك . ولا مجال أمامه إلا الانطلاق لحل مشكلته بنفسه طَوْعا أو كَرْها .

ومن أكرم المواقف التي تصور ما يدور في نفس الشاعر من الإحساس بتجاوز هنات القبيلـــــة ، وتحويلها إلى علاقة إيجابية قول عمرو بن براقة :(٣)

إذا جَرَّ مَوْلانا علينـــا ظَلامـــةً ... صَبَرْنا لَهـــا ، إنّ الكِرامَ دعائِـــمُ
وَنَنْصُرُ مَوْلانا ، وَنَعْلَـــمُ أنّـــهُ ... كَمَا الناسِ مَجْرُومٌ إليـــهِ وَجَـــارِمُ

فالوشيجة بينه وبين بني قومه قائمة ، ولن يفسدها ما قد يقع من جانبهم من هنات .

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ٢٠٤ . المروة : الحجر الصلب تقدح به النار يقصد ركنيه . الرخـــوم : الحاضنة بيضها . ألوم : أساعد .
(٢) ديوان عروة ، ص ٢٩ .
(٣) المؤتلف والمختلف ، ص ٨٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لكن هذه العلاقة قد تنمو بشكل مضادّ بين المعلوك وبين القبيلة حين يتعرض المعلوك لنظرة التجاهل والدُونية من قبل قومه ، ثم لا يفتأ أن يتمرد على الوضع القائم .

لِنَدَعْ شعراء من هذه الفئة يتحدثون عن هذه العلاقة مع القبيلة وما طرأ عليها ، فلعل في ذلك ما يقدم صورة كلية أو شبه كلية عن سكناتهم وحركاتهم ، واندماجهم وانطلاقهم في هذا المضمار .

قال قيس بن الجدادية حين وقع في مأزق خلع قبيلته له :(١)

أنا الّذي تَخْلَعُه مَوالِيهْ ... وكُلّهم بَعْدَ الصَّفاءِ قالِيهْ
وكُلّهم يُقْسِمُ لا يُنالِيهْ ... أنّا إذا المَوْتُ يَثُوبُ غالِيهْ
مُخْتَلِطٌ أسْفَلُه بِعالِيهْ ... قَدْ يَعْلَمُ الفِتيانُ أنّي صالِيهْ
إذا الحديدُ رَفَعَتْ عواليه

فقيس هنا يتذوق طعم الإحباط على يدى قبيلته ، فلا فائدة يرجوها من موالاتها والانتماء اليها . وخلع القبيلة يعني فضلا عن ذلك خلق فجوة كبيرة لا بدّ من ملئها .

ومن هنا أصبح ضروريا البحث عن جماعة مرجعيّة يملأ بها هذه الفجوة (التخلي عن القبيلة) .

وذلك الموقف نفسه يصل بأمية بن الأسكر اذ يقابل افراط قبيلته بقسوتهم عليه ، وتفريطها بحقوقه أن ينضم لقبيلة أخرى ، فيقول :(٢)

تَكَنَّفَها الهِيامُ وأَخْرَجُوها ... فما تأوى إلى إبِلٍ صِحاحِ
فكان الى مُزَيْنَةَ مُنْتَهاها ... علىٰ مَا كان مِنْ فيها جُناحِ
وما يكن الجناح فانّ فيها ... حلائق ينتمين الى صلاحِ

أما ما أعلنه حاجز الأزدى بقوله :(٣)

قَوْمي سَلامَانُ إنْ ما كُنتِ سائلَةً ... وفي قُرَيْشٍ كَريمُ الخُلْقِ والنَّسَبِ

---

(١) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٨ .
(٢) الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ١٢ .
(٣) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيلاحظ أن الشاعر وان أعلن انتماء جديدا لقبيلة أخرى فإن جذوره الأولى تبقى في إلحاح دائم . فابتداء القول بـ (قومي سلامان) فيه ارتداد نفسي واضح للقبيلة ، أو هو بمنزلة رفع رايتها .

وهذا قيس بن الحدادية يدعو للذين حموه بعد أن خلعه قومه قائلا : (١)

جَزَى اللّهُ خَيْراً عَنْ خَلِيعٍ مُطَـرَّدٍ رِجَالاً حَمَوْه آلَ عَمْرِو بنِ خَالِـدِ

فهذا الوضع النفسي المتبادل بين هؤلاء الأفراد وبين قبائلهم أفرز هذه العلاقة ذات الطابع المميز : " فلم يكن الصعاليك سوى فئة من فقراء القبائل المختلفة عبرت بانسلاخها من جماعاتها القبلية وتفردها في الصحراء للغزو والسلب عن واقعين أثنين لهما دلالة واحدة ، عبرت أولا عن خروجها على الانتماء الذي يلزمها الالتصاق بحياة القبيلة والانقياد لأوضاعها وأعرافها مهما لقيت من عوز واضطهاد . وعبرت ثانيا عن حاجة مادية لم تستطع احتمالها في ظل القبيلة . أما دلالة ذلك فهي أن التمايز الاجتماعي قد بلغ من تأثيره على الفئات المستضعفة حدا يدفع بعضها إلى تكفيك علاقاتها القبلية . وهذه الدلالة تشكل علامة بذاتها على الانحلال الذي يتسرب الى داخل النظام القبلي "(٢)

فإذا كان المجتمع بعامة والقبيلة بخاصة يريان في هذا الإنسان خليعا شرغيا ، خارجا عن إطار التكافل الذي تأصل في بناء القبيلة ، فإنه ازاء هذه الظروف ليس بحاجة الى التمسك بهذه الحمية ، ولا يبالي بعد ذلك أن ينضم لمن " جعلو أرزاقهم في البادية في أطراف رماحهم ، ومعاشهم فيها بأيدى غيرهم (الصعاليك) " .(٣)

وقد التمس الصعاليك حياة جديدة متخلين عن قبائلهم، وصاغ ما وقع عليهم من حيف بينهم تجانسا شعوريا أدى إلى موقف واحد انتمى اليه جلّهم ، وان اختلفت بهم المواقع والقبائل . فكان من مظاهر هذا التجانس الشعوري أن كثيرا منهم كالشنفرى ، والأحيمر السعدى وأبي الطمحان القيني تولوا عمن ينتسبون اليهم دماً ولحماً ملتمسين لأنفسهم مجتمعا آخر يكون أكثر تماثلا وتوافقا مع موقفهم الداخلي وأظهر تعبيرا لتصوراتهم .

- المجتمع البديل :

إن المحور الثابت الذي تدور حوله معظم الأعمال الشعرية للصعلوك هو قضية الذات في بعديها : الجسدى والمعنوى ، وهو يواجه مشكلاته . وإن كان في أكثره أسطوريا (يبلغ مدى خارقا للعادة ، متجاوزا ما نعهده) ، في عَدْوه ، وفي نجاحه ، وفي إيثاره ، وفي دُنُوّه وانعزاله ، وفي أكثر ما يصوره لنا من مغامرات .

---

(١) الأغاني ، جـ ١٤ ، ص ١٥٢ .
(٢) النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية - حسين مروة - دار الفارابي / بيروت / جـ١ ، ص ٢٠٩ .
(٣) مقدمة / ابن خلدون ، ص ٢١٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من ذلك نزوعه إلى حياة الأوابد والوحوش بديلا عن حياة الإنسان وما أسبغ عليها من الوصف الذى لا يقع إلا عند الإنسان .

يبدو هذا الأمر معقولا نسبيا اذا ما أخذنا بنظرية المؤثر والاستجابة ، فحين يتجهم المجتمع للفرد ، ويفقد فيه الشاعر الطمأنينة والتقدير يصبح التحول الى عالم الوحوش من قبل هذا النوع من الناس المدينة الفاضلة التي يحلم بها ، يقول الأُخَيْر السعدي :(١)

عَوَى الذِّئْبُ فاستأنستُ بالذِّئْبِ إذْ عَوَى
وَلَوّحَ إنسانٌ فكِدْتُ أطيرُ
يَرَى اللّهُ أنّي لِلأنيسِ لكارِه وَتُبْغِضُهُمْ لي مُقْلَةٌ وَضَمِيرُ

ويقول أيضا :(٢)

نَهَقَ الحِمارُ فَقُلْتُ : أَيْمَنُ طائرٍ إنّ الحِمارَ من التِّجار قَرِيبُ

وما ألِفْنا موقفا كهذا يفرح صاحبه بصوت الحمار لقربه من التجار .

وما تكرار هذه الصور لاندماج الشاعر في هذا الكيان الجديد إلا شهادة على ما يعانيه من شعور بالقهر والتفتت وجفاء الأهل . من هذه الصور قوله :(٣)

أُرانِي وَذِئْبَ القَفْرِ إلْفَيْنِ بَعْدَما
بَدَأْنا كِلانا يَشْمَئِزُّ وَيُذْعَرُ
تألّفَني لمّا دَنَوْتُ وَأَلِفْتُه
وأَمْكَنَني لِلرَّمْيِ لَوْ كُنْتُ أغْدِرُ
ولكنّني لَمْ يأتَمِنّي صَاحِبٌ
فَيَرْتابَ بي ، ما دام لا يَتَغَيَّرُ

ان ما اختزنه وعي الشاعر من ظلم ذوى القربى جعله يخترق الحواجز الكثيفة ما بين عالمين متغايرين (الانسان والوحوش) ، معبرا عما بداخله من أشواق إلى أفق جديد .

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقول تأبط شرا في اطار هذا المنهج :(١)

يَرَى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأنيسَ وَيَهْتَدِي
بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ

والشنقرى تنفذ به العاطفة ويجمح به الخيال في أنسنة عالم الضوارى ، فيتولد منها الأهل وذوو العلائق الحميمة ، وهذا النفاذ لا يتأتى عن تجارب عرضية ، وانما يتأتى عن تحولات جذرية عميقة ترفض كل مألوف . وانه ليحس بسعة الحياة وجاذبيتها في عالم الحيوانات الضارية أكثر من حياة مجتمعه القائمة على القهر والزجر .

يقول في ذلك :(٢)

وَلِي دونَكم أَهْلُون سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأهلُ ، لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِ ذائِعٌ لَدَيْهِم ، ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذَلُ

وكلما ازداد فهم الشاعر لواقع مجتمعه نما احساسه بالغربة عنه وعن قيمه ، وامتلأ قلبه بالتنكر له ، والتحول إلى آخر فيه شفاء لروحه وحضور لِقِيَمِه .

يقول تأبط شرّا :(٣)

يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْتُهُ وَيُصْبِحَ لا يحمي لها الدَّهرَ مَرْتَعَا
أَيْنَ فَتَىً لا صَيْدَ وَحْشٍ يَهُمُّهُ فلو صَافَحَتْ إِنْسًا لَصَافَحْتُهُ مَعَا

ويقول :(٤)

وَوَادٍ كَجَوفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِى كالخَلِيعِ المعيَّلِ

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ١٥٦ .
(٢) اللامية ، ص ٤١ . السيد : الذئاب . العملّس : القوي على السير . الزهلول : الأملس ، جبأل : علم للضبع .
(٣) ديوانه ، ص ١١٧ .
(٤) ديوانه ، ص ١٨٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولأبي الطمحان القيني معاناة كبيرة مما جرّه عليه الأهل والمجتمع ، فإذا انقلبت الحياة إلى اندثار فلْيُفارقْ هذا العيشَ ، ولينقلبْ الى العشير البرىء الذى يجد به العزاء النفسي عما واجهه من عقوق وهو الطبيعة، فهي على ما فيها من شظف وشح مطية للتسامي ، ورمز للفروسية ولاقيم . إن وحشيتها تمنح الشاعر الأنس والخصب والوصال أكثر مما يمنحه الناس .

وفي قصيدة تبلغ ثلاثةً وأربعين بيتا يبدؤها أبو الطمحان بوقفة شعرية طللية تصوّر الاندثار وانقاض الحياة ، ثم يمتد كيان القصيدة الى تصوير قلقة واضطرابه في انسجام متماسك مع المقدمة ، مجسدا لحالته النفسية في سياق شبيه بحركات مسرحية يمثل شخوصها صراعا حادا داخل ثنائية طرفاها الشاعر المنشد للخلاص ، والمجتمع الظالم ، يتراءى ذلك في هذه الأبيات من تلك القصيدة :(١)

وَلَمّا رَأَيْتُ الشّوْقَ مِنّي سَفاهَةً ... وأَنّ بُكائي عن سَبيلي شَغِيلي
صُرِفْتُ ، وَكان اليَأْسُ مِنّي خَليقَةً ... إذا ما عَرَفتُ الصّرْمَ مِنْ غيرِ واصِلِ

إن هيام الشاعر بالقيم الخيّرة كالعزة جعله ينشدها في كل مكان ، ولكل ما حوله : من إنسان وطير وحيوان . فالموجود ، مهما كان ، قمين أن يعيش وجوده ، ويمارس خصوصية ، لا غائل ولا مغول .

وفي الأبيات التالية التي ترسم مشهدا لمطاردة كلاب ثورا وحشيا وإمعانها فيه طلبه ما يوحي بأن هذه الكلمات مسكونة بعواطف الشاعر ، وهي مزيج من القلق والألم والاقتحام . والأبيات تبدأ بالتوحيد بين نفس الشاعر وثور الوحش عن طريق حرف الكاف الذي تفيد قوة المشابهة على هذا النحو :(٢)

لَكالنّابيءِ الفَرْدِ الأَرَحِّ ظَلُوفُهُ ... قَوانيءُ حَمْرٌ مِن خُزامىٰ الخَمائِلِ
تَهادىٰ على نَيٍّ ، فَجالَ كأنّه ... حُسامٌ جَلاهُ عَنْهُ مِسَنّ الصّواقِلِ
فَفاجَأَهُ غُضْفٌ ضَوارٍ ذَوابِلٌ ... ضَوارِعُ فُرْقٌ كالخِطارِ الذّوابِلِ
فَجالَ وَلَمْ يَعْكُفْ وَهُنّ دَوالِفُ ... دَوانٍ حِثاثُ الرّكْضِ غَيْرُ نَواكِلِ
فَكَرّ وَقَدْ أَرْهفْتُه بِسِلاحِه ... ولِلهِ حافي سَوْءَةٍ ... لَمْ يُقاتِلِ

---

(١) قصائد جاهلية نادرة ، د. يحيى الجبورى ، ص ٢٧٣ ، والكتاب صورة عن مخطوطة منتهى الطلب جـ ٥ ، ص ١٧٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٣ . النابيء : الثور الذى يخرج من أرض إلى أخرى . الأرح : المنبسط الظلف . تهاوى : مشى متمايلا . النيّ : الشحم . الصياقل : الحجر الحاد . غضف : كلاب مسترخية الآذان . ضوارع : نحيفات . دوالف : متقدمات . حثاث الركض : مسرعات . غير نواكل : لا يضعفن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويسهب الشاعر في عرض هذه المشهد الحية ، وما يفجعه فيها من غياب الحق والعدل ، ومن تحدّر القيم ، في أسلوب رمزي مما يلاحظ من تتابع الانتقال من وصف حال الشاعر ، الى المشهد السابق ، فالعودة الى نفس الشاعر وهكذا ... اذ تحدث أولا عن امّحاء محبة الحياة من نفسه ، ثم قفز الى وصف المشهد السابق ، وعقب الانتهاء من اللمسة الأخيرة بسارع ودون فاصل فيوازن بين الحاليين قائلا :(١)

أَلَمّاَ يبن لي أنْ تَهابَ جَرِيرَتي
فَيَقْصُرَ عنّي حَيثُ يَمّمْتُ عاذِلي
دَنَتْ حَفْظَتي وَنَصّفَ الشّيبُ لِمّتي
وخلّيْتُ بالي للأمورِ الأثافلِ

كان تحركهم هذا إلى عالم الوحوش يحمل مضمونا احتجاجيا على القبيلة ، ضد مقولات الفقر ، وضد امتلاك العبيد وضد الطبقية والخلع ، ولو اتخذ هذا الاحتجاج أشكالا غريبة جدا . فحضور الأوابد أفعليّا كان أم تصوريا يشكل كيانا حديدا يمكن للصعاليك أن يفجروا من خلاله كل مظاهر وعيهم وإحساسهم وبقدر ما كانت القبيلة وأصحاب النفوذ يُمعنون في ظلمهم بقدر ما كانت فكرة الجنوح عن القبيلة تزداد عمقا وامتدادا .

وعلى الرغم من خلع القبيلة للصعلوك ، واختياره تشكيلا آخر ، وعلى الرغم من صلابة الواقع ، وكبرياء الذات وسائر ما أفضى بالشاعر الى الصعلكة ، فإن هاجس العودة إلى الأهل ، القبيلة كان من بين ما علق بنفسه من أطياف ، والصعلوك يدرك إدراكا تامّا أن الانسلاخ عن القبيلة فيه خطر عليه وضرر للقبيلة ، لكن الحقيقة شيء ، والاستجابة للنفس شيء آخر .

وعلى العموم ظلت ملامح القبيلة تظهر في شعره بين الفينة والأخرى بحيث نستطيع القول بأن الشاعر لم ينصهر في الحياة الجديدة انصهارا كاملا ، ويمكننا ملاحظة هذا الانجذاب نحو القبيلة بقول تأبط شرا :(٢)

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ ، وما كِدْت آيبا ... وَكَمْ مِثلِها فارَقْتُها وَهْيَ تَصْعَرُ

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٧ . الجريرة : الجناية . حفظتي : قلة الغفلة في الأمور . اللمة : الشعر يجاور شحمة الأذن .

(٢) ديوانه ، ص ٩١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول الأحيمر فيما يشبه الثّوابة في عتاب قبيلته :(١)

وَتَيْهاءَ يَزْوَرُّ القَطاعَنُ فَلاتِها ... إذا غسبلتْ فوقَ المِتانِ حَرُورُ
كفى حَزَناً أنّ الحمار بْنَ بَحْدَلٍ ... عَلَيَّ بأكْناف السّتارِ أميرُ
وأنّ ابنَ موسى بائعَ البقل بالنّوى ... له بين بابٍ والسّتارِ خَطيرُ
هنيئاً لِمحفوظٍ على ذات بينِنا ... ولابنِ لِزارٍ مَغْنَمٌ وَسُرُورُ

فالشاعر يتابع عن بعد مجريات الأحداث في عجلة الأحداث ، فلا يصبر على ما يتعرض له قومه ، فيأخذ في عتابها على ما أصابها من عوامل الضعف والانهيار مذكرا إياها بغيابه عن ساحها .

وقول قيس بن الحدادية :(٢)

سَقى اللهُ ذاتَ الغمرِ وَبْلاً وَديمَةً ... وَجادَتْ عليها البارِقاتُ اللّوامِعُ
بما هي مَغْناةٌ أنيقٌ نِباتُها ... مُرَبٌّ ، فَتَرْعاها المَخاضُ النّوازِعُ

فهذا التركيب الاجتماعي الجديد ، وهذه المعارضة السياسية لم يحولا بين الشاعر وبين التوجه إلى القبيلة . فلعل إحساسه القبلي ما يزال كامنا في نفسه على الرغم من تنامي الشعور بالكيان الجديد ... وبروزه مرتبط بما ينال من نفسه أو يهدد مصالح قبيلته .

يقول السليك عندما شعر أن أنس بن مدرك الخثعمي قاتِلُه لا محالة :(٣)

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمي بأنّي مُقْتَولٌ ... يا رَبِّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُكُولُ

ويقول تأبط شرّا في موقف كهذا :(٤)

ألا مَنْ مُبْلِغٌ فَهْمَ بنَ عَمْروٍ ... على طولِ التّنائي والمَقالَهْ
مَقالَ الكاهِنِ الحامِيّ لَمّا ... رَأى أثَري ، وقَدْ أنْهَبْتُ مالَهْ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١١١ . تيهاء : مفازه يضل بها الانسان . الغسبلة : اختلاف الناس بعضهم الى بعض وترددهم .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١١ ، ١١٢ . يأسف الشاعر على خذلان قومه بعد أن خلعوه وهو فارسهم .
(٣) السليك بن السلكة / شعره ، ص ٦٣ .
(٤) ديوان تأبط شرا ، ص ١٩٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول أيضا :(١)

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ ... بِما لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ

ويقول الشنفرى حين استشعر المهانة بعد أن لطمته الفتاة :(٢)

أَلا هَلْ أتىٰ فِتيانَ قَوْمي جَماعَةً ... بِما لَطَمَتْ كفُّ الفتاةِ هَجِينَها
وَلَوْ عَلِمت تِلك الفتاةُ مناسبي ... وَنِسبَتَها ظَلَّت تَقَاصَرُ دونَها

فثمة شعور بالصلات الجذرية بين الشاعر وبين قومه ، أما المعايشة الاجتماعية والنفسية مع بني سلامان الذين أوهموه بأنه منهم فمستحيلة .

ويقول أبو الطمحان القيني معبرا عن احترامه لموقع قبيلته بين القبائل ، ورسوخ جذرها ، وبعدها المعرفي :(٣)

إذا قيل أيُّ النّاسِ خَيْرٌ قَبيلَةً ... وأَصْبَرُ يوماً لاَ تُوارَى كَواكِبُهْ
فإنّ بني لُؤْمِ بنِ عمرٍو أرومَةٌ ... سَمَتْ فَوْقَ صَعْبٍ لا تُنالُ مَراقِبُهْ
أضاءَتْ لَهُمْ أحْسابَهُمْ وَوُجُوهُهُم ... دُجىٰ اللَّيلِ حَتّىٰ نَظّمَ الجزعَ ثاقِبُهْ

فقبيلة الشاعر ذات تميز في بنائها النسبي والعقلي والخلقي ، وهي بؤرة نورانية فاعلة في توجيه الناس.

ويقول معبرا عن شدة نزعته لدياره وأهله :

أَلاَ حَنَّتْ المِرْقالُ وَانْتَبَّ رَبُّها ... تَذَكَّرُ أوطاناً وأَذكرُ مَعْشَرِي

فاذا ما اعتبرنا هذه النماذج الشعرية منفذا لكشف علاقة الصعلوك بقبيلته أمكن القول بأن الشعور الداخلي الذي يكنّه لها لم يكن فظا غليظا ، ولم يبتدرها بالعداء ، ولكنه ما زال يقيم الشهادة تلو الأخرى على براءته . أما اذا عجزت عن تصحيح مسارها فإنه لا يستطيع المضيّ معها . وفي بعض الأحيان يشعرنا بتودّد مستور للعودة إلى القبيلة على الرغم من صلابة الحواجز النفسية التي يأتي في مقدمتها مطالبه الإنسانية .

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ١٩٧ .
(٢) الطرائف الأدبية / ديوانه ، ص ٤٠
(٣) الأغاني ، جـ ١١ ، ص ١٣٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأيـــــــوان

على الرغم من تعدد مجالات شعر الصعاليك في علاقاتهم فإن ما قيل من هذا الشعر في الأبـــويـــن قليل إذا ما قورن بغيره .

وإذا لم نظفر بما يمثل الأمومة والأبـوّة من شعرهم إلا بالنزر اليسير ، فذلك أمر طبيعي بالنسبة للظروف التي عاشوها ، فالأم من غير العرب الأصلاء نظر إليها المجتمع نظرة وضيعة . أمّا الأب فلا يقل مسؤولية عن المجتمع لتعزيزه هذه النظرة ، سواء كان بعدم اعترافه بنسب ابنه أم بعدم المبالاة ممن هو أولى الناس بالتواصل والتعايش معه ، وإعانته على كسب حقوقه .

وإذا كان الشنفرى ـ كما سنلاحظ في شعره ـ أكثر هذه الفئة ذِكرًا لأمه وأبيه ، فهذا راجع إلى ما قاساه في مبدأ حياته الضائعة بين القبائل ، بل تعدّ قصة أسره وعيشه في كنف من افتداه أبرز حلقة في سلسلة قضاياه الكيانية ، وهو حين أحس غربته عن القبيلة هذه لم يتوان عن قطع علاقته بالقبيلة فحسب ، بل بأخته المزعومة غير الحقيقية "قعسوس" ، يقول الشنفرى حين اكتشف غربته عن القبيلة التي افتدته : (١)

وَلَـوْ عَلِمَتْ تلك الفتـاةُ مناسبي
ونِسْبَتَهـا ظَلَّتْ تَقَاصَـرُ دونَهـا

أليس أبي خيرَ الأَواسِ وغيرها
وأمّي ابنةُ الخيرين لو تَعْلَمينها

وحين يُقتَل أبوه يطغى عليه الإحساس بالتوجع ممزوجا بالغضب والترفع عن أسلوب القاتلين ، فيقول : (٢)

أضَعْتُمْ أبي إذْ مالَ شقٌّ وسادِه
على جَنَفٍ ، قَدَّ ضاعَ مَنْ لم يوسِّدِ

فإن تَطْعَنوا الشَّيْخ الذى لم تفوّقوا
منيّتَه ، وغبتُّ إن لم أشهّد

فطعنةُ خَلْسٍ منكمُ قد تركتُها
تمجّ على أقطارها سَمَّ أسْوَدِ

---

(١) الطرائف الأدبية ، ديوانه ، ص ٣٨.

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٤١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالشاعر متوجع لمقتل أبيه ، لأن فقده خسارة لا تعوض أولا ، وهو في سنّ (شيخ) لا تجيز قتله ثانيا . فقتله على هذا النحو شاهد على سوء فعلة العدو وخسته .

أما الشاعر (وهو مضطلع بأخذ الثأر) ، فيرفض سلوك عدوه في القتل . لأن عمله سيكون مستمدا من بنائه النفسي ، وقيمة المتمثلة في توجيه الفعاليات توجيها سليما .

ومن ذلك افتخاره بأمه ، وهو يوجه الخطاب الى بني أمه قائلا :(١)

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

أما عروة فيتحدث عن الأم كما يتحدث عن أيّ شكل من أشكال التعسف والاضطهاد والازدراء الذى عاناه من المجتمع .

وهؤلاء الناس - كما يرى عروة - قد جعلوا الأمّ السوداء موضوعا للمزايدة للنيل من كرامة المملوك ولطمس شخصيته ، يقول في ذلك :(٢)

هُمْ عَيَّرُونِي أَنَّ أُمِّي غَرِيبَةٌ ... وَهَلْ فِي كَرِيمٍ مَاجِدٍ مَا يُعَيَّرُ
وَقَدْ عَيَّرُونِي المَالَ حِينَ جَمَعْتُهُ ... وَقَدْ عَيَّرُونِي الفَقْرَ إِذْ أَنَا فَقِيرُ
وَعَيَّرَنِي قَوْمِي شَبَابِي وَلَمَّتِي ... مَتَى مَا يَشَأْ رَهْطُ امْرِئٍ يَتَغَيَّرُ

ومن هذا الشعر القليل في الأبوين أو أحدهما قول حاجز الأزدى :(٣)

أَبِي عَبَرَ الفَوَارِسَ يَوْمَ وَاجٍ ... وَعَمِّي مَالِكٌ وَضَعَ السِّهَامَا

ذلك القليل من الشعر لا يمثل الموقف الكلي للشعراء ، فمن لم يستطع البوح بما شكل في نفسه عقدة نقص نفسية صوّب أمه خاصة ، فقد استطاع أن يحوّل القول الى لون آخر ، خلصه من نظرات المجتمع ، يقول تأبط شرّا :(٤)

يَا مَنْ لِعَذَّالَةٍ خَذَّالَةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ بِاللَّوْمِ جِلْدِي أَيَّ تَحْرَاقِ
يَقُولُ : أَهْلَكْتَ مَالًا لَوْ قَنِعْتَ بِهِ ... مِنْ ثَوْبِ صِدْقٍ وَمِنْ بِرٍّ وَأَخْلَاقِ
عَاذِلَتِي إِنْ بَعْضَ اللَّوْمِ مَعْنَفَةٌ ... وَهَلْ مَتَاعٌ وَإِنْ أَلْفَيْتِهِ بَاقِ ؟!

---

(١) الطرائف الأدبية / ديوانه ، ص ٣٥ .
(٢) ديوان عروة ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٣) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٠ .
(٤) ديوانه / ص ١٤٠ ، ١٤١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن مثل هذا الحوار الذي يكشف عن علاقة حميمة بين الشاعر وبين من حرّق جلده ، مصطبرا على تحراقه - كما يقول - قلما يصدر إلا عن ألصق الناس به رحما ومودة ، ولو حاول الشاعر الأيهام بغير ذلك .

واذا تنازع نفس الشاعر هاتان الحالتان : حب التصريح بذكر الأم ، والرغبة في اخفاء ذلك استجابة لما يشيع في المجتمع من الازدراء للأم الغريبة ... فلتتغاير صور التعبير بصلة الأم ، كذكر الأهل في قول الأحيمر السعدي :(١)

أَلا حَبَّذَا الماءُ الذي قابَلَ الحِمى ... ومرتَبَعٌ مِنْ أهلِنا وَمَصيرُ

أو كقول أبي الطمحان :(٢)

ألا حَنَّتْ المِرْقالُ وائتبَّ رَبُّها ... تذكَّرَ أوطاناً وأذْكُرْ مَعْشَرِي

وقول السليك في خالته :(٣)

أشابَ الرَّأسَ أنّي كلَّ يومٍ ... أرى لي خالةً وَسْطَ الرِّجالِ
يَشُقُّ عليَّ أنْ يَلْقَيْنَ ضَيْماً ... وَيَعجَزُ عن تخلّصِهِنَّ مالي

وعلى الرغم من انجذاب الشاعر نحو علاقات جديدة فأنّه لم يتحول تماما عمّا تأصل بالمجتمع الجاهلي من اعتزاز بالأب ، وقد مرّ بنا بعض تلك الأشعار في ذلك . كما لا يقدم ما يكشف عن عاطفة الشاعر نحو والده كقول عروة لبني قومه منوّها بوهن والده :(٤)

أبا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بني ناشبٍ عنّي وَمَنْ يَتَنَشَّبُ
أكُلُّكُمُ مُختارُ دارٍ يَحلُّها ... وَتارِكُ هَدْمٍ ليسَ عَنْها مُذَنَّبُ

ومعنى البيت : أكل واحد منكم يختار دارا له جديدة ويترك دار أهله ؟

وكما في قول الشنفرى السابق :(٥)
أضَعْتُم أبي إذْ مالَ شِقٌّ وسادِه ...

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٢ . المرقال : اسم ناقته . ائتب : تهيأ للذهاب وتجهز .
(٣) السليك بن السلكة ، ص ٦٢ .
(٤) ديوانه ، ص ٢٥ .
(٥) الطرائف الأدبية ، ص ٣٥ ، ذكر في صفحة سابقة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومع أن الأمّ أعمق حسّا بهذا الواقع المؤلم من الأبن فإن الباحث لم يظفر بشيء من شعر الأمهات في أبنائهن الصعاليك الا على قول واحد لأم السليك في رثائه وهو قولها :(١)

طافَ يَبغِي نَجْدَةً مِنْ هَلاكٍ فَهَلَكْ
لَيْتَ شِعْرِي ضَلَّةً أيَّ شَيْءٍ قَتَلَكْ

وسبب هذه الندرة يعود إلى ندرة الشاعرات من أمهات الصعاليك أو ندرة ما قلنه من الشعر أو فقدانه .

(١) السليك بن السلكة ، ص ١٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأبنـــــــاء

ماعثر عليه من شعر الصعاليك في الأبناء قليل إذا ما قيس بغيره ، فديوان تأبط شرّا مثلا على غزارة ما يجمعه من الشعر وتنوعه يخلو جميعه عن الحديث عن الأبناء . كما يخلو من ذلك شعر الشنفرى ، ولا نكاد نجد له أثرا في شعر السليك سوى بيت واحد مختلف في لفظ اسم الأبن والبيت هو(:[1]

مَنْ مُبْلِغٌ حَرْبًا بأنّي مَقْتُولْ

حيث قيل بأن حربا اسم ابنه ، كما قيل بأنه محرف عن " حرمي " .

واذا ما صرفنا النظر عما ورد من معلومات عنهم من خارج دائرة الشعر فأنه يمكن تفسير هذه القلة بالقول بأن هؤلاء الصعاليك لم تمكنهم الظروف من الزواج ، اذ شعروا بانعدام الاستقرار ، كما شعروا بأن وجودهم مهدد وكأنه مؤقت ، أما الفقر والجوع والمطاردة فذلك مما يخلخل الحياة الأسرية ويجهضها .

لكن غياب الشعر في هذا الموضوع عند بعضهم لا يعني غيابه عن الجميع والقليل الذى استقصيناه يمكن أن يعطي تصورا عن نظرتهم لذلك ومدى تفاعل هذه القضية (الأبناء) في حركتهم .

أحس ذوو الأبناء من هؤلاء الشعراء - وهم يعيشون خارج مجتمعهم - بثقل مسؤولياتهم ، والتزاماتهم نحو أبنائهم ، فهم يشكلون وجودهم أو بعض وجودهم ، ولا يمكن الانفكاك عنهم - شأن الانفكاك عن المجتمع - لأن العلاقة هنا محكومة بقوانين طبيعية . والأبناء ذكورا أو اناثا يشكلون الامتداد العضوى لحياة الانسان أيا كان ماديا وروحيا ، ان لم تبرزها الاحساسات الواعية أظهرتها المشاعر غير الواعية .

إن هذه العلاقة عند عروة تعد القوة الفاعلة المحركة والموجهة لنشاطه ، يقول في ذلك :[2]

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ وَمُقْتِرًا ... من المالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أوْ يَصيبَ رَغيبةً ... وَمَبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرُهَا مِثْلُ مُنْجِحِ
لعلكمُ أنْ تَصْلَحُوا بعدمـــا أرى ... نَباتِ العِضاهِ الشائبِ المُتَرَوِّحِ

---

(١) السليك بن السلكة ، ص ٦٣ .

(٢) ديوان عروة ، ص ٤٠ . العضاة : شجر البر كالطلح . المتروّح : الذى استقبل البرد فوجد مسّه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهو مثال رب الأسرة الذى ينطلق من الإنسان النوع ، لا الإنسان العائل فحسب : (ومن يك مثلـــي) ، فانطلاقه كما يقول مشروعية جميع الأسر على أربابها . ويقول أيضا :(١)

خَاطِرْ بِنَفْسِك كَيْ تُصيبَ غَنِيمَـــةً ... إنّ القُعُود مع العِيالِ قَبِيـــحْ
المالُ فيه مَهابـــةٌ ، وَنَجِلّـــةٌ ... والفَقْـرُ فيه مَذَلّةٌ وَخُضُـــوعُ

وهذه المخاطرة التي أوشكت أن تمثل نظرته الفلسفية للحياة لم يُمْلِها عليه غير حبه للأبناء . والطريف هنا أنّ هذا الإحساس الأبوى ذو طابع ثورى إنساني ، يتجاوز نظرة الأب الخاصة ، الى النظرة المنطلقـــة الى أبناء الانسان النوع (خاطر بنفسك) والخطاب لكل إنسان .

ويقـــول (٢)

أَلَيْسَ وَرَائي أنْ أدُبّ على العَصَـــا ... فَيَشْمَتَ أَعْدائي ، وَيَسْأَمَني أَهْلـــي
رَهينةُ قَعْرِ البَيْتِ كُلّ عَشِـــيّةٍ ... يُطِيفُ بِهِ الوِلْدانُ ، أهدج كالرِّئْلِ

كما تتبدى هذه الروح الثورة (ولو بصورة غير واعية) في احتجاجات زوجته أو أفراد أسرته الذيـــن يتطلعون الى حياة من نوع آخر في البيتين السابقين ، وفي قوله أيضا :(٣)

وَيُقْصِيه النَـــدِيُّ وتَزْدَرِيـــــهِ ... حَلِيلَتُـه ، وَيَنْهَرُه الصَّغِـــيرُ

إن مشكلة الأبناء عمقت إحساس الشاعر بهذه الأوضاع المتضادة في المجتمع الواحد المتمثلة في غيـــاب الضرورى عن الأبناء ، وحضور الفائض للطرف المقابل ، يقول الأعلم :(٤)

وَذكَرْتُ أَهْلي بالعَـــــرا ... ءِ وحاجةَ الشُّعْثِ التَّوالِـــبْ
المُصْرِمين مِنَ التّـــــلا ... دِ اللامحين إلى الأقـــارب
وَبِجَانِبَيْ نَعَمَـــــانَ قَلّـــــتْ أَلِفْ تَبَلّغَـني ... مَـآرِبْ
دلجي اذا ما الليـــــل حســـــنّ على المغرّفة الحباحـــب
والحِنْطِئِ الحِنْطـــــيّ يَمْتَشِـــــج العَظيمـــةَ والرَّغائِـــبْ
حَتّى إذا فَقَـــــدَ الصَّبـــــوحَ يَقُولُ عيشٌ ذو عَقَـــارِبْ

---

(١) ديوان عروة ، ص ٤٣ ، .
(٢) ديوانه ، ص ١١٤ .
(٣) ديوانه ، ص ٩١ .
(٤) ديوان الهذليين، ص ٨٢ ، المُصرمين : المخفّين من الأبل . المقرنة : المتقاربـــة ، الحباحب : الصغار . الحنطي : ذو الحنطة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول الأعلم حين نزل ومعه بنون له برجل لم يلتفت لهم :(١)

تَرَوَّحْتْ حُبْشِيّاً فأتْرَحَ إلْدَنَـــــي ... كَمَا زُجِرَتْ عِنْد المَبارِكِ هِيمُهـــا
أحُبْشِيُّ إنّا قَدْ يَمَتَّعْنا الغِـــنىٰ ... بِأَمْوالِنا ، نُرِيحُها وَنُسِـــيمُهـا
وَنَحْبِسُها عَلَى العظائم نَتَّقِـــي ... بِها دعوةَ الدّاعِين إنّا نُقِيمُهـــا

المال اذن عنده ، وسيلة للصلة بينه وبين من يرتبط بهم نفسيّا ، وأداة يقوىٰ بها على الاستمرار عن طريق (الألدة) ، الذين سيودعهم خلائقه واختياره للمواقف في المجتمع .

وقوله (فنتقي ... بها دعوة الداعين) ، يشير إلى رغبة في إشاعة الخير لجميع النـــاس ليعيش الأبناء في واقع إنساني مناسب .

والمعلوك بوصفه أباً حريص على أن يكسب ابنه ثمرة تجاربه في الحياة ، وكأنه يلتمس عـــزاء ماضيه بمستقبل زمانه (ابنه) ، هذا أبو الطمحان القيني يقدم لابنه مما امتلأت به نفسه من الثقـــة بالنفس وعزة الحكماء قائلا :(٢)

بُنَيَّ إذا ما سامك الذّلّ قاهِـــرٌ ... عَزِيزٌ ، فَبَعْضُ الذُّلِ أبقى وَأَحْـــرَزُ
وَلا تَخْمَ مِنْ بَعضِ الأُمورِ تَعـــزُّزا ... فَقَدْ يُورِثُ الذلّ الطويـلَ التّعـزُّزُ

وهذا أبو كبير / عامر بن الحليس يؤدى لابنته / زهير ما يهديه اليه فهمه وما تمليه عليه رؤيتـه ، فيقـــول :(٣)

أزُهَيْرَ إن يُصْبِحْ أبوكِ مُقَصِّـــرا ... طِفْلاً يَنُوءُ إذا مشى لِلْكَنْكَـــلِ
يَهْدِي العَمودُ له الطريقَ اذا هُـــمُ ... طَعَنُوا وَيَعْمِدُ للطريقِ الأسْـــهَلِ
فَلَقَدْ جَمَعْتُ من الصِّحاب سَـــرِيّةً ... خدبا لِداتٍ ، غَيْرِ وخْشٍ سُـــخَّلِ
سَجَراءَ نَفْسي غَيْرَ جَمْعِ أشَـــابَةٍ ... حُشْداً ، ولا هُلْكِ المفارشِ غُـــزَّلِ
لا يُخْفِلون عن المُضافِ ولـــو رَأوْا ... أُولىٰ الوَعاوِعِ كالفطاطِ المُقبِـــلِ
يَتَعَطَّفُونَ على البطيءِ تَعَطُّـــفَ الـ ... عوذِ المطافِـلِ ... في مناخِ المَعْقِلِ

---

(١) شرح أشعار الهذليين ، ص ٥٥ . أترح : أحزن . والمعنى أنه منع أطفاله من القرى كما تطـــرد الابل التي بها الهيام (مرض معد) عن مبارك الضحاح .

(٢) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ٩٣ .

(٣) ديوان الهذليين ، ص ٩٠ ، ج ٢ . الأخدب : الأهوج . السخل : الضعاف . سجراء نفـــي : خاصتها . أولى الوعاوع : المغيث في القتال .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأحسب أن هذا الذى يقوله أبو كبير في النص السابق لابنته هو من قبيل التوجيه لها لأداء دورها في تنشئة أحفاده ، وإلّا يكن ذلك فما الدافع لوصف ما كان عليه أصحابه من البأس والشكيمة ومواجهة الأعداء بالقوة .

والمملوك كغيره من الناس يهتز لفقد الولد ، وقد يعوزه ساعتئذ ما كان روّض نفسه عليه من جلد وكبرياء على المصائب ، لكنه سرعان مايحوّل إيقاع الحزن إلى حكمة ، وفقدان الولد إلى قيمة (الصبر) . قال صخر الغي يرثي ابنه تليدًا :(١)

أَرِقْتُ فَبِتُّ لم أَذُقِ المَنامـــــا ... وَلَيْلِي لا أُحِسُّ لَهُ انْصِرامـــــا
لَعَمْرُكَ والمَنايا غالِبـــــاتٌ ... وَمَا تُغْنِي التَّمِيماتُ الحِمَامـــا
إلى جَذث بجنب الجَوِّ رَأْســـي ... به ما حلّ ، ثَمَّ به .... أقامـا
أرى الأيّامَ لا تُبْقِي كَرِيمـــــاً ... وَلا العُصْمَ الأوابِـذ والنَّعامَـــا
وَلا عِلْجانِ يَنْتَابانِ رَوْضـــــاً ... نَضِيرًا نَبْتُـــه عُمَّاً تؤامـــا

وبمثل هذه التجربة يواجه أبو خراش الهذلي هذه المصيبة فيقول :(٢)

فَواللهِ مَا أَنْسَى قَتِيلاً رُزِئْتُـــه ... بِجانِبِ قُوْسي ، ما مَشَيْتُ على الأَرْضِ
على أنّها تَعْفُو الكُلُومُ وإنّمـــا ... تُوَكَّلُ بالأدنى ، وإنْ جَلَّ ما يَمْضِـي
ولَمْ أدرِ من أَلْقَى عليـــه رِداءَهُ ... ولكنّه قَدْ سَلَّ مِن ماجِـدٍ مَحْـضِ
وَلَمْ يَكُ مَثْلُوجَ الفُؤادِ مُهَيَّجـــاً ... أضاعَ الشَّبابَ في الرَبيلةِ والخَفْـضِ
ولكنّه قَدْ نازَعَتْـــهُ مَخامِـــصٌ ... على أنه ذُو مِرَّةٍ صادقُ النَّهْـــضِ

وهكذا يلتمس الشاعر العزاء والمعوّض النفسي عن ولده فيما كان يتصف به الأبن من خلال أصيلـــة انحدرت إليه من آبائه ، كالشجاعة والجلد على الشدائد ، والانطلاق في المهامة وجُوْب آفاقها .

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٦٢ .

(٢) ديوان الهذليين ، ص ١٥٩ . مثلوج الفؤاد : ضعيف الفؤاد . متهيّج : طائش . الربيلـــة والخفض : الدعة والترف . المخامص : المجاوع الشديدة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإخوة والرفـــــاق

لا يخفى ما لعلاقة الأخوة في حياة البشر من التأثير في توجيه أفراد المجتمع، فهي بدايـــــة الصيغة التي تؤلف الجماعة بعد الأبوين . على أن هذه العلاقة - وهي هبة الطبيعة - يحكم تألقهـــا ظروف وأحداث . فهي مثلا في حالة الازدهار الحضاري، والتقدم الفكري ووجود السلطة المركزيـــة أخفى فيهـــا في المجتمعات المتأخرة وفي فوضوية الحكم . وهي كذلك في حالة الدعة والأمـــن أقل ظهورا منها في حالات الضيق والفقر والتناحر .

والحياة الجاهلية بشكل عام لما اتسمت به من افتقاد السلطة المركزية، والجذب، وكثرة الحروب الناجمة عن التناحر على الانتجاع ... اقتضت تعزيز هذه العلاقة، وبها اشتد عود القبيلـــة وتماسك نفوذها . فهل احتلت هذه العلاقة (الأخوة) نفس المكانة في أنفس الصعاليك ؟

إن بنية الصعاليك لم تخضع لما خضعت له القبيلة من حيث الاعتداد بموقع الأخ، لأن انتمـــاء الصعلوك إلى قوى اجتماعية أخرى وقع في أنفسهم في أكثر الأحيان موقع الأخوة أو أكثر . وهـــذه القوى هي التي شاركته في مصيره وفي البحث عن حل مشكلاته الأساسية بين فقر وجوع ومطاردة، فكان هذا الانضمام وهذا التوافق على اختيار نمط الحياة شاغلا له عن علاقة الأخوة النسبية . وما فاته مـــن تواصل أخوي فله ما يعوضه عنه .

يقول عروة : (١)

فإنّي وإيّاكُمْ كَـذِي الأمّ أرْهَنَـــتْ ... لَهُ ماءَ عَيْنَيْها ، تُفَدّي وَتَحْمِـــلُ
نُخَيّرُ مِنْ أمْرَيْنِ ليســـا بِغِبْطَـــةٍ ... هُوَ الثّكْلُ ، إلّا أنّها قد تَجَمّـــلُ

ويقول الشنفرى في صاحبه : (٢)

وأمّ عِيالٍ قَدْ شَهِدتُ تَقُوتُهُـــــم ... إذا أطْعَمَتْهُم أوْتَحَتْ وَأفَلّـــــتِ
تَخَافُ عَلَيْنا العَيْلَ إنْ هِيَ أكثَـــرَتْ ... ونَحْنُ جِياعٌ ، أيّ آلٍ تَأَلّـــــتِ
وما إنْ بِهَا ضِنّ بما في وِعائِهـــــا ... وَلكنّها مِنْ خيفَـــةِ الجُوعِ أبْقَـــتِ

---

(١) ديوانه، ص ١٢٢ .
(٢) المفضليات، ص ١١١ . أراد بأم عيال : تأبط شرا . أي آلٍ تألت : أي سياسة ساست . ضِـنّ : بخـل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وصاحب تأبط شرا بمنزلة الأخ كما يقول :(١)

فَلَوْ نَبَّأَتْنِي الطَّيْرُ أَوْ كُنْتُ شَاهِداً ... لآسَاكَ في البَلْوى أَخٌ لَكَ ناصِحُ

إن هذا التحول إلى جماعة ذات طابع إنساني جديد ، لم تألفه الحياة الجاهلية ، وهذا النبض الجديد يُعدّ ظاهرة مغايرة تماما لما عرف في عصرهم . فما طبيعة هذه العلاقة ، وما هي تصوراتهم لمستوياتها ؟

يقع حديثهم عن هذا في بؤرتين :

الأولى يحتل فيها الصاحب مكانة الأم ، باعتباره رمزا للعطاء بلامنّة . أما الأخرى فتمثل الصاحب بالبطل الذى يدرك أنه ميت ، ولكنه يقتحم الموت في سبيل ما يتعشقه من قيم .

يمثل الأولى عروة وأبو كبير والشنفرى ، ويمثل الثانية أبو خراش وتأبّط شرا وصخر الغي .
ولا نعني أن هذا التقسيم له صفة الثبوت ، فما من شاعر من المجموعتين الا ولج المجالين ، وسار على الطريقين في بعض الأحيان .

أحسّ أبو كبير وهنا مُؤْذنا بالأجل ، لكن حضور أصحابه قد شكل امتدادا جديدا للحياة فيخاطب ابنته زهيرا قائلا لها :(٢)

يَتَعَطَّفُونَ على البَطِيءِ تَعَطُّفَ العَـ ... ـوِدِ المطافِلِ في مُناخِ المَعقِلِ

والشاعر فيما سبق لا يؤكد صفاء العلاقة فحسب ، ولكنه يضع الحل الذى يُواجَه بن الزمن .

ويقول أبو كبير : (٣)

يَحمي الصِّحَابَ إِذَا تَكونُ كَرِيهَةً ... وإِذا هُمُ نَزَلوا فَمَأْوَى العَيَّلِ

وقد تقدم ما قاله عروة والشنفرى في هذا المجال في الورقة السابقة .

أما البؤرة الأخرى فقد ركز فيها الشاعر على استمثار أرفع القيم لإثراء دلالة الصداقة . وأنه ليمكن الاعتقاد بأن عجز القبيلة عن وضع الحلول المناسبة لمشكلات الصعاليك كان الموجه الأول لتكوين هذه العلاقة .

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ٨٣ .
(٢) ديوان الهذليين، ص ٩٠ ، ج ٢ . العوذ : ذات الولد الصغير . مطافل : ذات أطفال .
(٣) ديوان الهذليين، ج ٢ ، ص ٩٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما صاحب أبي خراش فهو :(١)

سَمْحٌ مِنَ القَوْمِ عُرْيانٌ أَشَاجِعُهُ ... خَفُّ النَّواشِرِ مِنْهُ والظَّنابيبُ

أي ليس بكثير اللحم .

وتجتمع في صاحب أبي كبير صفات تكاد تكون طقوسية ذات طابع أسطوري ، من حيث تفرده بهذه الصفات في قوله :(٢)

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ ... حُبُكَ النِّطَاقِ ، فشبَّ غَيرَ مُهَبَّلِ
حَمَلَتْ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ ... كَرْهًا ، وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ

ويقول صخر الغي بصف صاحبه :(٣)

مَعِي صاحِبٌ داجِنٌ فِي الغُزَاةِ ... وَلَمْ يَكُ فِي القَوْمِ وَغْلاً ضَعِيفَا
وَيَغْدُو كَعَدْوِ كُدَيْرٍ تَرَى ... بِغَائِلِهِ وَنَسَاهُ نُسُوفَا

ومن غريب ما صوره الصعاليك لأصحابهم هذا القول لمالك بن الحارث للذين غزا بهم بني جذيمة :(٤)

كَرِهْتُ بَنِي جُذَيْمَةَ إِذْ تَرَوْنَا ... قَفَا السُّلْفِيِّمِنْ وانْتَسَبُوا فَبَاحُوا
فأما نِصفُنا فَنَجَا حَرِيصًا ... وأَمَّا نِصفُنا الأَوفَى ، فَطَاحُوا
وَقَدْ خَرَجَتْ قُلُوبُهُمُ فَمَاتُوا ... على إِخوانِهِم ، وَهُمُ صِحَاحُ

وهكذا منح الشاعر أصحابه صفات متميزه من البطولة والتضحية ، ونقاء السريرة .

وفي تتبع أعمالهم الشعرية في هذا المجال ما يكشف عن التزامهم التام بروابط الصحبة ، وقسع تأبط شرا في مأزق كان الثبات فيه يعني الاقتلاع من الحياة ، دون أن يكون فيه أدنى أمل لإنقاذ صاحبه - والانسان مهما بلغت قدراته لا يطلب منه غير الممكنات ، وليس عيبا أن يتراجع عن موقع يشخص فيه هلاكه على وجه يقيني . يقول تأبط شرا في موقف كهذا :(٥)

تَقُولُ تَرَكْتَ صَاحِبَاً لَكَ ضَائِعًا ... وَجِئْتَ إِلَيْنَا فَارِقًا متباطِنَا
إِذا ما تَرَكْتُ صاحِبي لِثَلاثَةٍ ... أو اثنين مثلِيْنا فلا أَبْتَ آمِنَا

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ١٦١ ، عريان أشاجعه : قليل اللحم . النواشر : عصب الكف . الظنابيب : جمع ظنبوب : حرف الساق اليابس .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ .
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٨١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وَمَا كُنْتُ أَبّاءً على الخِلِّ إذْ دَعَـــا وَلاَ المرءِ يَدْعُونِي مُمِرّاً مُرَاهِنِـــا

ويقول تأبط شرا :(١)

جَزَا اللهُ فِتْيَاناً على العَوْصِ أَمْطَرَتْ سَمَاؤُهُمُ تَحْتَ العَجَاجَةِ بِالـــدَّمِ

وتتحقق هذه الصفات روحاً وجسداً في صاحب أبي خراش :(٢)

بِصاحبٍ لا تزالُ الدَّهرَ عِزَّتُـــــهُ إذا أُفْتُلِـيَ الهَدَفَ القَيْنُ المعازيبُ

ولعل تأبط شرا والشنفرى هما أكثر من نمّى هذه العلاقة واقعا ومثالا والصداقة عند تأبط شـــرا ليست إشفاقا أو مجاملة طارئة ، لكنها موقف والتزام :(٣)

إني اذا خُلَّةٌ ضَنَّت بِنائِلِهـــا وأَمْسَكَتْ بِضَعِيفِ الوَصْلِ أَحْـــدَاقِ
نَجَوْتُ مِنْها نَجائِي من بَجِيلَةَ إذْ أَلْقَيتَ لِيلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أَوْرَاقِـــي
وَلاَ أَقُولُ إذا ما خُلَّـةٌ صَرَمَـــتْ يَا وَيْحَ نَفْسِيَ مِنْ شَوْقٍ وإِشْـــفاقِ

فهو اذ يفرّ من الصحبة التي لا تقوم على الصفاء فراره من عدوه بجيلة ، لأنه لم يكن مندفعا إليهـــا بفاعلية مادية ، ولكن بما سكن في نفسه من القيم . وعلى هذا المبدأ سار الشنفرى الذى يقول فـــي صاحبـــه :(٤)

إذا هَمّ لَمْ يَحْذَرْ من اللّيلِ غُمَّـــةً تُهابُ وَلَم تَصعب عَلَيْهِ المَراكِبُ

وهذا مرة بن خليف الفهمي يصور بهذه الأُرجوزة تلك القيم ، ويجعل من جماعة الصعاليك فرســـانا لهـــا :(٥)

يا ثابِتَ الخَيْرِ وَيَا ابنَ الأَخْنَـــسِ
وَيَا (ابنَ بَرّاق) الكريمِ الأَشْـــوَسِ
و (الشَّنْفَرَى) عِنْـدَ صَوْنِ الأَنْفُـــسِ
أنا ابنُ حافي الشَّربِ فـي المُغَمَّـــسِ
نَحنُ مَساعِيرَ الحُـــروبِ الضُّـــرَّسِ

---

(١) ديوانه ، ص ٢٠٦ .
(٢) ديوان الهذليين ، ص ١٥٩ .
(٣) ديوان تأبط شرا ، ص ١٢٩ .
(٤) الطرائف الأدبيـة ، ص ٣٣ .
(٥) الأغاني ، ص ١٨٢ ، ج ٢١ . ما في الشّرب في المغمس : يرمي نفسه في الحرب والقتال .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد تمثلت هذه العلائق خارج حدود الحياة كما هو الحال في مراثي تأبط شرا للشنفرى ولغيره .(١)

ولا نكاد نجد ما يخرج عن هذا الاتجاه في التواصل المتين سوى ما حدث لقيس بن الغيزارة الذى وقع أسيرا في يد " فهم " قبيلة تأبط شرا وأخذ الأخير سلاحه ، مما اضطر قيسا أن يقول في ذلك معاتبا :(٢)

سَرَى ثابتٌ بَزّى ذَميما وَلَمْ أكُنْ سَلَلْتُ عليه شَلَّ مِنّي الأصابِعُ

ولعل هذا الحادث وقع قبل أن يخرج تأبط شرا عن قبيلته ويتصعلك . وهكذا احتلت هذه العلاقة في حياة هذه الجماعة مركزا انجذبت إليه قيم أخرى يتحقق بها إنسان الصعاليك .

أما عرى الأخوّة النسبية فلم تختف عندهم ، على الرغم من خروجهم وانفصامهم عن لحمة القبيلة والأقارب ، وتشكيل انتماءات جديدة ، وأكثر ما تبرز هذه الأخوة عند موت أحد الإخوة ، إذ نحس آثار التهدّم بفراقه ، فيعبر عن هذه اللحظات الراعشة بالألم ، لكن الشاعر لا يفتأ أن يستفيق من الفاجعة ، بجعل الحياة متغلبة على الموت . وأن تلك الحياة لا تنتهي بانتهاء الجسد . كقول قيس بن العيزارة في رثاء أخيه الحارث :(٣)

فَسَقَى الغَوادِي بطنَ مَكّةَ كُلّها وَرَسَتْ بِهِ كلَّ النّهارِ تَجُودُ
وإذا جَبانُ القَومِ صَدّقَ حَبضُ القِسِيِّ وضربةٌ أخْدُودُ
ألْفَيْتَه يحمي المُضافَ كأنّه صَبْحاءُ تَحْمِي شِبْلَها وَتَحِيدُ
صَبْحاءُ مُلْحِلَمَةٌ جَزيمةُ واحدٍ أسِدَتْ وَنازَعَها اللِّحامَ أسُودُ

وقول أبي كبير في رثاء أخيه :(٤)

وَلَرُبَّ مَن دلّيتُه لِحَضيرةٍ كالسَّيْفِ مُقْتَبِلَ الشَّبابِ مُحَبَّرِ
ثُمَّ انصَرَفْتَ ولا أبُثّكَ خَيْبَتي رَعِشَ الجَنانِ أطِيشُ فِعلَ الأصْوَرِ

---

(١) مر ذلك مرتين في ديوانه ، ص ٧٨ . على الشنفرى سارى الغمام ... الخ ، وأيضا في القصيدة التي مطلعها : أبعد قتيل العوص آسى على فتىً . ديوانه ، ص ١٢١ .
(٢) معجم الشعراء ، ص ٢٠٢ .
(٣) ديوان الهذليين، ص ٧٥ ، الحبض : وقع الوتر . أخدود : شق في الأرض . صبحاء : لبؤة بين البياض والحمرة . جريمة : كاسية . أسدت : كلبت .
(٤) ديوان الهذليين جـ ٢ ، ص ١٠٢ . محبّر : مزين . حيبه : سوء الحال . أصور : ميول في الأخلاق .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقول صخر الغـــي يرثي أخاه أيضا : (١)

أَخِي لَا أخاً لِي بعدَه سَبَقَتْهُ بـــــه مَنيّتُهُ جَمْعَ الرُّقَيْ والطَباطِـــــبِ
وذلك مِمّا يُحْدِثُ الدهـــرُ إنّـــــهُ له كلَّ مَطْلوبٍ حثيثٍ وَطالـــــبِ

هكذا تبدو الأخوّة النسبية في الغالب موصولة بالقيم التي تمثل نقطة الالتقاء لجماعـــــة الصعاليك في العصر الجاهلي .

كما أن علاقة الصداقة (التشكل الجديد) ، تقدم صورة حية لبداية انطلاق ثورة ضد الســـائد في المجتمـــــع .

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٢/٥٣ . الطباطب : الأطباء .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجـــــار

إن معظم ما أنتجه شعراء الصعاليك في هذا المجال يكشف عن عضوية هذه العلاقة أعني أنـــــه بالنسبة لهم يشكل جزءا من مكوّنات حياتهم الأساسية مادة وروحا ٠

وإن هذه العلاقة من جانب آخـر لم تأت وليدة أنظمة فرضت عليهم من المحيط الخارجي، ولكنهـا انبثقت من الداخل مع سائر قيمه الروحية وقد سلكوها بين قضاياهم المصيرية ٠

فهي عند عروة لا تكاد تفارق حضوره الشعرى استجابة لطبيعته الخيّرة ٠

إن جار عروة جزء من ذاته، وهو موضع عنايته في جميع أحواله : من صحة ووهن، وســـــمـوّ وارتكاس، ولا جناح على عروة اذن أن يدخله في حرم أسراره المرعية :(١)

وَلا يُسْتَضامُ الدّهرَ جـــارِي وَلا أرَى كَمَنْ بَاتَ تَسْـرِي للصَّديق عقاربُـهْ
وإنْ جارَتي أَلْوَتْ رِياحُ بُيُوتِهـــــا تَغَافَلْتُ حَتّى يَسْتُرَ البَيْتَ جانِبُـهْ

ومما يؤكد محاولة الشاعر أن يخلق من هذه العلاقة طقسا روحيا قوله :(٢)

فإن حَمِيتَـنَـا أبَـداً حَـــــرامٌ ولَيْس لجـــارِ مَنْزِلِنـــا حَمِيتُ

وكذا قولُـــه :(٣)

قَدْ حَانَ قِدحُ عِيالِ الحيِّ إذْ شَـــبِعُوا وآخَرُ لِذَوِي الجِـــيرانِ مَمْنُـــوحُ

ويقول أيضا : (٤)

فإذا غَنِيت فإن جارِى نَيْلُـــــهُ مِنْ نائِلِـي ، وَمَيَسَّـرِى مَعْهُـود

---

(١) ديوانه ، ص ٣٠ ٠
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٤ ٠ الحميت : السقاء يرب جيدا ثم يوضع فيه السمن ٠
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٤٤ ٠ القدح : سهم الميسر ٠
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول :(١)

فَلا أَنْتَمِي إلاّ لِجارٍ مُجَـــــاوِرٍ فَما آخِرُ العيشِ الذى اَتَنَظَّـرُ ؟

وهكذا يقف عروة من الجار ، وقفة زاهد في الحياة ترقبه عين الله في كل ما تمتد اليه يده ، وما عـــين الرقابة لعروة سوى عين جاره التي تخترق أعماقه .

وكثير من هذه المواقف نراها في شعر غيره من الصعاليك ، كما رأيناها في شبكة العلاقـــات الأخرى . فالشنفرى مثلا لا يضع أفكاره ومشاعره لتقديم الصورة المثالية لجارته ولكنه أيضا يضـــع رؤاه الجميلة لصياغة هذا المثال سواء كان ذلك من عالم الوهم أم تحصيل الواقع كما في قصيدتـــه التائيـــة :

فَيا جَارَتا وَأنْتِ غَـــيْرُ مُليمَـةٍ ...(٢)

إن هذه المودة للجار التي تصل إلى درجة القداسة ، وهذا الموقف المتمثل بإدخال الجار فـــي إطار الدفاع عن الذات ، كان لانبتـــات الشاعر عن قبيلته غير مختار دخل في تشكيلة تعويضا عمـــا افتقـــده .

وربما كان يحمل في طياته دعوة خفية لتعبئة الرأى العام لدى الصعاليك الذين يعيشون رهـــق الذل والعبودية في كنف سادتهم ليأخذوا مكانهم في صفوف إخوانهم .

كما لم يشاؤوا أن يفرّغوا ما يحسون به من أثر الاستغلال والمطاردة في قصائد مدحية ، فيحملوها على الناقة أو الفرس إلى الممدوحين كما فعل شعراء المديح . ولكن شاعرهم يحوّل هذه المشكلـــة الكبيرة إلى مجموعة من القيم ، بعضها يشكل هجوما على متخذي قرارات المطاردة ، وبعضها تشـــق طريقها للفئات المظلومة لترتفع بمكانتهم إلى رتبة الإنسان الصعلوك المتمرد على ذلك الواقع .

قُتِل جارُ أبي جندب ، فأحس بطغيان المأساة ، فالتمس العزاء في هالة من القداسة الدينيـــة ، حيث خرج حتى قدم مكة واستلم الركن وجعل يصيح :(٣)

إني امْرُؤٌ أبْكي عَلى جارِيَـــــهْ أبْكي على الكَعْبَيْنِ والكَعْبِيَـــهْ
وَلَوْ هَلَكْتُ بَكَيْـــتَا عَلَيْـــهِ كانَا مكانَ الثوبِ مِن حِقْوَيْـــهْ

---

(١) ديوان عروة ، ص ٧٩ . مجاور : يقول إني جاره ولا أحتاجه .
(٢) ذكرت هذه القصيدة في موضوع " علاقة المرأة " ، ص ٦ ، ومصدرها المفضليات ، ص ١٠٩ .
(٣) ديوان الهذليين ، ص ٨٦ / ٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالحفاظ على الجار يأتي في مقدمة ما يسكن نفس الصعلوك من القيم . وأن أول ما بكاه أبو خراش في رفيق حياته أنه :(١)

" وَلا يَجْثُو بِهِ جارُه عامَ يُمْحِلُ "

أما أبو الطمحان فيتولّه ظمأ روحيا للجار الذى يحلم به ، ولكنه يرتد أسفا فيقول :(٢)

أَجَدَّ بَني الشرقيّ أولَجَ أنّني ... مَتى أَسْتَجِرْ جاراً وإنْ عَزَّ يَغْدُرِ
إذا قُلْتُ أَوْفَى أَدْرَكَتْهُ دَرُوكَةٌ ... فَيا مودِعَ الجيرانِ بالغَيِّ أقْصِرِ

وكثير من هذه القيم نجدها في شعر سائر الصعاليك ، فالسليك يعرف بجارته قائلا :(٣)

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباءُ تَنْمِي ... لَنِعْمَ الجارُ أُخْتُ بَني عِوَارا
مِنَ الخَفِراتِ لَمْ تَفْضَحْ أباها ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِأُخْوتِها شَنارا

وقد يطوى الحديث عن الجارة في تضاعيفه شيئا من اتودد للمرأة وبعض أوصافها الحسية ، لكنه لا يهدد جوهر العلاقة ضمن إطار القيم التي ينشرها كقول السليك :(٤)

كأنّ مَجامِعَ الأردافِ مِنها ... نَقِيٌّ دَرَجَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ هَارا
يَعافُ وِصالَ ذاتِ البَيْنِ قَلْبي ... ويتّبِعُ المُمَنَّعَةَ النِّوارا

وكما في قول قيس بن الحدادية :(٥)

وَقَدْ جاوَرَتْنا في شُهورٍ كَثيرةٍ ... فما نَوَّلَتْ واللهِ راءٍ وَسامِعُ
كأنّ فُؤادي بين شِقّينِ مِنْ عصًا ... حِذارَ وُقوعِ البَيْنِ والبَيْنُ واقِعُ

وهكذا تكشف أشعارهم في الجوار لا عن مجرد علاقة بين أفراد ، ولكن عن نفس مسكونة بالقيم التي خلت مكان ذلك الشعور المترسب في أعماق اللاوعي الناشيء عن خنق حرياتهم وطمس آرائهم ، كما تعكس أيضا رؤية الشاعر وتصوره لما ينبغي أن تكون عليه انساق العلاقات في ظل الجوار .

---

(١) معجم ما استعجم / البكرى ، جـ ٢ ، ص ٥٣٠ .
(٢) الأغاني ، جـ ١٦ ، ص ٦٩ ، (بولاق) .
(٣) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥٥ .
(٤) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥٥ . النقيُ : الكثيب من الرمل . هارا : سقط وتهدم . النّوارا : المرأة النفور من الريبة .
(٥) الأغاني ، جـ ١٤ ، ص ١٥٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المـــــرأة

على الرغم من اختلال حياة الصعاليك داخل المجتمع ، فذلك لم يحل بينهم وبين علاقاتهـــــــم الخاصة واقعا وحلمـــا .

أحاديثهم في المرأة تعكس رؤى كثيرة مستمدة من حالاتهم النفسية المضطربة بما فيها من غضب وخوف وشوق وميل للعنف ، وغير ذلك . ومن أبين هذه الرؤى التجرد عن الجسدية والعالم المـــادي ، والارتقاء الى عالم القيم كالاستمرار في مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة العطاء ، سواء كان الحديـــث عن زوجة يسكن اليها ، أم يطمح فيها ، فيرسم مثالا لها ، وسواء كانت أمرأة حقيقية أم رمزا لما يهجس في نفسه من مطالب .

وقد ارتبط ذكرها كثيرا في مواقف الانفعالات القوية كالشعور بالخوف والقلق أثناء مواجهـــة الخطر ، كقول عروة :(١)

أُقِلّي عَلَيّ اللّوْمَ يا ابنةَ مُنْـــذِرٍ ... وَنامي ، فإنْ لَمْ تَشْتَهي النّوْمَ فاسْهَرِي
ذَرِيني وَنفسِي أمّ حسّانَ إنّـــني ... بها قبل أن لا أملكَ البَيْـــعَ مُشْـــتَرِي

وعلى هذا النحو يمضي عروة في اعتذاراته لرســـم نفسه مثالا للإنسان من خلال الشكوى من أمّ حســـان ، قائلا :(٢)

أرى أمّ حسّانَ الغداةَ تَلُومـــــــني ... تُخَوّفُني الأعْداءَ ، والنّفسُ أخْـــــوَفُ
تقولُ سُلَيمى : لو أقَمْتَ لَســـرّنا ... وَلَمْ تدرِ أنّي لِلْمُقامِ أُطَـــــوّفُ
لَعلّ الذي خوّفتِنـــا مِنْ أمامِنـــا ... يُصادِفُه في أهلِـــه المُتَخَـــوّفُ

وعروة كثيرا ما يمنح هذه القيم التي ينشرها الخصب عن طريق ربطها بالمرأة كقوله :(٣)

وَيَدْعوتَني كَهْلاً وَقَدْ عِشْـــت حِقْبَـــةً ... وَهُنّ عَن الأزْواجِ نَحْـــوى نَـــوازِعُ
فَما شابَ رَأسِي عَن سنينٍ تَتابَعَـــتْ ... طِوالٍ ، وَلكنْ شـــيّبَتْهُ الوَقائِـــعُ

لا نقول بأن عروة وسواه من الصعاليك قد انفردوا في مواجهة الصعاب دون الشعراء الجاهليين ، ولكنمـا الأمر في اختلاف عمق الشعور بذلك من جهة ، وفي احلالها في صور متنوعة ، فهي تارة في مرقبـــة ،

---

(١) ديوان عروة ، ص ٦٦ .
(٢،٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٠ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وتارة أخرى في حيّن كما سبق أو في المرأة كما سنرى هنا . وقد تخترق كل غال وجميل وتتجاوز العالم المادّي المحسوس :(١)

فِراشي فِراشُ الضَّيْفِ والبَيْتُ بَيْتُـــه ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْـــهُ غَزَالٌ مُقَنَّـــعُ

كما يتمثل هذا الإحساس بفاعلية الذات بقول السليك :(٢)

هَزِئَتْ أُمَامَةُ أَنْ رَأَتْ بِي رِقَّـــةً ... وَنَمَا بِهِ فَقْمٌ وَجِلْـدٌ أَسْـــوَدُ
أُعْطِي إِذا النَّفْسُ الشُّعَاعُ تطلّعَـــتْ ... مالي ، وأُطْعَنُ والفوارسُ تُرْعَـــدُ

فالشاعر يريد أن يكشف عن معدنه في أن غيره لا يضاهيه ، كما يريد أن يرفع احساسه بـ " الأنا " في مواجهة الهرم والشيب وأمارات الانقراض من خلال حديثه عن المرأة .

وفي موقف آخر يصل إلى غرضه المتمثل في أن الانسان يقوّم بفعاليته لا بمظهره ، وذلك عن طريق إثارة اعجاب المرأة به قائلا :(٣)

أَلا عَتِبَتْ عَلَيَّ فَصارَمَتْنِـــي ... وَأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمِ الطِّـــوَالِ
فإني يا ابنةَ الأَقْوامِ أُرْبِـــي ... على فِعلِ الوضيءِ مِنَ الرِّجَـــالِ

كما يقول في تجسيد هذه المعاني من خلال حديثه عن المرأة : (٤)

تُحَذِّرُنِي أَنْ أَحْذَرَ العامَ خَثْعَمـــا ... وَقَدْ عَلِمت أَنِّي امْرُؤٌ غَيرُ مُسْلِمِ
وَما خَثْعَمٌ إِلاَّ لِئَامٌ أَذِمَّـــةٌ ... إِلى الذُّلِّ والأَشْخاصِ تَنْمِي وَتَنْتَمِي

فهو اذ يتحدث مع المرأة يحمّل كلامه ما يفاخر به غيره من القيم التي تناهض اللؤم والذل والخلق الذميم .

وعلى نفس الطريق يمضي تأبط شرا ، إذ ما يكاد يفتتح حديثه بالمرأة حتى يسدل عليه

---

(١) ديوان عروة ، ص ١٠١ .
(٢) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥٠ . الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى . الشعاع : المترددة .
(٣) شعر السليك بن السلكة ، ص ٦٠ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الستار ، ليعرض نموذج البطولة ، الذى لا يضارعه فيه مدع بقوله :(١)

أَلاَ هَلْ أَتَى الحَسْناءَ أَنَّ حَلِيلَهـــا ... تَأَبَّطَ شَرّاً ، واكْتَنَيْتُ أَبَا لَهَـــبْ
فَهَبْهَا تَسَمَّى اسْمِي وسَمَّايَ اسْمَه ... فَأَيْنَ له صَبْرِي على مَعْظَمِ النُّـــوَبْ
وَأَيْنَ لَهُ بأْسِي كَبَأْسِـــي وَسَوْرَتِي ... وَأَيْنَ لَهُ في كلِّ فَادِحَةٍ قَلْـــبِي

فتأبط شرا ذو طاقة لا تؤثر فيها الخطوب ، بل تزيدها غنى وتحدّيا . ويردد هذه الخصال مرة ثانيـــة منطلقا من حديثه عن المرأة بقوله :(٢)

أَلَمْ تَشِلِ اليومَ الحُمُولُ البواكرُ ؟ ... بَلَىٰ ، فَاعْتَبِرْ صَبْرًا ، فَهَلْ أَنْتَ صابِرُ
وَشَاقَتْكَ هِنْدٌ يومَ فارَقَ أَهْلَهـــا ... بِها أَسَفاً ، إِنَّ الخُطُوبَ تُغَـــادِرُ
فإِنْ تَطْرِمِيني أو تُسِيئي لِعِشْـــرَتي ... فإِني لَصَرَّامُ القَرِينِ ، مُعَاشِـــرُ

واذا كان الحب كما يقول سقراط : " ليس هو البحث عن القسيم مطلقا ، بل البحث عن القسيم الخـيّر الجميل " (٣) فان هذا الخير الجميل كما يبدو في كثير من شعر الصعاليك هو القيم التي يحملهـــا الصعلوك ، كالصبر على مطالب الجسد ، والكفاح من أجل حياة أفضل . من ذلك قول تأبط شرا :(٤)

أَلاَ عَجِبَ الفِتْيانُ مِنْ أُمِّ مالِـــكٍ ... تَقُولُ : لَقَدْ أَصْبَحْتَ أَشْعَثَ أَغْـــبَرا
قَلِيلَ الأَدَاءِ ، والحَلُوبَـةِ بَعْدمـــا ... رَأَيْتُكَ بَرّاقَ المَفارِقِ أَيْسَـــرا
فَقُلْتُ لها : يَوْمٌ وَيَوْمٌ إِقامَـــةٍ ... أَهَزُّ به عَضْبًا مِنَ البانِ أَخْضَـــرَا
وَيَوماً أَهُزُّ السَّيْفَ في جِيدِ أَغْيَـــدٍ ... لَهُ نَشْوَةٌ لَمْ تَلْقَ مِثْلِـــيَ أَنْكَـــرا

ولعل في قصيدته العينية (وقالو لها : لا تنكحيه) ؟(٥)

وفي قصائده الأخر التي يتحدث فيها عن الغول ، ما يقرب الاعتقاد بأن أكثر حديثـــه عن المرأة جاء تعبيرا عن قيمه من شجاعة وصبر وإيثار وغير ذلك .

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ٦٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .
(٣) فلسفة الحب عند العرب . عبد اللطيف شرارة ، ص ٦٥ .
(٤) ديوانه ، ص ٩٨ .
(٥) ديوانـــه ، ص ١١٢ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومن هذه الرؤى : أن الشاعر الصعلوك بوصفه إنسانا ، تحركه الفطرة ، فيعاوده الحنين إلى الجسد الذى حرم منه ، ويعيش في جدلية نفسية بين الانسياق لذاته الروحية (القيم) وبين جاذبية المادة متمثلة في المرأة .

من ذلك ما قاله قيس بن الحدادية في " نعم " حبيبته : (١)

أجِدَّك إنّ " نعم " نأتْ أنتَ جازِعُ ... قد اقتربتْ لو أنّ ذلك نافِعُ

وفيما يقول في قصيدة أخرى : (٢)

سقى اللهُ أطلالاً " بِنَعمٍ " تَرادفَتْ ... بهنّ النوَى حتّى حَللْنَ المطابيا
فإن كانت الأيّامُ يا أمّ مالكٍ ... تسليّكمُوا عنّي وترْضي الأعاديا
فلا مَتْنَ بعدى امرىء فَجّعٌ لذّةٍ ... من العيشِ أوفَجّعْ الخطوبِ العوافيا

ونجد أصداء لذلك عند عروة في قصيدته : (٣)

سَقَىٰ سَلْمَى وأيْنَ دِيارُ سلمى ... إذا كانَتْ مُجاورةَ السّديرِ

فما يغلف قلوبهم من مرارة العنست لايعني خواءها من حب حقيقي للمرأة جسدا أو روحا أو الاثنين معا ، وأن تهفو نفسه الى اللقاء والوصل ، فيقضي لبانته ، يقول السليك : (٤)

وتَبْسِمُ عن ألْمَى اللّثاتِ مفلّجٌ ... خُليقِ الثّنايا بالعذوبة والبَرَدْ

---

(١) الأغاني ، بولاق ، جـ١٣ ، ص ٧٦ .
(٢) = = = =
(٣) ديوان عروة ، ص ٥٦ .
(٤) السليك بن السلكة ، ص ٥١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومنه قصيدة تأبط شرا التي يحكي فيها اتصالا جنسيا بجارية .[١] وقصيدته التي جاء فيها :[٢]

أَطَيْفٌ مِن سُعادَ عَنَـــاكَ مِنْهـــا ... مَراعَاةَ النُّجُومِ وَمَنْ يَهِيـــمُ
وَتِلْكَ لَئِنْ عَنِيتُ بِهـــا رَداحٌ ... مِن النِّسوانِ مَطْفِلُها رَخِيـــمُ
نِيافُ القُرْطِ ، غُرَّاءُ الثَّنايـــا ... وَرَيْداءُ الشَّبابِ ، وِنِعْمَ خِيـــمُ

ومنه قول الشنفرى : [٣]

فَبِتْنا كَأَنَّ البَيْتَ حُجِّرَ حَوْلَنـــا ... بَرَيْحانَةٍ رِيحَتْ عِشاءً وَطُلَّـــتِ
بَرَيْحانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَـــوَّرَتْ ... لَها أَرَجٌ ما حولها غَيْرَ مُسْـــنِتِ

وقول عبدة بن الطبيب ، يصف مجلس شراب :[٤]

تُذْرِي حَواشِيَه جَيْداءُ آنِسَـــةٍ ... فِي صوتِها لِسَماعِ الشَّرْبِ تَرْتِيـــلُ
تَغْدُو عَلَيْنا تُلَهِّينا وَنُصْدِفُهـــا ... تُلْقِي البُرُودُ عَلَيْهـــا والسَّرابِيـــلُ

وقد يجوز القول بأن هذا النوع من الحديث عن المرأة يلجأ إليه الشاعر حين تزداد على كاهله وطـــأة الحياة ، فيحاول الانشغال عن التفكير فيها بحلم لذيذ من أحلام اليقظة فيصوغه امرأة ، تعويضا له عـن الانقطاع عن الأهل والقبيلة .

يؤنسنا إلى هذا التفسير أن هذا الحديث أكثر ما يقع إثر هزة نفسية عميقة كفرار الشـــاعر ونجاته من عدوه محاولا تبرير هزيمته أو اخفاءها .

ومن هذه الرؤى أن يتحدث الشاعر عن المرأة وكأنه يقدم لنا نموذجا لمستوى آخر لما ينبغـــي أن تكون عليه المرأة . وقد تصبح المرأة التي يتحسر الشاعر لمجيئها رمزا للمستقبل ، فهـــي رمز للخصب ومنبع العطاء وبالتالي فهي الأم لمن سيكونون الأمل والحياة الجديدة . يمكن استيحاء هذا من تائية الشنفرى في أم عمرو التي يوحّد فيها الشاعر بين المرأة وبين معـــان

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ١٩٩ ، عزفت عن ذكرها لما فيها من فحش .
(٢) ديوانه ، ص ٢٠٢ . الرداح : المرأة الممتلئة العجيزة . خيم : ضجيع .
(٣) المفضليات ، ١٠٨/١ . حلية : واد بتهامة . المسنت : المجدب .
(٤) المفضليات ، ١٤٥/١ . حواشيه : أطرافه . تذري : ترفع . نصفدها : نعطيها ، البرود : جمع برد . السرابيل : الثياب .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مجردة في ذاكرته ، منها :[١]

فَواً كَبِدا على أُمَيْمَةَ بَعْدَ ما ... طَمِئْتُ ففيها نِعمةُ العيشِ زَلَّتِ
فَيا جارَتي وَأَنْتِ غَيْرُ مَليمَةٍ ... إذا ذُكِرَتْ ، وَلا بِذاتِ تَقَلْتِ
لَقَدْ أَعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها ... إذا ما مَشَتْ وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ
تَبيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تَهدِيَ غُيوقَها ... لَجارتِها إذا الهَديّةُ قَلَّتِ
تَحُلُّ بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُها ... إذا ما بُيوتٌ بالمَذَمَّةِ حُلَّتِ
كأنَّ لَها في الأَرضِ نَسيًا تَقُصُّهُ ... على أُمِّها ، وإن تَكَلَّمْكَ تَبْلَتِ
أُمَيْمَةُ لا يُخْزِي ثَناها حَليلَها ... إذا ذُكِرَ النِّسْوانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ
إذا هُوَ أَمْسى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ ... مَآبَ السَّعيدِ ، لَمْ يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ
فَدِقْنَ وَجَلَّتْ واسبَكَرَّتْ وَأُكْمِلَتْ ... فَلَوْ جُنَّ إنسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

فهذه الأوصاف في هذه الأبيات التي تعد - على ما يرى شارح المفضليات -[٢] " أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن " ، وهي منبثقة من خيال شاعر ترفع ما شاع في عصره عن أدران جاهلية وخلق ذميم .

وهذه الرؤية لما ينبغي أن تكون عليه المرأة نجدها في قول السليك :[٣]

لَعَمْرُو أَبيكَ والأَنْباءُ تَنْمي ... لَنِعْمَ الجارُ أُخْتُ بَني عُوارا
مِنَ الخَفِراتِ لم تَفْضَحْ أَباها ... وَلَمْ تَرْفَعْ لأُخْوَتِها شَنارا

مما دفع جامع شعر السليك الى القول في هذين البيتين : " حتى ان هذه الأبيات كانت سببا في رجوع بعض الضالات من النساء عن طريق الغي ... "[٤]

كما نجدها في حديث مالك بن حريم عن المرأة قائلا :[٥]

تَذَكَّرْتُ سَلْمى والرِّكابُ كَأَنَّها ... قَطًا وارِدٌ بَيْنَ اللِّفاظِ وَلَعْلَعا
مُنَعَّمَةٌ لَمْ تَلْقَ في العيشِ تَرْحَةً ... وَلَمْ تَلْقَ بُؤْساً عِندَ ذاكَ فَتَجْزَعا
أَهيمُ بِها لم أَقْضِ مِنْها لُبانَةً ... وكنتُ بها في سالفِ الدَّهرِ مُوزَعا
كأَنَّ جَنَا الكافورِ والمِسكِ خالصاً ... وَبَرْدَ النَّدى والأُقْحُوانَ المنزَّعا

---

(١) المفضليات ، ١١٢/١٠٨ . الغبوق : ما يشرب بالعشي . النسيء : المفقود . أمها : قصدها . تبلت : تنقطع في كلامها . النثا : ما أخبرت به الرجل من حسن وسيء .
(٢) المفضليات ، ص ١٠٩ .
(٣) أشعار السليك بن السلكة ، ص ٥٥ .
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩ .
(٥) الأصمعيات ، ص ٦٣ . اللفاظ ولعلع : أماكن ماء . الترح : الفقر . الجدع : سوء التغذية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما تقدم لنا أشعارهم صورا أخرى للمرأة غير ما ذكر ، لكن من الصعب في كثير من الأحيان تحديد ما يميز المرأة الزوج من المرأة الحبيبة في ذلك ، ومن هذا النوع قصة زواج عروة المتواترة في كتاب الأغاني [١] . والنص يدل على رغبة عروة في استمرارية التملك ، أما هي فترغب عنه ، ولا تتردد في الانفكاك عنه حين تحين الفرصة . وقد مثل هذا الموقف بقوله : [٢]

سَقَوْنِي النِّسْءَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي ... عُداةُ اللهِ من كَذِبٍ وَزُورِ
وَقَالُوا لَسْتَ بَعْدَ فِداءِ سَلْمَى ... بِمُقْنٍ ما لَدَيْكَ وَلاَ فَقِيرَ
فَلا وَأبيك لَوْ كالْيَوْمِ أمْرى ... وَمَنْ لي بالتدبُّرِ في الأُمُورِ
إذاً لَمَلكتُ هِمةَ أمِّ وَهْبٍ ... على ما كانَ مِنْ حَمَكِ الصُّدُورِ
فَيا لَلنَّاسِ ! كَيْفَ مَلَكْتَ أمْرى ... على شَيْءٍ ، وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرى

ويزداد هذا الإبهام في التحديد لمعرفة الحبيبة من الزوجة في قول السليك : [٣]

يا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتَ مُثْكُلْ
وَرُبَّ زَوْجٍ قَدْ نَكَحْتُ عُطْبُول

إذاً كيف يُتَصور أن يصدر هذا القول مقصودا به الزوجة ، والشاعر يجتهد ما وسعه الاجتهاد أن يغيظ بقوله السالف أعداءه ، إلا أن يكون زواجا مضعضعا لا يقوم على أسس .

خلاصة ذلك أن غالب الحديث عن المرأة في شعرهم جاء إمّا تعبيرا عن حالة نفسية كشعورهم الحادّ بخلع القبيلة لهم ، وامّا إظهارا لتفردهم بقدرات فائقة ليلفتوا الناس إلى مكانتهم ، وإما ترويحا عن النفس بعد غاراتهم أو مطاردة العدوّ لهم . وان كان ذلك لا يخلو من الرغبة الصحيحة في التودد إلى المرأة كما ذكر .

---

(١) الأغاني ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ .
(٢) ديوان عروة ، ص ٥٨ ، ٥٩ . النسء : المسكر .
(٣) شعر السليك بن السلكة ، ص ٦٣ . وقد سبق شرح مفرداته .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاقته بالقبائل الأخـــــرى

إن مقولة التعارض الحاد بين حياة الصعاليك وحياة مجتمعهم فسح المجال لنشوء علاقـــــة ذات دم جديد وخصائص جديدة شكلها التظلم من المجتمـــــع .

وقد تحدثنا عن هذه العلاقة في ضوء أعمالهم الشعرية . ومن المنطلق نفسه (الشعر) نحاول أن نتبين مسار علاقات الشاعر الصعلوك مع القبائل الأخرى .

وذكرنا أن هؤلاء الصعاليك تألفوا من عشائر أو قبائل متباينة - وقد تكون متعادية - واشتركوا بالإغارة على الأهداف التي حددوهـــا .

وفي هذا التكوين الجديد ما ينافي طبيعة بناء القبيلة الذى درج عليه أبناء ذلك العصر ، كمـا فعل عروة ، اذ أنه " لقب بعروة الصعاليك لأنه كان يجمع صعاليك العرب ويقوم بأمرهم اذا أخفقوا فـــي غزواتهم ولم يكن لهم معاش ومغزى . " (١)

وكما فعل في أصحاب الكنيف . وهم جمع " من دون الناس من عشيرته "(٢)

وَإنّي لَمَدْفُوعٌ إليّ وَلاَؤُهُـــــم ... بِما وَان إذْ نَمْشي وإذْ نَتَمَـــلَّلُ
وإذْ ما يُرِيحُ الحَيّ صَرْماءُ جُونَـــةٌ ... يَنُوسُ عَلَيْها رَحْلُها ما يُحَـــلَّلُ
مُوَقَّعَةُ الصَّفْقَين حَدْباءُ شـــارِفٌ ... تُقَيِّدُ أحْياناً لَدَيْهِم وَتَرْحَـــلُ
عَلَيها من الولدانِ مَا قَدْ رَأيْتُهُـــم ... وَتَمْشِي بِجَنْبَيْها أرامِلُ عُيَّـــلُ

وهذا الذى قيل هو أحد أبعاد هذه العلاقة مع القبائل الأخرى وأن كثيرا من أشعارهم تحدثنا عن مواقـــف عدائية ، وخصومة متفاقمة وإمعان في المطاردة يقع في أكثره من قبل القبائل . فما هو دور الصعلـــوك في نشوء هذه العلاقة ، وما المُوَجِّه الأولي لذلك ؟ يقول تأبط شرا : (٣)

وَلَسْتُ أبَيتُ الدَّهرَ إلاّ على فَـــنى ... أُسَلِّبُهُ أَوْ أُذعِرُ الرَّبَّ أجْمَعَـــا

---

(١) مقدمة ديوانه ، عبد المعين الملوحي ، ص ١ .

(٢) ديوانه ، ص ١١٩ . الصرماء : المقطوعة الأخلاف ليذهب لبنها وتشد قوتها . ينوس : يتحرك الرحل : هنا الأثاثي ، والمعنى : الأحياء تروح عليهم ابلهم وغنمهم بالعشيات والـــــتي تروح علينا نحن قدر سوداء .. نتململ : من الملل . الصفقين : الجنبين .

(٣) ديوان تأبط شرا ، ص ١١٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول مالك بن الحارث :(١)

وَمَن تَقْلُلْ جَلْوبَتُـه وَيَنْكُـلْ ... عَنِ الأعْداءِ يَغْبَقْـه القَـراحُ
رَأَيْتُ مَعاشِـرًا يُثْنى عَلَيْهِـم ... إذا شَبِعوا وأوجُهُهُمْ قِبـاحُ
يَظَلُّ المُصْرِمونَ لَهُـمْ سُـجُودًا ... وإن لم يُسْقَ عِندَهُـمُ ضَيَـاحُ

ويقول عروة :(٢)

لَعَلَّ انْطِلاقِي في البِلادِ وَبُغْيَـتي ... وَشدّى حَيَازِيمَ المَطِيَّةِ بالرَّحَـلِ
سَيَدْفَعُني يَوْمًا إلى رَبِّ هَجْمَـةٍ ... يُدافِعُ عنها بالعُقوقِ وبالبُخْـلِ

ويقول أيضا في الفقير :(٣)

وبَعصِبِ النَّدِيِّ وَتَزْدَرِيـه ... حَلِيلَتُـه ، وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيـرُ
قَليلٌ ذَنْبُـهُ ، والذَّنْبُ جَـمٌّ ... ولكنْ لِلغِنـى ربٌّ غَفُـورُ

الصعاليك اذن ، يقومون بالإغارة على القبائل ، وبخاصة الموسومة منها بامتلاك أسباب الغنى ، والموسومة بالبخل . ويقفون أيضا ضد كل أوضاع العبودية بمختلف وسائلها .

وهذه الظروف نفسها هي المسؤولة عن إغاراتهم ، كما هي مسؤولة عن جعل التجانس مع طبقة الأغنياء أمرا مستبعدا . فكانت مولّدة للعلاقات العدائية بينهم وبين الفئة الغنية أو المستغِلة ، مع تأثر هذه العلاقات بدرجة حدة الفقر ، أو ما يقع على الصعلوك من حيف ، كما هي متأثرة باستجاباته ومكوّناته النفسية .

فمالك بن حريم مثلا يأبى ذلك الواقع الذى ينافي حقوق الانسان / النوع ويتطلع الى المثال الصحيح الذى ينبغي أن يكون عليه البشر اذ يقول :(٤)

أَنْبِئْتُ والأَيّامُ ذاتُ تَجـارِبِ ... وَتُبْدى لكَ الأيّامُ ما لَسْتَ تَعْلَـمُ
بِأَنَّ ثَرَاءَ المَالِ يَنفـعُ ربَّـه ... وَيُثْني عَلَيْهِ الحَمْـدَ وَهْوَ مُذَمَّـمُ

---

(١) ديوان الهذليين، ٨٥/٣ . ينكل : يجبن . ضياح : اللبن المخلوط بالماء . المصرم : الفقير .
(٢،٣) ديوانه ، ١١٦ ، ٩٢/٩١ .
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٨٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأن قليل المال للمرء مُفْسِدٌ ... يَحُزُّ كما حزَّ القَطيعَ المحـرَّمُ
يَرى درجاتِ المَجْدِ لا يَسْتَطيعُهـا ... وَيَقْعُدُ وَسْطَ القـومِ لا يَتَكلَّـمُ

فهو لا يرضى بهذا الواقع الذى لا نصيب فيه للمعدم ، من مكانه ولا وسيلة للارتقاء ، وأن عيش الفرد من الفقـراء محدد بمستوى ليس له أن يتجاوزه .

والصعلوك - شأن أى انسان - تهتف به مطالبه الجسدية والنفسية : إلامَ الرِّضا والقعـود ، وأنت لا تجد الكفاف من القوت ؟ وإلام السكوت وأنت على هامش المجتمع ؟ يقول عروة :(١)

أَلَيسَ عَظيما أن تُلِمَّ مُلِمَّـةٌ ... وَليسَ علينا في الحُقـوقِ مَعَوَّلُ؟

وهو بعد ذلك لا يبالي بالنتيجة ، لأنه يرضي ضميره :(٢)

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أوْ يُصيبَ رَغيبَـةً ... وَمُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مِثْـلُ مُنْجِحِ

فهي الإغارة ، أو الموت ، أو الحياة الصامتة في ظل الزجر والاستعباد ، كما يقول السليك :(٣)

وَما نِلْتُها حتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَـةً ... وَكُنْتُ لِأَسْبابِ المَنيَّـةِ أَعْـرِفُ

ويقول عروة :(٤)

المالُ فيه مَهابَـةٌ وَتَجِلَّـةٌ ... والفقْـرُ فيه مَذَلَّـةٌ وَفُضُـوحُ

لم يجد الصعلوك مخرجا مما فرض عليه من جوع وحرمان وذل ، والإنسان كما يقول فرويد :(٥) " هو دميـة بين أيدى ثلاثة طغاة : العالم الاجتماعي الذى منه القهر والمنع ، والطبيعة الغريزية البيولوجيـة ، وللوعي الاجتماعي الأخلاقي المكتمل " الأنا العليا " .

فعلى هذه الأغارات وما تسبب في قيامها قامت علاقتهم مع القبائل الأخرى ، وكان لها أوفـى نصيب في توجيه المواقف المتبادلة بين الطرفين .

---

(١) ديوانه ، ص ١٣١ .
(٢) ديوانه ، ص ٤١ .
(٣) السليك بن السلكة ، ص ٦٠ .
(٤) ديوانه ، ص ٤٣ .
(٥) الانسان - نشاط وتواصل ، ص ١٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهي مشكلة معظم الصعاليك التي لا تأذن لهم بالتأني . يقول السليك :(١)

أَخْرِجِ النَّحَّامَ واعْجَلْ يا غُـــــلاما ... واقذِفِ السَّرْجَ عليه واللِّجَـــامَا
واخْبِرِ الفِتيانَ أنّـــي خائِـــــضٌ ... غَمْرَةَ المَوْتِ ، فَمَنْ شَـاءَ أقَامَـا

ونفس الدافع الذي يحرك السليك يحرك الأزدي والشنفرى ويدفعهما للإغارة ، يقول الأزدي مبينـــا وقع غارته على قبيلة عامر :(٢)

فَمَا الظَّبْيُ أخْطَتْ خِلْفَةَ الصقرِ رِجلُه ... وَقَدْ كان يَلْقَى المَوْتَ فِي حَلْقَةِ الصَّقْرِ
بِمِثْلِي غُزاةُ القومِ ، بينَ مُقَنَّـــعٍ ... وآخرَ كالسَّكْرانِ ، مُرتِكزٌ يَغْـــرِي

ويقول الشنفرى :(٣)

نُمِرُّ بِرَهْوِ الماءِ صَفْحاً وَقَدْ طَـــوَتْ ... ثَمائِلَنا والزّادُ ظَنٌّ مُغَيَّـــبُ

والحقيقة أن حركة الصعاليك ضد القبائل فيها جوانب من الاعتدال كثيرة ، ولها ما يبرر وجودهـــا ؛ إذ كانت غاراتهم كما قلت تحقيقا لاستمرارية الحياة لهم ولأمثالهم من الناس .

حاجز الأزدي مثلا ممن أغاروا كثيرا على القبائل ، فتتوعده هذه القبائل المغار عليهـا ، فيرد عليها قائلا :(٤)

إنّيَ مِنْ إرْعادِكُمْ وبُرُوقِكُـــــمْ ... وإيعادِكُمْ بالقَتْلِ صُمٌّ مَسَـامِعِـــي
عَلَى أيِّ شَيْءٍ لا أباً لِأبيكُـــــمْ ... تُشِيرونَ نَحْوِي نَحْوكم بِأصَابِـــعِ

فهو في هذا الموقف يحرص على فرديته في حضور علاقته مع الجماعة ، ويضع نفسه في موضع بطولـــي اقتحامي ، لكنّه بأطار من التودد والتشبث ببقية هذه العلاقة .

أما حين تشتط القبيلة بعدائها ، فتعدد سوءات الشاعر ، أو مثالب قبيلته ، فليس مـــن اليسير أن يصطنع الشاعر التجاوز عما فرض عليه ، وربما أثار هذا الموقف العدواني من القبيلـــة

---

(١) السليك بن السليك ، ص ٦٥ .
(٢) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٤ .
(٣) الطرائف الأدبية ، ص ٣٢ . الرهو : مستنقع الماء لا مفرج عليه مع حاجتنا عليه .
(٤) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ما تراكم في نفسه من مخلفات المجتمع ، يقول الأزدى مخاطبا سيد بني هلال ضمرة بن ماعز :(١)

يَا ضَمْرُ هل نِلْناكُمُ بدمائِنـــا ... أَمْ هَلْ حَذَوْنا ثِفْلَكُمْ بِمَنـــالِ
تبكي لِقَتلىً مِنْ فَقيمٍ قُتِّلُـــوا ... فالْيَوْمَ تَبكي صادِقاً لِهِـــلالِ

ويصف في موقع آخر ما عاناه أعداؤه من نيران الطعان جسديا ونفسيا ، فالنيران تلفح وجوههم ، والتمائم لا غناء فيها اذ يقول :(٢)

وَمُعْتَرَكٍ كَأَنَّ القَوْمَ فيهـــا ... تَبُلُّ جُلُودَ أَوْجُهِهِـــمْ جَحِيـــمُ
صَلِيَتْ بِحَرِّهِ وتجنّبَتْـــهُ ... رِجالٌ لا يُناطُ بِهـــا التَّمِيـــمُ

فالعلاقة بين الطرفين إنما تتساوى مع حركة القبيلة نفسها تناغما أو تنافرا مع هذا الانسان من الصعاليك .

وعمرو بن براقة يذكر بأنه يحمل على الإغارة كرها فيقول :(٣)

وَكُنْتُ إذا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُـــمْ ... فهل أنا فيـ ذا يا لَهَمْدانَ ظالِمُ ؟

وهذا أيضا تأبط شرا إذ آنس وصحبه ماء ، فاتجهوا صوبه في رحلة مضنية ، فيجدون على الماء من يترصدهم ، فينفرون طاوين جوانحهم على الظمأ . وعلى عادة من يشعر بأثر الهزيمة ، فأن الشاعر يلتمس لنفسه العزاء ، فيقول :(٤)

لَيْلَةَ صَاحُوا ، وأَغْرَوْا بي سِراعَهُـــمُ ... بالقِبْلَتَيْنِ لَدَىْ مَعْدَىْ بنِ بَرّاقِ
كأنّما حَثْحَثُوا حُصّاً قَوادِمُـــهُ ... أوْ أُمَّ خِشْفٍ بذِى شَثٍّ وطُبّـــاقِ
لكنّما عَوَلي إنْ كُنتُ ذاَ عِـــوَلٍ ... عَلى بَصيرٍ بِكَسْبِ الحَمْدِ سَبّاقِ

ويقول :(٥)

قَليلِ غِرارِ النَّوْمِ أكْبَرُ هَمِّـــهِ ... دَمُ الثَّأْرِ ، أوْ يَلْقَى كَمِيناً مُقَنَّعَا
يُماصِعُهُ ، كلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمَـــهُ ... وَمَا ضَرْبَهُ هامَ العِدىٰ لِيُشَجَّعَـا

---

(١) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٤ . الثّفل : ما سفل من كل شيء .
(٢) عن مصورة من منتهى الطلب ، جـ ٥ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ، الورقة الخامسة .
(٤،٥) ديوانه ، ص ١١٣ ، ١١٤ . يماصعه : يقاتله .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما تنجلي معركة الحياة والمصير حتى تلين قلوبهم ، وتفيض بالمشاعر الإنسانية النبيلة . يقول عروة :(١)

وَرُبَّتَ شَبْعَةٍ آثَرْتُ فيها ... يَدَاً جاءَت تُغيرُ لَها هَنيتُ

وقد يكف الشاعر متحولا عن هدفه من القوم إذا وجدهم مسالمين على الرغم من المشكلات الوجودية المؤرقة . يقول تأبط شرا ، يصف موقفه من جماعة وقعوا في ربعته وتحت رحمته :(٢)

سَلكوا الطَّريقَ وَريقُهُمْ بِحُلُوقِهِمْ ... حَنَقاً ، وَكادَتْ تَسْتَمِرُّ بِجُنْدُبِ

هكذا وقف الشعراء الصعاليك ممن ناصبوهم العداء من غير قبائلهم ، وعلى تباين المشاهد فهي جميعا تصدر عن واقع نفسي تماثلت منابعه ، فأوشكت أن تتفق استجاباته التي أورثت ما سبق من علاقات . ولكن : هل كان هذا اتجاه جميع الصعاليك ، وهل تقطعت بينهم وبين القبائل جميع الأواصر والأسباب ؟

الظاهر - كما يقوله شعرهم - أن بعضهم - وقليل ما هم - قد عاش في كنف هذه القبائل .

يحدثنا قيس بن الحدادية أنه بعد أن خلعته قبيلته دفع بنفسه الى قوم آخرين ، يقال لهم بنو عدىّ ، فآووه وأشفقوا عليه ، فحرص على أن يقيم معهم ذمارا محفوظة ، وعهودا صادقة فيقول :(٣)

جَزَى اللهُ خيْراً مِنْ خَليعٍ مُطَرَّدٍ ... رِجالاً حَمَوْهُ آلَ عَمرِو بنِ خَالِدِ
فَلَيْسَ كَمَنْ يَعْزُو الصَّديقَ يَنُوكُهُ ... وهِمَّتُه فيه الغَزْوُ كَسْبَ المَزَاوِدِ
وَقَدْ حدبت عَمْرٌو عليّ بِعِزِّها ... وأبْنائِها من كلِّ أروعَ ماجِدِ
أولئك إخواني وجُلُّ عَشيرتي ... نَرَوْنَهُم ، والنَّصْرُ غِبُّ المَحَارِدِ

ففي موقف كهذا تتحول أحاسيس الشعراء الى ميل للتهادن مع من حولهم من الناس . فاذا يقول ابن الحدادية أيضا يلهج بالشكر والثناء لقبيلة أجارته :(٤)

وَقَدْ حُلْفْنا بِقَسْرِيٍّ أَخِي ثِقَةٍ ... كالبَدْرِ يَجْلُو دُجَى الظَّلْماءِ والأُفُقا
لا يَجْبُرُ الناسُ شيئا هاضَه أَسَدٌ ... يوماً ، ولا يُرتِقُون الدَّهرَ ما فتقا

---

(١) ديوان عروة ، ص ٣٤ . هنيت : سريع .
(٢) ديوانه ، ص ٧٢ - ٧٣ . ريقهم بحلوقهم : من الخوف . حنقا : غيظا .
(٣) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٠ .
(٤) نفس المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ١٥١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذ يقول ذلك فهو أمر بدهي في سلوكه بوصفه إنسانا اجتماعيا يقر سلوكه العقل ويحكمه الضمير .

وعلى هذا النحو من الانعطاف إلى القبيلة من غير جماعته نجد حاجزاً يميل عن قومه إلى بني مخزوم يقيم معهم حلفا ، فيقول :(١)

قَوْمِي سَلَامان إذْ ما كُنتِ سائلةً ... وفي قُرَيشٍ كَرِيمُ الحِلفِ والنَّسَبِ
إنّي متى أدْعَ مَخْزُوماً تَرَيْ عُنُقاً ... لا يَرْعَشُون لِضَرْبِ القَوْمِ مِنْ كَثَبِ

فهو إذن لا يقطع أرحاما موصولة بشبكة البطون والأفخاذ وعروق الدم من القبائل الأخرى إلا في ممنوع وقف عليه رزقه ورزق عياله . أو في ترصد يمنعه من مواصلة سعيه ، أو ثأر موتور يقض عليه مضجعه .

ولعل فيما يردده الشاعر من ألفاظ " التشفي " . وما يماثل معناها ما يكشف عن النشوة النفسية التي يشعر بها بعد اثبات وجوده وخلاصه من ركام المعاناة . فهذا اللفظ يحمل من القدرة التعبيرية في التخفيف عن النفس في عمق التجربة ما يحمله الكثير .

يقول تأبط شرا :(٢)

فإنّ شِفاءَ الداءِ إدراكُ ذَحْلَةٍ ... صباحاً على آثارِ حَوْمٍ عَرَمْرَمِ

ويقول :(٣)

بَدا بِحَرامِ اللّهِ حتّى استحلّه ... وكانَ شفاءً ثأرُ نفسي مُعَجَّلِ

وللشنفرى :(٤)

شَفَيْنا بِعبْدِ اللّهِ بَعْضَ غَليلِنا ... وَعَوْفٍ لدىٰ المَعْدَىٰ أوانَ استهلّتِ

وله :(٥)

ألا لا تِعِدْني إن تشكّيتَ خُلّتي ... شَفاني بِأعْلَى ذِي البَريقين غُدْوَتي

---

(١) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ .
(٢،٣) ديوانه ، ص ٢٠٨ ، ١٦١ . الذحل : الثأر . الحوم العرمرم : الجماعة الكثيرة .
(٤،٥) المفضليات ، ص ١١٢ . المعدى : موضع العدو . أى ساحة القتال . يطلب من خليله أن يزوره .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن مظاهر التشفي أن يخلع الشاعر صفة " غمرة الفرح " على ما يحيط بقتلى أعدائه من حيوانات مفترسة ، كالذئب والضبع وغيرهما، فهي جذلة لأنها حظيت بطعامها الطيب .

يقول الشنفرى :(١)

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لقتلي هُذَيْلٍ ... وَتَرى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ

ويصف عروة مشهدا لفارس يورده (عروة) مورد الردى قائلا :(٢)

فَأَتْرَكُهُ بِالقَاعِ رَهْنًا بِبَلْدَةٍ ... تعاوَرُهُ فيها الضِّباعُ الخوانِعُ

وأبو الطمحان القيني يلجأ الى مالك بن سعد من بني فزاره ، فيحتفي به ، ويؤمنه ، فيقول القيني:(٣)

سَأَمْدَحُ مالِكا في كلّ رَكْبٍ ... لقيتُهم وأترُكُ كلَّ رَذْلِ
وَقَدْ عَرَفَتْ كِلابُكُم ثيابي ... كأنّي منكُمُ ... وَنَسِيتُ أَهْلي

وهذه العلاقة ليست ناشئة عن احتياجات مادية فحسب ، ولكنها علاقة قائمة بين الصعلوك وبين القيم النفسية ، كالحرية ، والميل الى جماعة تحفظ له ودّه ، وشيئا من حقوقه . كما وقع لأمة بن الأسكر الذى أخرجه قومه بسبب هيام (مرض معد) أبله ، فأتى مزينة ، فأجاروه ، وأقام عندهم ، فقال معبرا عن انسجامه في هذه القصيدة :(٤)

تَكَنَّفَهَا البِهامُ وأَخْرَجُوهَا ... فَمَا تَأْوِي إلى إِبِلٍ صِحَاحِ

فالذى تهدى اليه الأشعار السابقة أن الصعاليك الذين اضطربت علاقاتهم مع قومهم استطاعوا أن يشكلوا نسقا جديدا من العلاقات مع غير قبائلهم . وقد أثبت الصعلوك بذا أنه قادر على التفاعل مع الجماعات ، وأنه لا يحاول الانفكاك عن المجتمع الا أن توصد ابوابه بوجهه .

---

(١) الأغاني ، جـ ٢ ، ص ١٥٠ .
(٢) ديوان عروة ، ص ٩٨ .
(٣) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ٨٢ .
(٤) الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ١٢ . وقد سبق ذكرها في الحديث عن علاقة الشاعر بالقبيلة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهكذا عاش مع القبائل ضمن دائرة من العلاقات المتداخلة : علاقة مع قبيلته التي ينتسب اليها دما ولحما ، وقد يهجرها وإن بقيت محط أنظاره وثوابته .

وعلاقة عدائية مع أغنياء كل قبيلة وبخلائها ، نماها أزمة الحياة المادية والنفسية .

وعلاقة ولائية مع غير قبيلته من القبائل فرضها سلطان غريزة حب الإنسان الانتماء الى جماعة يتناغم معها .

وفي تكوين هذه العلاقات التي أخذت خطّاً متعرجا دليل على أن المعلوك لا يختار المواقف السلبية إلا بانعدام أضدادها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابـــــــــــع

علاقة الانســـان بموجودات الكـــــون

الوطن / الديـــــــــــــــــــار
الطبيعة / الأرض / الليل / الشمس والكواكب / الماء
الحيـــــوان :
أ ـ الأوابـــــــــــد
ب ـ الأليفـــــــــة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاقة الصعلوك بالوطن (الديـــــار)

تدور معاني كلمة الوطن في المعاجم العربيـــة حول المنزل ، والديار ، ومكان المولـــــد ، والبلد الذي يقيم به الانسان .(١)

فإذا كان هذا المفهوم نفسه قد تمثل في وعي الشاعر الصعلوك ، فما نظرته إليه وكيف كانـــت علاقته به وبمكوّناتـــه ؟

ذلك ما سأحاول رصده في شعره وتحليل ما يكمن وراءه من أحاسيس ودوافع وهواجس .

لقد اتضح لنا فيما سبق أن معظم علاقات الشاعر مرتبطة بوضعه العام وبما يعانيه من مشـــكلات كالبحث عن الأمن والقوت والحرية ، مما جعله يتجاوز كثيرا مما تواضع عليه المجتمع .

ومن هذه المشكلات صاغ رؤيته للديار . ولنمض الآن مع ما قاله في الوطن والديار والبلاد وما يمكن أن يقدم لنا مَعْلَما يكمن وراءه دوافعه وأحاسيسه يقول عروة :(٢)

وَسائِلَةٍ أين الرَّحيلُ وَسَـــــائلٍ ... وَمَنْ يَسألُ الصعلوك أيْنَ مَذاهِبُـــهْ
مَذاهِبُهُ أنّ الفِجــاجَ عَريضَـــــةٌ ... إذا ضَنّ عنه بالفعال أقَارِبُـــــــهْ
فَلاَ أتْرُكُ الأخوانَ ما عِشْتُ للرّدَى ... كَما أنَّهُ لا يَتْرُكُ الماءَ شَـــــارِبُهْ

ويقول :(٣)

وَمَنْ يَكُ مِثْلي ذا عِيالٍ وَمُقْـتِرًا ... مِنَ المَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْـــرَحِ

ان عروة يبحث عن أسباب تعينه على الحياة وتعمل على حلّ مشكلاته ومشكلات أبناء طبقته الفقـــيرة حيثما وجد ذلك الحل ، ولو تعارض مع ما تتطلبه الديار . وهذا التوجه بذاته يعد نشاطا ثوريا منسـجما مع واقع الشاعر النفسي الذي لا يتردد في نبذ كل ما يهدد إرادته وكيانه وهذا الموقف لا ينفي التحامـــه بالديار ولا يلغي ما في تجربة وعيه أو ما عبر عنه من تداعيات عاطفيـــة نحو هذه الديـــار كمـــا

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي باب النون فصل الواو ، وجمهرة اللغـــة لابن دريد ، ج ٣ ، ص ١١٩ ، .

(٢،٣) ديوانه ، ص ٢٩ ، ص ٤٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سيظهر في شعره . ولا يعني هذا أن الديار والانتماء إليها كانتا قد تبلورتا واكتسبتا أبعادهما الدلالية عند الشاعر الجاهلي الصعلوك كما لا يعني أن حب الوطن قد انغرس في احساسه الى حد كبير . والروح العربية البدائية بعامة كانت تنزع الى الحركة والارتجال نزوعها الى التحرر والانعتاق . والصعلوك أشد بني جلدته انسلاخا عن زمانه ومكانه ، تستوى عنده الحياة أو الموت . يقول عروة :(١)

فَسِرْ فِي بِلادِ اللّهِ والْتَمِسِ الغِنى ... تَعِشْ ذا يَسَارٍ أوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرا

ان حدة المأساة التي يعيشها الشاعر جعلته يشكل من الاغتراب عن الديار والأهل قيمة بحد ذاتها ، والإقامة زراية تحط من مكانته وقدره . وقد عبر عن ذلك الشنفرى يصف صاحبه تأبط شرا بأنه :(٢)

مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُرُ السِّتْرُ دونَها ... ولا تَرْتَجِي لِلْبَيْتِ إنْ لَمْ تَبَيَّتِ

وإنسان تأبط شرا إنما يشعر بعمق الحياة واكتمالها إذا تهيأت له فرص الحركة والانطلاق ، لأن هذا النمط من الحياة هو الذى يضفي عليه صفات البطولة المتميزة :(٣)

يَظَلُّ بَمَوْماةٍ ويُمْسِي بِغَيْرِها ... جَحِيشاً ، ويَعْرَوْرِي ظُهُورَ المَهالِكِ
يرى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنِيسَ وَيَهْتَدِي ... بحيثُ اهتَدَتْ أمُّ النجومِ الشَّوابِكِ

فهو لا ينعزل عن الديار إن تعارضت مع مكانته فحسب ، ولكنه قد ينعزل عمن يتعايش فيها باحثا عن نوع آخر من الحياة تبعا لتصوراته . وهذا يمثل درجة من أعظم درجات الرفض .

وعلى هذا المذهب المتمثل بالنزوع الى الحركة والانفكاك المنطلق من الإحساس بعدم التجانس بينهم وبين المجتمع سار السليك اذ يقول :(٤)

فَلا تَصِلِي بِمُعْلَكٍ نَؤُومٍ ... إذا أمسى يُعَدُّ مِن العِيالِ

وما نفوره من ذلك الصعلوك النؤوم إلا لأنه يعيش لصيقا بالأرض / الديار التي لا يجد فيها الانسان ما يقيم أوده إلا بمقدار ما يفقده مرتبته بوصفه انسانا . وهو من جانب آخر ينير السبيل أمام الصعاليك

---

(١) ديوانه ، ص ٢٩ .
(٢) المفضليات ، ص ١٠٨ .
(٣) ديوانه ، ص ١٥٢ . جحيشا : منفردا . يعرورى : يركب . المومأة : المفازة .
(٤) السليك بن السلكة ، أخباره وأشعاره ، ص ٦٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاملين للبحث عن حياة أفضل . والسليك إذ يخرج من حيّز الديار / الوطن إنما يتحرك في آفاق أوسع تفرضها مطالب الحياة الملحة على حساسيته المرهفة :(١)

وَمَا نِلْتُهَا حتى تَمَعْلَكْتُ حِقْبَةً ... وكِدْتُ لِأَسْبابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ

ولذلك لا جناح عليه أن يوزع عمره في ميادين أخرى من النشاط تتمثل في الإغارات التي يكمن وراءها شعور عميق بالانقطاع عن الديار / الأهل يقول في ذلك : (٢)

بِخَثْعَمَ إِنْ بَقِيتُ وإِنْ أَبُوهُ ... أُوارٌ بَيْنَ بِيشَةَ أو جُفَارُ
فَهُدْى مُدَّةً خَمْسٌ وِلاءً ... وسَادِسَةٌ على جَنْبَيْ عِشَارُ

ويصوغ أبو الطمحان رؤيته لدياره / الأهل على هذا النحو الذى يتلخص في أن كل ما يطامن من قيمته أو يثلم مروءته لا أهمية له ولو كان أعز الأهل : (٣)

وَقَدْ عَرَفَتْ كِلابُكُمُ ثِيابِي ... كَأَنِّي مِنْكُمُ وَنَسِيتُ أَهْلِي

وهذا الأحيمر السعدى يصف مضطربه في أصقاع الأرض ، وما يناط به من آمال تبدو مضطربة أيضا لكنها سرعان ما تكشف عن المحرك الأساسي لهذه الحالات وهو مطالب الجسد والنفس معا ، يقول الأحيمر :(٤)

لَئِنْ طَالَ لَيْلِي بالعراقِ لَرُبَّما ... أَتَى لِيَ لَيْلٌ بالشَّآمِ قَصِيرُ
وَقَدْ كُنْتُ ذا قُرْبٍ فأَصْبَحْتُ ثاوِيًا ... بَكَرْمانَ ، مُلقىً بَيْنَهُنَّ أَدُورُ

وعلى الرغم من أن تواصله مع قومه قد ينقطع حين يحس تصلدهم في وجهه وتساهلهم في مكانته . فأن صورة الديار وأبناء الديار لا تنعدم من ذهنه تمام الانعدام ، لان موقفه هذا (الانقطاع) مرتبط بأزمة طارئة قد تزول بزوال أسبابها . اذا أخذنا بعين الاعتبار حياته اللاشعورية المتمثلة في قلقه ونزواته ... فكلها تلعب دورا خطيرا في رؤيته . واذا كان (٥) " الشعور الواعي اليقظ ، الموضوعي المنظم لن يبصر الحقيقة إلا من جانب واحد ... واذا كان عالم الشعور وعالم اللاشعور غير منفصلين ،

---

(١) السليك بن السلكة / أخباره وأشعاره ، ص ٥٦ .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٥٧ . الأوار : اللهب . جفار : موضع . عشار : موضع .
(٣) الأغاني ، جـ ١١ ، ص ١٣٢ .
(٤) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٣ .
(٥) الفن والانسان / د. عز الدين اسماعيل ، ص ١٨٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وغير متقابلين ، بل ممتزجين ومتفاعلين ، فإن هذه الحقيقة تؤكد كذلك اتصال الخيال بالواقع ، أو الحلم بالحقيقة الموضوعية ، وتفاعلها ، وليس الفن في أعلى نماذجه وأرقى صوره الا نتيجة هذا الامتزاج ."

فما نراه من نماذج في الحديث عن المنازل لا يعكس الجانب النفسي فحسب ، ولكنه يعكس كل الجوانب المتعلقة بحياته بوصفه إنسانا له عالمه الشعوري واللاشعوري .

وقد يساعد على سبر غور هذا الإنسان أن حياته النفسية لم تكن على درجة من التعقيد الحضاري والثقافي وسائر ما يمكنه حجب الرؤية عند التأمل . كما أن الرؤية الشعرية عند الانسان بصورة عامة لا يمكن قياسها قياسا يخضع لمنطق العقل وآلية الرتابة . فهل لهؤلاء الشعراء من التجار ما خالف ذلك الواقع الشعري وفقا لاختلاف الحالة الشعورية واللاشعورية لهذا الانسان ؟

فلنسمح لأنفسنا بدخول الحقل الشعري من الزاوية نفسها .

قد تتجدد صورة الديار في هذا المسار اللاشعوري عبر حالات أخرى كالحكايات التي يرويها الشاعر في انقطاعه عن الأرض والأهل وفقدانه المادة الأولية (الماء) الذي يعني فقدان الربيع والشباب وكل مباهج الحياة ، فلا غرابة أن تتحدد صورة الماء وما يرتبط به في كيانه النفسي أو اللا شعوري ، وتسيطر على جميع قواه المختلفة سواء صرح بقلقه بسبب ذلك أم كتمه ، وبخاصة عندما يزداد شعوره بأثر الفرقة ووطأة الخطر ، فتكون الذكرى للماء وما يرتبط به من الخصب من أقوى ما يحرك الموقف الشعري .

وقد يصبح طلب السقيا للديار الصلة التي يقدمها الشاعر في موقف يعجز معه عن قهر ما يعانيه ، ذلك ما نحس به في مقاطع للأحيمر السعدي منها :(١)

أَيا نَخَلاتِ الكَرْمِ لا زَالَ بَيْنَنَا ... عَلَيْكُنَّ مُنْهَلٌ الغَمامِ مَطِيرُ
سُقِينَّ ما دامَتْ بِكَرْمانَ نَخْلَةٌ ... عَوامِرَ تَجْرِى بَيْنَكُنَّ بُحُورُ
ألا حَبَّذا الماءُ الذى قابَلَ الحِمَى ... وَمُرْتَبِعٌ من أهلِنا وَمَصِيرُ
ويا نَخَلاتِ الكَرْخِ لا زال ماطِرٌ ... عَلَيْكُنَّ مُسْتَنُّ الرِّياحِ دَرُورُ

وشبيه بهذا قول قيس بن العيزارة وهو في الأسر :(٢)

سَقَى اللهُ ذاتَ الغَمْرِ وِبْلاً وَدِيمَةً ... وَجَادَتْ عَلَيْها البارِقاتُ اللَّوامِعُ
بِمَا هِيَ مَقْنَاةٌ أَنِيقٌ نباتُها ... مِرَبٌّ فَتَرْعاها المَخاضُ النَّوازِعُ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٩ .
(٢) ديوان الهذليين ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقوله وهو يرثي أخاه الحارث بن خويلد :(١)

فَسُقيَ الغَوادِي بَطْنَ مَكَّةَ كُلَّهـــا ... وَرَسَتْ بِهِ كلَّ النَّهـارِ نُجُـودُ

وقول أبي الطمحان القيني :(٢)

ألا حَنَّتِ المِرقالُ وانْتَبَّ رَبُّهـا ... تَذَكَّرَ أوطاناً وأذكرُ مَعْشَـرى
وَلَوْ عَرَضَتْ صَرْفَ البُيُوعِ لَسَرَّها ... بِمَكَّةَ أن تَبْتاعَ حَمْضاً بأذْخَـرا
إذا شاء راعيها اسْتَقى مِنْ وَقيعَـةٍ ... كَعَيْنِ الغُرابِ ، صَفْوُها لَمْ يُكَدَّرِ

وقول مالك بن حريم الهمداني :(٣)

وَلاحَ بَياضٌ في سَـوادٍ كأنَّـهُ ... صُوارٌ بِجَـوٍّ كانَ جَدْباً فَأمْرَعـا
كأنَّ جَنَى الكافورِ والمسكِ خالصـاً ... وبَرْدَ النَّدى والأقحُوان المنَوَّعـا
وَقَلْتاً قَرَتْ فيـه السَّحابةُ ماءَهـا ... بأنْيابِها والفارسيَّ المُشَعْشَـعا

لعل الشاعر في تلك الذكريات يعود الى داخل نفسه يلتمس العزاء من مخزونها في مواجهة واقعه . إنه يبحث عن المكان / الديار فلا يجد غير الديار المنغلقة على حريته ، وفي هذه الحالة يستعين بالتصور والأحلام ، ولا شيء عنده أهم من الماء . (ألا حبذا الماءُ الذى قابَلَ الحِمى ...) .

إن المجتمع الذى يطلب له الشاعر السقيا في حالة استبعاده صُوِّرَ ملىء بالشر ومسكون بالعلل النفسية التي من اعراضها اضطهاد الإنسان الصعلوك ، فهل نستطيع القول بأن شهرة الشاعر لتطهير المجتمع من دون الأمراض واضطراب الرؤية جعلته يلح ويركز على استنزال الماء كأداة للتطهير ؟ ذلك ممكن فيما أتصور .

ولا تكاد صورة الوطن تمثل أمام ناظرى الشاعر إلاّ والريح أو الماء أو السحاب أو العشب يشكل معه وحدة نفسية ، وهذه العناصر هي التي تمثل انبثاق الأمل في ميلاد حياة جديدة ؛ اذ الريح تثير السحاب وتجعل الأشجار لواقح ، وبالمطر تتطهر الأرض وتمرع ... وفي هذا وذاك يتجدد عشق الشاعر وأمله في العودة الى الديار .

---

(١) ديوان الهذليين ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

(٢) الأغاني ، ج ١١ ، ص ١٣٤ . المرقال : اسم ناقة الشاعر . انتب : تهيأ للذهاب . الاذخر : نبات طيب الرائحة .

(٣) الأصمعيات /٢/ تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون / بيروت ، ج ٥ ، ص ٦٣ . الصوار : القطيع من البقر . الجوّ : ما انخفض من الأرض . القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء . الفارسيّ : أراد به الخمر المنسوب الى فارس .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واستعادة ذكرى الوطن / الديار يسكنها أكثر من رؤية شعرية ، لكنها رؤى تتجانس وتتداخل في غايتها التي تمثل إشراقة الأمل في نفس الشاعر . ومن هذه الرؤى صورة أطلال المحبوبة يقدمها لنا الشاعر متلاحمة مع عناصر الحياة الأخرى في تكوين الوجه الجديد لحياة الصعلوك ، كما في قول قيس بن الحدادية :(١)

سَقى اللهُ أطلالاً بنعمٍ نرادفَتْ ... بِهِنّ النّوى حتّى حَلَلْنَ المطاليا

وهذا نموذج لعروة تتداخل فيه أحاسيس كثيرة تلتقي حول نفس القضية التي تمثل عشق الشاعر لديارِه ، وكأنما ذكره لحبيبته ليس إلا أحد وجوه ذلك المعشوق الكبير / الوطن . يقول عروة :(٢)

أَرِقْتُ وَصُحْبَتي بِمَضيقِ عَمْقٍ ... لِبَرْقٍ في تَهامَةَ ، مُسْتَطيرِ
سَقَى سَلْمى ، وأين ديارَ سَلْمى ... إذا حَلّتْ مَجاوِرَةَ السّريرِ
إذا حَلّتْ بأرضِ بني عليٍّ ... وأَهلي بين إمّرَةٍ وَكيرِ
ذَكَرْتُ مَنازِلا مِن أمِّ وَهْبٍ ... مَحلّ الحَيِّ أسْفَلَ ذي النّقيرِ

ويقول أيضا :(٣)

نَحِنّ إلى لَيْلى بحُرِّ بِلادِها ... وأنتَ عَلَيْها بالمَلا كُنْتَ أَقْدَرا
وَكَيْفَ نُرَجّيها وَقَدْ حيل دُونَها ... وَقَدْ جاوَرَتْ حَيّا بَنِي مُلّةَ مُنْكَرا

وحيثما زاوج الشاعر بين صورة الديار والمرأة على هذا النحو أمكننا القول بأن الشاعر يحاول تناسي جراحه النفسية في واقعه الراهن ليصنع رؤية جديدة يخترعها حلمه ، لأن الشاعر هو الذي يستطيع أن يجعل الشيء الواحد يتموج بصور متعددة سواء كانت متآلفة أو غير متآلفة في نظرنا . والحلم كما يقول أدونيس : " وسيلة كشوف لا يتوصل اليها الشعور في حالة وعيه . فيه تستعيد النفس الوحدة الأولى الضائعة ... "(٤)

وهذا التجاوب مع أصداء النفس الانسانية لا نعدمه عند أكثر الشعراء الصعاليك تحملا لشظف العيش والمطاردة ، وأكثرهم تعاليا عن رغائب الحياة ، وهو الشنفرى ، كما في قوله :(٥)

فَبِتْنا كَأَنّ البيتَ حُجّرَ حَوْلَنا ... بِريحانةٍ ريحَت عِشاءً وَطَلّتِ
بِريحانةٍ من بطنِ مكنةَ نَوّرت ... لها أرجٌ ، ما حولَها غيرُ مُسْنِتِ

---

(١) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٦ .
(٢) ديوانه ، ص ٥٥ ، ٥٦ . امّرة وكير : مكانان .
(٣) ديوانه ، ص ٦١ .
(٤) مقدمة الشعر العربي ، ص ٨٦ .
(٥) المفضليات ، ١٠٨/١ . ريحت : أصابتها ريح . طلّت : أصابها طل (ندى) . مسنت : مجدب .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الحضور الثالث الذي يتقمص هذه القضية (الديار) ، ويبسط من مساحة أمل الشاعر ، ويملؤها بالألوان الزاهية إحساسه بمواقف البطولة ، فإن كل صورة من المعارك تمحو من أمام ناظريه كل أسباب الضيق والتوتر . والمكان الذي وقعت فيه تلك المعارك يأخذ مسار حب الديار في بعده الروحي ، ففيه تجلت فعالية الشاعر القتالية من أجل الحياة .

يستحضر حاجز الأزدي بعض الأماكن التي تزخر بالانتصارات فيتشبث بها لتكون شاهدة على فروسيته فيقول :(١)

إنْ تذكروا يَوْمَ القُرى فإنّه ... بَواءُ بأيّامٍ كثيرٍ عديدُها
فَنحنُ أبحْنا بالشخيصةِ واهناً ... جِهاراً فجئنا بالنِّساءِ نَقودُها
وَيَوْمَ كراءٍ قَدْ تدارَكَ رَكْضُنا ... بَنُو مالكٍ والخيلُ صُعْرٌ خُدودُها
ويوم الأراكات اللواتي تأخرت ... بسراة بني لهبان يدعو شريدها
وَيَوْمَ شَرُومٍ قَدْ تركْنا عُصابةً ... لَدَى جانبِ الطَّرْقاءِ حُمْراً جُلودُها

ويقول تأبط شرا :(٢)

هَلاّ سَألْتَ عُمَيْرا عن مُصاوَلَتي ... قوماً منازِلُهم بالصَّيْفِ أَلْبانُ

ويقول :(٣)

وَلا ابنِ رِياحٍ بالزُّلَيْفاتِ دارُه ... رِياحَ بنَ سعدٍ لا رياحَ بنَ مَعْقِلِ

إن هذه الأماكن وما ارتبط بها من رصيد من البطولة في الماضي هي البديل للشاعر عن هذا الحاضر . وليس هي المبرر النفسي لما هو عليه فحسب ، ولكنها قرة عين الشاعر في استجابة المستقبل . فهذا الشنفرى يتجافى جنبه عن التمكث ما لم يظفر بأعدائه ، فيقول :(٤)

كَأنْ قَدْ فَلاَ يَعْزِزْكَ مِني تمكُّثي ... سَلَكْتُ طَريقا بَيْنَ يَرْبَعَ فالسَّرْدِ
وإني زَعيمٌ أنْ أَلَفَّ عَجاجَتي ... علىٰ ذِي كِساءٍ مِن سَلامَانَ أو بُرْدِ

---

(١) الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٥١ .
(٢) ديوانه ، ص ٢١١ . ألبان : موضع .
(٣) ديوانه ، ص ١٧٢ . الزليفات : موضع في ديار بني تميم .
(٤) ديوانه / الطرائف الأدبية ، ص ٣٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول :[١]

وَيَوْماً بِذاتِ الرَّسِّ أوْ بَطْنِ مِنْجَلٍ هُنالِكَ تَبْغِي القاصِيَ المُتَغَوِّرا

وقد تزداد كثافة هذه الصور لهذه الأماكن في تجارب الشاعر بارتفاع حدة شعوره بالغربة ، اذ لا سبيل لعزائه في هذه الأحوال إلا التعلق بالماضي ربما جرت فيه أحداثه مع استشراق آفاق المستقبل .

ومن أهم ما ارتبط بمفهوم الوطن لدى هذه الجماعة ارتباطا عضويا ما يسمى بالمرقبة وقد أفرد لها من الحديث في الفصل الأول ما يغني عن ذكرها هنا .

---

(١) ديوانه / الطرائف الأدبية ، ص ٣٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الطبيعـــــــة

الطبيعة قوة غامضة ولغز معقد حيّر الإنسان منذ درج على هذه البسيطة ، لأن الكون يبدو حضورا غير متناه أمام قوى إنسانية متناهية ٠

أمام هذا اللغز تبنى علاقة الانسان على مستويين وفقا لحاجاته الحيوية والنفسية فهي علاقـــة تحالف وتعاطف بين الانسان والطبيعة حين يجد الانسان الأمن ويمتلك ما يقيم أوده من القوت والماء ٠

وهي علاقة تأزم حين لا يجد الأمن وحيث تضن بمتطلباته ، كأن يحس المسغبة أو انحباس الغيث ، وحين تصبح أساسا للتفاوت في الرزق والعيش أو تشكل مجالا فسيحا للهموم والليالي الساهدة وراء المراقب والمرابيء ٠ واذا كانت بعض الشعوب " يطغى عليها الشعور بالنهائي كالشعوب الأوروبية ، وبعضها اللانهائي والأولى تشخيصية والثانية تجريدية النزعة والأولى تتفاعل مع الطبيعة في فرح والأخرى فـــي خوف ، الخوف الميتافزيقي كما يسميه " هربرت ريد " ٠[1] فان العربي الجاهلي جمع بين الأمريـــن : الخوف والفرح - وإن كان الأول هو الأغلب ٠

وقد يكون لشيطان شعره على حد زعمه - ذلك الذى يلهمه الشعر علاقة في ذلك ، فهو يعيش كمـــا يتصوره الشاعر في بطون الوديان والمسالك الضيقة ، وتلك الأماكن تشعر بالرهبة أكثر من الانتعاش علـــى خلاف ما نجده عند الاغريق ، واله شعرهم الذى جعلهم اكثر تأملا وتعشقا للجمال وهو الوسيط بـــين الانسان والعقيدة ٠ أمام هذا الكون الهائل وقف العربي ،فتولدت عنده أحاسيس متنوعة من التعظيـــم والرغبة والترقب والتحدى والاستسلام واليأس ، إنها حينـــا مشهد ممتع يحتضن هذا الانسان ويدفعـــه إلى ارتياد المجهول من فضائه ، وحينا قوة كامنـــة أمام متطلباته ٠ وليست مناهج عبادته الوثنيـــة وعبادته لظواهر الكون إلا دليلا على رهبته من الطبيعة وما يكتنفها من أسرار ٠ فهل كانت علاقـــة الصعاليك بالكون ومظاهره هي العلاقة نفسها عند سائر الجاهليين أم كانوا ذوى منهج آخر ؟

الحقيقة أن الاستجابة لمظاهر الكون خاصية مشتركة في الفكر الإنساني مهما اختلفت أزمنتـــه وأمكنته ، وسواء أكان مبعثا لاكتناه الصراط الحق أم شعاب الباطل ٠

والشعراء الصعاليك ليسوا أبناء هذه البيئة الصحراوية فحسب ، ولكنهم زادوا عن أبناء عصرهم فيما واجهوا من صراع وضر وعوائق جعلهم دائما في قلق وحيْرة ٠ وفي هذا القسم من البحث سأعمـــل على رصد ما انفسحت له أشعارهم لمظاهر الكون من الأرض وما عليها ، ومن أمطار وكواكب وغير ذلك ، لأنفذ منه الى حقيقة موقفهم ، وطبيعة استجاباتهم للطبيعة ، وفيما يلي عرض لأهم الظواهر الكونيـــة التي سجلتها أشعارهم ، وقد ملْت الى ضم ما تجانس من هذه المظاهر أو تماثل أو تواصل على نحـــو تقريبي تجنبا لتجزئة الموضوع الواحـــد ٠

---

(١) الفن والإنسان ، د٠ عز الدين اسماعيل ، ص ٢٠٢ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأرض وبعض مكوناتهـــا[١]
في شـــعرهم

نقطة الملتقى للشعراء الصعاليك التنقل واختراق حواجز الأمكنة وقتال كل من يعترض حركتهـــم ، ولعلهم ينفردون بالانتشاء في مواقف يعز وجودها لغيرهم . من ذلك رفض الواقع ، والاستئناس بالأوابـد وقطع المفاوز والتلذذ بالهرب من وجود الأعداء وكونهـم طعمة للطير والحيوانات بعد الموت .

من هنا كانت الأرض ميدان هذه الحركة ، وهي بنفس الوقت بفضائها وحواجزها وقنن جبالهـــا ومفاوزها هبة الصعاليك ومستودع أمنهم ومعاشهم حين يستبد الظالم ويستأثر الطامع ويمعـــن ذوو الأنساب بالتطاول والادعاء .

وفي الطبيعة / الأرض وما عليها ما يعوض الصعلوك عما افتقده في المجتمع .

في استقصاء لمظاهر الطبيعة / الأرض وجد أن ما قيل فيها يشغل جزءا كبيرا من الشعـر ، واذا عرفنا أن الصعلوك عاش مشردا مطاردا ، وأنه عزف عن المجتمع المتغلق ، وأنف من الثبات والاستقرار ، عرفنا أن هذه المظاهر الكونية لا بدّ أن تحتدم في ذهنه وبالتالي تزداد في شعره .

فعروة مثلا - وقد كان من أشدّ الصعاليك حرصا على رعاية أحوال الناس في البؤس والعوز ، ومـن أكثرهم تشجيعا لهذه الطائفة على الضرب في الأرض والهجوم على الأغنياء ، اذ تراءى له أن هـــذا الأسلوب هو حق الضعيف على القوى كما تبين في موضع سابق - لا سبيل لتفسير وفرة هذه المشـــاهد الكونية في شعره بمعزل عن مضطربه الواسع في آفاق الأرض ، اذ ارتبط به وصف ما شاهده أو تمثلـــه أو تكيف به .

فعروة وغيره من الصعاليك قد ذكروا كثيرا مما ترك آثارا في أنفسهم من الأرض وما عليها ، مـن ذلك : القاع ، والجندل ، والمفازة ، والجبل وغيرها ، لأنها أيقظت في انفسهم معاني كثـــيرة ، ولنتابع هذه المشاهدات في أشعارهم :

يقول عروة :[٢]

أَرِقْتُ وَصُحْبَتي بِمَضيـــق عَمـــق لِبَرقٍ من تُهامـــةَ مُسْتَطيرِ

---

(١) يقصد بـ " بعض مكوناتها " ما يدخل في تكوين الأرض من سهول وجبال وصخور ومفاوز ... الخ

(٢) ديوانه ، ص ٥٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقوله في موقف شبيه بما سبق :(١)

تَحُلّ بوادٍ من كَـراءٍ مُضِلّـــةٍ تُحاوِلُ سَـلْمى أن أَهابَ وَأحضـــرا

ان الحياة كما يفهم من قوله لا تتأتى له طوعا ، ولكنها تتأبى عليه ، فعلى الرغم من اتساع الـــواد ، ورحابة الفضاء ، فإنهما يضيقان بوجود الشاعر ، وهما في الحقيقة لم يضيقا إلا داخل احساسه ، وما ذلك إلا لشعوره بالفزع . وهو هنا لم يقف عند السطح الخارجي للمظهر الطبيعي ، ولكنه أقام معه علاقـــة تقابل بين ما يريده من احراز الموقع ، وبين ما يشعر به من الضيق .

لكن هذه الأماكن وان ضنت عليه بالأفراج وبمطالب الحياة الأولية من قوت يقيم الأود وماء يبـــل الكبد ، فإن في هذا ابتلاء لعزيمته واحتماله ، من ذلك قول عروة :(٢)

وَغَبْراءَ مخشيٍّ رَداها مَخُوفَـــةٍ أخوها بأسباب المنايا مغـــــرَّرُ

فاذا كانت الغبراء تبث الرعب في قلوب الناس فإنها تخلق عند الشاعر علاقة جديدة تتمثل في التكيف مع الخطر والتعايش معه . ومنه قوله :(٣)

إذا مَا هَبَطْنا مَنْهَـلاً في مَخُوفَـةٍ بَعَثْنا زبيئاً في المرابيء كالجَـذل

وقوله :(٤)

يُقَلِّبُ في الأرضِ الفَضاءِ بِطَرْفِـــه وهُنّ مَناخـاتٌ ، ومِرْجَلُنـا يُغْلِي

وقوله :(٥)

بِدَيْمُومَةٍ ما ان تَكادُ تَرى بِهـــا من الظِّمْأِ الكُومَ الجِـلادَ تَنَـوَّلُ

وقوله :(٦)

إلى حَكَمٍ تناجَـل مِنْستَـماهـا حصى المِعْزاء من كَنَفَـيْ حَقيـلِ

---

(١) ديوانه ، ص ٦١ .
(٢) ديوانه ، ص ٧٧ .
(٣) ديوانه ، ص ١١٦ . الجذل : أصل شجرة .
(٤) ديوانه ، ص ١١٧ .
(٥) ديوانه ، ص ١٢٤ . الجلاد : هي بقرة لا تجد ما ترعى ولا ما تشرب .
(٦) ديوانه ، ص ١٢٩ . تناجل : ترامى بالحصى . حقيل : موضع .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد يمكن القول إن هذا النوع من الضيق في المادى المحسوس قابله الشاعر الصعلوك بنقـــاء نفسي تمثل في الصبر على ارتياد المسالك الوعرة وارتقاء الأماكن السامقة بشجاعة نادرة ٠

ومن ذلك قول تأبط شرا :(١)

وَزِلْتُ مسيّراً أهْدِي رَعيـــــلاً أأمّ سَوادَ طودٍ ذي نِقـــــاب

وقوله :(٢)

فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فَـــزَلّ عنِ الصَّفـــا
به جُؤْجُؤٌ عَبْـلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّـــرُ

وقوله :(٣)

وَشِعْبٍ كَشَلّ الثّوبِ شَـكْسٍ طَرِيقُـــهُ
مَجامِـعُ صوحَيْـــه نِطـافٌ مَخاصِـرُ

وقوله :(٤)

به من رُخاءِ الدَّلْـــوِ بِيضٌ أقَرَّهَـــا
جَبـار لِصَـمِّ الصَّخْـرِ فيه قُراقِـرُ

وقوله :(٥)

مِنَ الحمِيِّ هَزْرُوفٌ يَطِـــيرُ عِفـــاؤُه
اذا استدرج الفَيْفـــا وَمَدَّ المَغابِنـــا

القارىء لهذه الأبيات يحس وراءها نزعة قوية مستمدة من الأرض ٠ فإن كانت هذه الأرض تشكل قـــوى كبيرة تتمثل في جبالها وصخورها ووديانها ، فلعل كل عنصر منها يجسّد قيمة من قيم الشـــاعر :

---

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ٧٢ ٠ رعيلا : القطيع من الخيل ٠ النقاب : الشق الضيق في الجبل ٠
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ ٠ الجؤجؤ : الصدر ٠
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٩٤ ٠ شلّ الثوب : خياطته ٠ صوحيه : جانباه ٠ نطاف المخاصر : قليلة صغيرة ٠
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩٥ ٠ النجاء : السحاب الذي أراق ماءه ٠ الجبار : السيل ٠ قراقر : صوت اصطدام الماء بالصخر
(٥) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٦ ٠ الحمي : المتجرد والشعر ٠ الهذروف : السريع ٠ الفيفا : الصحراء

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه الرغبات (اظهار القدرة) ، التي لا تنفك تلازم حركة الشاعر في الطبيعة نجدها في تطاير الأمعز الصوان من قدميه كما ذكر سابقا ، وفي نشوته إذا خرج من الوادى الذى يقع بين مشعل والجبا ، وفي قطعه للخرق الذى يشبه الترس ، وفي تربصه على قنة الجبل ، كما يفهم من قوله :(١)

ووادٍ بَعيدِ العَمْقِ ضَنكٍ جُماعُـــه مَراصِدُ أيْمٍ قانِتِ الرَّأْسِ أخْـــوَف

ومن قوله :(٢)

وَحُوشٍ مُوىً زادِ الذِّئابِ مَضِلَّـــةٍ بَواطِنُـــه للجِنِّ والأُسْدِ مَأْلَـــفْ

ومن قوله :(٣)

وَمَرْقَبَةٍ عنقاءَ يَقْصُرُ دونَهـــــا أَخُو الضِّرْوَةِ الرِّجْلُ الحفيُّ المخفَّفُ

وهكذا يلح هذا الشاعر على استمرار وجوده وصموده من خلال هذه العلاقة ، مثبتا أن غيابه عن المجتمع لا يعني توقف فاعليته ، ولكنه تأكيد لذاته وانتسابه لنمط جديد من الحياة .

وتكاد تكون هاتيك الدوافع نفسها موجهة لسائر الشعراء الذين جمعتهم هذه الظروف ، موجهة لهم فيما صاغوه في الطبيعة / الأرض . ولكن مع أخذ الحيطة من أن لكل منهم ضمن تجربته طابعه الفردى الخاص . وأنه مهما تطابقت الظروف فلا يمكن تحليل التجربة من بعد واحد .

فالسليك مثلا لا يعرف التوقف أمام الحواجز ، ولكنه يقتحمها ، ويجعل غير الممكن ممكنا سائغا له ، ففي قوله :(٤)

بَكى صُرَدٌ لمّا رَأى الحيَّ أعْرَضَتْ
مَهامِهُ رَمْلٍ دونَهم وَسُهُوبُ

تبدو المهامة موطأة الآكناف أمامه ، بينما تبكى غيره ... وما هذه الطواعية التي ينسبها للمهامه أمامه إلاّ وسيلة يتمسك بها ليعطي نفسه خصوصيتها .

---

(١) ديوانه / الطرائف الأدبية ، ص ٣٨ . قانت : مطرق .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٨ . الحوش : بلاد الجن . موى : زاد الذئاب .
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ . عنقاء : طويلة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب ضراها للصيد .
(٤) شعر السليك ، ص ٤٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجبل يوحي بكبريائه ، والوادى بضياعه ، والطرق الشكسة بتحدّيه ، وصُمّ الجبال وبجارها بمناعتـــه . ومثل هذا الاسلوب المتمثل في خلع صفات محسوسة على المعنويات وعكس ذلك لم يكن غريبا على شـــعراء ذلك الزمان .

ومن خلال هذه العلاقات وغيرها يقدم لنا الشاعر صورة لنفسه ، ويمكننا على ضوء ذلك فهم صـــورة الغيلان ومواقفـه معهـــا ، ذلك أن ما في العالم الخارجي من عناصر القوة كالأسد والسيف قد استنفـــذه الشعراء ، فعليه أن يبحث عن العالم الغيبي بعيدا عن المحسوسات ، فتم له ذلك مع الغيلان ليبلـــــغ حدا يتفرد به .

وهذا الشنفرى أيضا يتعرض لصدمة اجتماعية ونفسية عنيفة من مجتمعه فمما تناقلته كتـــب الأدب القديمة ، كالأغاني ، والشعر والشعراء ، والمفضليات أن الشنفرى " وقع أسيرا في بني فهم ، فلم يـــزل فيهم حتى سبت بنو سلامان رجلا من فهم ، ففدته فهم بالشنفرى ، فكان في سلامان لا تحسبه إلا أحدهم ، فلما انكشف له الأمر ذهب مغاضبا الى من اشتراه من فهم ، فأخبره أنه من الأواس .[١]

إن هذه الحادثة المبكرة في حياة الشنفرى ، وما تبعها من أحداث جسيمة كقتله للكثير كما تذكر الروايات في الكتب السابقة لا بدّ أن تغرس في نفسه الحقـد والدخـــن والخوف والتوجس من المجهـول . فكان لا بدّ من البحث عن البديل عوضا عن الحياة في مجتمع آمن . فكانت الطبيعة / الأرض المهد الأول الذي استقبله على نحو ما لمسناه عند عروة وتأبط شرا . يقول الشنفرى :[٢]

وَخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْـــرٍ قَطَعْتُـــه ... بِعامِلَتَـــيْنِ ظهـــرُه لـيـس يَعْمَـلُ

ويقول :[٣]

وألحقت أولاه بأخـــراه موفيـــــا ... على قُنّـةٍ أقعِـي مِرارا وأمثُـــلُ

فعلى الرغم من قسوة الطبيعة فإن معايشتها أمر حتمي ، وعلى الشاعر أن يصارع ليجعل بعض جوانبهـــا منسجما مع إيقاع حياته . وهذا الافتراض تحول الى رؤية شعرية ، ففي كثير من المواقف يقدم لنا نفســـه في صورة مكتنزة بالعنف ليبرز فرديته ، وبذلك تصبح الطبيعة / الأرض بما فيها من صخور ومفاوز وقنن وسيطا لاطلاق قدراته ، فهي كعالم الأحلام الذي يظهر فيه من دخائل الانسان ما لا يظهر في عالم الواقع .

---

(١) المفضليـــات ، ص ١٠٨ .
(٢) اللامية ، ص ٧٠ . الحزق : الأرض الواسعة . العاملتان : يقصد رجليه .
(٣) اللامية ، ص ٧١ . موفيا : مشرفا . أضْعي : أقعـــد . أمثل : انتصب .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما صيحته في وجه أصحابه قائلا :[١]

يَا صاحِبيَّ ألا لا حيّ بالوادى
إلّا عبيدَ ، وآمٍ بَيْن أذْوادِ

ما صيحته تلك إلا صورة أخرى لتناغمه مع الطبيعة في الوقت الذى يتوجس منها غيره خيفة .

واذا كان له من فضل اختصاص على غيره من الصعاليك الشعراء في عصره فإنما هو في درجة إخضاعه لهذه المسالك .

وشعره لا يصور لنا قائله بأنه مطارد كغيره من لداته ، ولكنه يشعرنا بأن حركته وضربه في مجاهل الأرض إنما يقعان بعد تدبر وتفكر . وندر أن نجد من الشعراء الصعاليك في هذا المضمار بالذات من تأمل الجمال في الأرض أو بعثه في كثبانها كما في قول السليك مثلا :[٢]

كأن مجامِعَ الأرْدافِ منها
نقىً دَرَجَتْ عليه الرّيحُ هارَا

وكقوله :[٣]

كأن مَفالِقَ الهاماتِ منهُم
صرايات تَهادَاها الجَوارى

فمثل هذا الوصف الدقيق لا يصدر إلا ممن تهيأت له فرصة التأمل فيما أرى . ومما يشير الى خبرته المتأنية في ذلك قوله أيضا :[٤]

يا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُثْكولْ
وَرُبَّ وادٍ قد قَطَعْتُ مَشْبُول

---

(١) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥١ . آم : جمع أمة . أذواد : جمع ذود / الجماعة .
(٢) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥٥ . النقى : الكثيب من الرمل . هارا : سقط وتهدم .
(٣) شعر السليك بن السلكة ، ص ٥٨ . صرايات : جمع صراية وهي ثمر الحنظل المصفر .
(٤) شعر السليك بن السلكة ، ص ٦٣ . العثكول : عذق النخلة . مشبول : ذو أثبال (أسود) .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولئن قلّ جلاء هذه الصور الشعرية عند باقي الشعراء المعاليك كأبي كبير الهذلي ، وأبي الطمحان ، والأخمير السعدى ، وحاجز الأزدى ، وأبي جندب ومالك بن حريم وقيس بن العيزارة ، فذلك للتفاوت ، البيّن في أنماط حيواتهم من جهة ، ولتفاوت حظوظهم في الشعر وما روى لهم من جهة أخرى . ومما يلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يحظ شعرهم بالجمع كما حظي شعر تأبط شرا والسليك وعروة . ولكن لا شبهة بأنه لم يفهم التأسي بمظاهر الطبيعة ، فما أحد منهم عاش آمنا لا يمسه الضر . ومن هذا القليل قول أبي كبير :(١)

يَنْسُلْنَ في طُرُقٍ سَباسِبَ حَوْلَه ... كَقِداحِ نَبْلٍ محبِّرٍ لم تُرْصَفِ
زَقِبٌ يظلّ الذئب يَتْبَعُ ظِلَّه ... من ضِيق مَوْردِها استِنانَ الأخْلَفِ
ولقد أجَزْتُ الخِرق يركُدُ عِلْجَه ... فوق الإكام إدامةَ المُسْتَرعِفِ

وقوله :(٢)

وَلَقَدْ ربأْتُ إلى الرجال تواكَلوا ... حَمَّ الظَّهيرةِ في البَقاعِ الأطْوَلِ
وَعلَوْتُ مُرْتَبأً على مَرْهوبَةٍ ... حَصّاءَ ليس رقيبُها في مِثْمَلِ
عيطاء معنفة يكون أنيسها ... ورق الحمام جميمها لم يؤكَلِ
وإذا رميتَ به الفجاجَ رأيتَه ... يَنْضو مَخارِمَها هَوِيَّ الأجْذَلِ

ومن هذه القلة أيضا قول مالك بن حريم :(٣)

وَقلْتاً قَرَتْ فيه السَّحابَةُ ماءَها ... بأنيابِها والفارسيِّ المُشَعْشَعا

وقول الأعلم :(٤)

أغرَّ جذيمةَ والرِّدا ... ءُ كأنّه بأقبَّ قارِبْ
خاظٍ كعِرقِ السِّدْرِ لَجَّ ... سبقِ غارةَ الخُوصِ النّجائِبْ

---

(١) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ . السباسب : المستوى البعيد . المحبّر : المحسّن . الزقب : الضيق . الاستنان : العدو . الأخلف : المعوّج . الخرق : الأرض البعيدة . المسترعف : الذى يصدمه الحرّ فيطأطيء رأسه .

(٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٩٦ . ربأت : كنت ربيئة . مرهوبة : مخوفة . حصاء : ليس فيها نبات . ليس رقيبها في مثمل : (ليس في حفظ). العيطاء : الطويلة العنق . الجميم : النبات المرتفع .

(٣) الأصمعيات ، ص ٦٣ . القلت : النقرة في الجبل . قرت : جمعت . المشعشعا : الممزوج بالماء .

(٤) حماسة البحترى ، ص ٥١ . ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٨ . أقب : حمارا أقب البطن . قارب : يقرب الماء . خاظ : ممتلىء . الخوص : الغائرات العيون من الإبل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقال أبو الطمحان :(١)

فإن بني لأمِ بنِ عمروٍ أرومـــــــةٌ ... عَلَتْ فَوْقَ صَعْبٍ لا تُنالُ مَراقِبُـــه

وقوله :(٢)

لِمَنْ طَلَلٌ عافٍ بذاتِ السَّلاســـــل ... كَرَجْعِ الوَشُـــومِ في ظُهورِ الأناملِ

وقوله :(٣)

وجرّ عليه السيل ذيلا كأنـــــــه ... إذا التفّ في المَيْثاءِ أُنصافُ ساحل

وقول حاجز الأزدى :(٤)

بِرَهْرَهَةٍ يَحارُ الطَّرفُ فيهـــــــا ... كَحُقَّةِ تاجرٍ شُدَّتْ خِتامـــــــا

وقوله :(٥)

وَنَحْنُ صَبَحْنا الحيَّ يومَ تَنُوفَـــــــةٍ ... بِمُلْمُومةٍ يَهدِي الشُّجاعَ وَبِيدُهـــا

وقول الأهيمر :(٦)

وَتَيْهاءَ بَزُورٍ القَطا عن فَلاتِهـــــــا ... إذا عَسْبَلت فوقَ المِتـــان حَـــرورُ

وقول قيس بن الحدادية :(٧)

تَلَقَّطْنَ ضَيْطارى خُزاعةَ بعدَمـــــــا ... أَبَرْنَ بِصَحْـــراءِ العميمِ المُلَوَّحـــا

النماذج السابقة سواء تحدث فيها الشاعر عن نفسه مباشرة ، أو من خلال استعراض مظاهر الطبيعة السابقة واندماجه بها تحديا أو انسجاما فان ما يقدّم لنا من هذا النمط الشعرى يعكس لنا رؤاهم الشعرية باضافتـــه بعداً آخر يكشف عن قدرته ومكانته .

(١،٢،٣) الأغاني ، جـ ١١ ، ص ١٣٢ .

(٤،٥) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٠ .

(٦،٧) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٣ . تيهاء : مفازة يضل بها الانسان . عسبل : اختلف الناس بعضهم الـــى بعض . المتان : ما صلب من الأرض .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الليـــــــــل

لم يظفر العربي في الجاهلية بما يؤهله لحسن التوافق والتآنس مع الزمن بصورة عامة والليـــــل بصورة خاصة ، ذلك لأنه لم يكن يحمل من الخبرات العلمية أو الدينية ما يوجه حياته لذلك نفســـــيا وسلوكيا . فظلت مشكلاته مع الليل خاضعة لأهوائه وأوهامه . أما الصعلوك فبحكم انفصاله عن المجتمع انفصالا أدى الى اختلال توازنه العاطفي بالاضافة الى اشتراكه مع أبناء عصره بافتقاره الى ما يوجه حياتـــه كما ذكرت ، فاننا نتوقع أن تكون علاقته مع الليل المغلف بالأسرار أشد اضطرابا وأكثر اختلالا .

وليس هنالك ما يصلح مدخلا لعلاقته مع الليل أصدق من شعره . فماذا قال الشعراء الصعاليـــك في الليـــــل ؟ .

يقول تأبط شرا :(١)

تَعسّفْتُه باللّيْـل ، لَمْ يَهْدِني لَـــهُ ... دَليلٌ ، ولم يُحْسِنْ لي النّعْتَ خابِـرْ
لَدُن مَطْلَعِ الشّعْرَى ، قَليلٌ أنيسُـــهُ ... كأنّ الظّخا في جانِبَيْه مَعاجِـــرْ

ويقول :(٢)

يَقُولُ لِيَ الخَلِـيّ وَباتَ جَلْســـــا ... يُظَهِّر اللّيلِ شُدَّ به العُكُـــومُ
أَطَيْفَ مَنْ سُعادَ عَناكَ مِنهـــــا ... مَراعاةُ النّجوم وَمن ..يهيـم
أَواخِذُ خُطّةٍ فيهـــا ســـــواءٌ ... أَبِيتُ َ ولَيْـلُ واتِرِهـــا نَـــؤُومُ ؟

ويقول :(٣)

وَأَخْطَأَهُمْ قَتْلِـــي وَرَفّعْـــتُ صاحِبي ... علىٰ اللّيْـــلِ لم تُؤْخَذْ عَلَيّ المَخاتِلُ

ويقول :(٤)

وَأَدْهَمَ قَدْ جَبْـتُ جِلْبابَـــــه ... كما اجْتابَت الكاعِبُ الخَيْعَـلا

---

(١) ديوانه ، ص ٩٤ . تعسفت : سرت على غير هدى . الخابر : الذى يخبر بالشيء . مطلع الشعرى : كناية عن أشد الحر . الظخاء : السحاب الرقيق . المعاجر : جمع معجر : ثوب تلفه المرأة على رأسها .
(٢) ديوانه ، ص ٢٠١ . العكوم : ما يشدّ به فم البعـــير .
(٣) ديوانه ، ص ١٦٠ .
(٤) ديوانه ، ص ١٦٤ . الخيعل : ثوب تلبسه المرأة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن متابعة ما قاله تأبط شرا في الليل يشير الى أنه ينزع الى إضفاء جوّ قصصي يزخر بالبطولة النادرة يشبع بها نفسه ، تعويضا عما افتقده في المجتمع . ففي عرض مثل هذه الصور بأسلوبها القصصي تشخيص وإحياء للذكرى ، يحتاجها الضعلوك اذ قصرت به الظروف عن ادراك أبسط مطالبه الحياتية الضائعة بين الماضي والحاضر .

والليل اذ يستعيض به الشاعر عما يحلم به ، وهو أيضا المنبثق لما يضمره اللاوعي عنده من أطياف الذكرى المؤنسة له في عزلته .. هو اذ ذاك مقدس لدى الشاعر . ولا شبهة عندي في حرص الشاعر على تأكيد ذاتيته من خلال عرضه لصور الليل كما تألقت في المظاهر الأخرى . وحسب القارىء أن يلاحظ ذلك في تتابع الضمائر التي تعود على الشاعر بجميع صورها ، كتاء المتكلم وبائه ، والضمائر المستترة (أنا) في الكلمات :

تعسفت ، يهدني ، لي ، أطيف ، أواخذ ، أبيت ، قتلي ، صاحبي ، رفعت ، قلت ، جبت .. الخ.

ومما يتجلى فيه هذا النغم قوله :(١)

طَرَحْتُ لَهُ نَعْلا من السّبْت طَلّـــةً ... خِلافَ نَدَىً من آخرِ اللّيلِ مُخْضَلُّ

ومنه قوله :(٢)

أَأَطْرُدُ نَهْبًا آخِرَ اللّيلِ أبْتَغِـــي ... عُلالةَ يومٍ أنْ تَعُوقَ العَوائِـقُ ؟

ومنه :(٣)

عارِي الظّنابيبِ مُمْتَدّ نَواشِـــرُه ... مِدْلاجُ أدْهَمَ واهي الماءِ غسّـــاقِ

وقوله يصف صاحبه الشنفرى :(٤)

فَلَمْ تَرَ مِن رَأْيٍ فَتيلاً وحـــــاذَرَتْ ... تَأيُّمَها مِنْ لابِسِ اللّيْـلِ أرْوَعَـا

---

(١) ديوانه ، ص ١٨٥ . السبت : الجلد المدبوغ . الطلة : الشربة من اللبن أو الخمر .

(٢) ديوانه ، ص ١٢٢ . النهب : الغنيمة . الغلالة : ما يتعلل به الانسان من طعام وشراب .

(٣) ديوانه ، ص ١٣٦ . الظنابيب : جمع ظنبوب وهو حرف عظم الساق وذلك كناية عن الاشتداد وضمور الجسم وعدم ترهله .

(٤) ديوانه ، ص ١٢٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ما يميز الشاعر الصعلوك هنا عن غيره في هذا المجال هو أنه أكثر استفاقة في الليل منه في النهار ، لأن الليل بالنسبة له مَعْبر الماضي واستحضار للآتي . كما يمتاز هذا الجزء من شعر الصعاليك بمزج الواقع ببعض الخوارق كتحويل الأوابد من الحيوان الى حالة إنسانية ، فضلا عن تجسيد ما لا يدرك بالحواس الى واقع محسوس ، كبذل تأبط شرًا لحمه للنسور في قوله :(١)

وإن تَقْعِ النُّسُوْر عَلَيَّ يَوْمًا فَلَحْمُ المُعْتفِي لَحْمٌ كَرِيم

وقوله أيضا بعد : وأدهَمْ قد جبت جلبابه -(٢)

فأصْبحْت والغُولُ لِي جَارَةٌ فَيا جارَتَا أنتِ مَا أهْوَلا

وكذا قوله : (٣)

لا شَيْءَ أسرعُ مِني ليس ذا عُذُرٍ وذا جناحٍ بِجنبِ الرِّيدِ خَفَّاقِ

وعلى نفس الطريق من اطلاق الطاقات واشباع الحاجات يمضي عروة . فالذى يقضي ليله مثلا في كنف أسرة أسيرا لمأكله يلقى الازدراء ويستحق اللعنة عند عروة ، فالليل انطلاق ، لا مجال فيه للتبعية والاحتواء . يقول عروة في ذلك : (٤)

لَحَى اللهُ صُعْلوكًا إذا جَنّ لَيْلُه مَضَى في المَشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ

لكنّ تعبئة زمن الليل عند عروة أكثر انتفاعا وأقل ذاتية من غيره من الشعراء ، كما يتبين في شعره ، ذلك أن عروة يهدف في أكثر غاراته إلى انتزاع ما يمكنه من حقوقه وحقوق الآخرين ممن منعوه من المجتمع، وهذه الأفعال قد تجد ما يبرر مشروعيتها اذا فهمت حق فهمها ، وقصر معالجتها من قبل الطرف الآخر ، فليس التأهب للغزو والنهب بحد ذاته هو ما يشيع الطمأنينة في قلب عروة ، اذ يقول :(٥)

يُرِيحُ عَلَيَّ الليلَ أضْيافٌ ماجِدٍ كَرِيمٍ ومَالِي سارِحًا مالُ مُقْتِرِ

---

(١) ديوانه ، ص ٢٠١ .
(٢) ديوانه ، ص ١٦١ .
(٣) ديوانه ، ص ١٢٥ .
(٤) ديوان عروة ، ص ٧٠ .
(٥) ديوانه ، ص ٧٥ . يريح : يجيء بالأضياف .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد ارتبطت علاقته بالليل بهذه القضية . قضية الحقوق إلى مدى بعيد . يتضح ذلك في قوله :(١)

كَلَيْلَةِ شَيْباءَ التي لستُ ناسِيًا ... ولَيْلَتِنا إذ مَنّ ، ما مَنّ فَرْمَلُ

ففي هذه الليلة التي لا تمحى من ذاكرته كما يقول ، يرى الأغنياء ، تروح عليهم إبلهم بالعشاء ، أما ابل الشاعر وذويه في هذه الليلة فهي قدور سوداء (يقول ذلك على سبيل التألم والتهكم) . ويبرر ذلك قوله لسلمة بن الخرشب الأنماري :(٢)

وَلَقَدْ أتَيْتُكُمُ بِلَيْلٍ دامِسٍ ... وَلَقَدْ أتَيْتُ سَرَاتَكُمْ بِنَهَارِ

واذا كان قد استرفد ليله ونهاره ، فلم يصب شيئا كما يقول وقتئذ لم يبق من سبيل إلا الغارة المفزعة . يقول في ذلك :(٣)

وَقَدْ عَلِمَتْ أنْ لا انقِلابَ لِرَحْلِها ... إذا تَرَكَتْ مِنْ آخِرِ اللَيلِ دارَها

واكتناه العلاقات بين هذه الفئة وبين الليل تكشف عن النشاط والحركة والتواصل وامتلاك الحرية التي يحقق بها الصعلوك حاجاته الأساسية .

وبتأثير فاعلية هذا الجزء الزمني (الليل) ، يكتسب صخر الغي منه ألقا نفسيا :(٤)

أسَالَ مِنَ اللَّيلِ اشْجانَه ... كأنَّ ظَواهِرَهُ كُنَّ جُوفا
وذاكَ السِّطاعُ خِلافَ النِّجا ... تَحَسِبه ذا طِلاءٍ نَيِّفا

ويقول :(٥)

أرِقْتُ لَهُ مِثْلَ لَمْعِ البَشِـ ... ـيرِ يُقَلِّبُ بالكَفِّ قَرْضا خَفِيفا

---

(١) ديوانه ، ص ١٢٣ . شيباء : داهية . فرمل : فرسه .
(٢) ديوانه ، ص ٨٣ .
(٣) ديوانه ، ص ٨٧ .
(٤) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٠ . الأشجان : طرائق في الغلظ . كن جوفا : أي كأن ما ارتفع من الأرض كان واديا من كثرة ما حمل من الماء . السّطاع : جبل . ذا طلاء نيفا : بعيرا نتف من الجرب .
(٥) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتعدد هذا الحضور النفسي لليل في كثير مما يحبه الشاعر ، فصاحبه مثلا يستجيب لحالة من القوة والصحوة والاستنارة . كما في قوله :[١]

مَعي صَاحِبٌ داجِنٌ بالغَزاةِ ... ولَمْ يَكُ في القَوْمِ وَغْلا ضَعِيفَا

ويشاركه في شعوره هذا ما ألفه من حيوانات صحراوية ، فيقول :[٢]

يبيت إذا ما آنَسَ اللّيْلَ كانِسًا ... مَبيتَ الغَرِيبِ ذِي الكِساءِ المُحارِبِ

وهذا الوعل المذكور هو إنسان الشاعر الذى لا ينام في ظل ما ينام فيه الناس الخاملون ، فهو متوثب دائما توثب المحارب .

على أن الشعراء الآخرين : أبا الطمحان ، وأبا جندب ، والسليك ، والأزدى ، والأهيمر ، وأبا كبير رغم ندرة ما قالوه في هذا الموضوع فان ما جاء عندهم لا يخرج عن السبيل نفسه .

فالليل حين يمد رواقه يلقي عليهم نشوة الانتصار ، فهو مُقتحَمُهُم ومُعينهم على انتزاع حقوقهم . ومن هذا النادر قول الأهيمر :[٣]

فلليل إن واراني اللّيلُ حكْمُه ... وللشمس ان غابت عليّ نذور

وقول حاجز :[٤]

صباحَكِ وا سلمي عنّا أُمامَا ... تَحيّةَ وامقٍ وعمي ظَلامَا

وقول أبي كبير ، يصف أرضا خصبة :[٥]

يَرْتَدْنَ سَاهِرَةً كأنّ خَمِيمَها ... وَعَمِيمَها أسدافُ ليلٍ مُظْلِمِ

(١،٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٦ . الداجن : المعاود مرة بعد مرة .

(٣) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٨ .

(٤) الأغاني ، ج ١٢ ، ص .

(٥) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ١٠١ . الساهره : الأرض .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقوله :[١]

وَلَقَدْ وَرَدْتُ الماءَ فَوْقَ جِمامِـــــهِ مِثْلُ الفَرِيقةِ صَفَّيَتْ لِلْمَدْنَـــفِ

فاذا كان ينبوع الماء لا يستطيع اقتحامه الا بالمغامرة فان زمن هذا الاقتحام هو الليل .

وبهذا يمكن القول بناء على هذه الرؤية ، إن الليل يشكل لهم وقت الانفتاح والاقتحام لما فيه معاشهم في الوقت الذى يشكل لغيرهم الانغلاق والسكوت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(١) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ . الفريقة : حلبة للنفساء .

الشمس والكواكب

لا يجد الدارس لهذه المظاهر الكونية لدى الشعراء الصعاليك إلا شذرات قليلة ، يدور أكثرها حول وصف الشمس المتوقدة ، وعدم مبالاة الشاعر بأثرها .. اذ لا يجد أكثر من ذلك متمثلا بقول أبي خراش :(١)

وَيَوْمًا قَدْ صَبَّرْتَ عَلَيْكَ نَفْسِي ... مَعَ الأَشْهادِ مُرْتَدِيَ الحَرُورِ

وقول أبي كبير :(٢)

وَلَقَد صبرت على السَّمومِ يَكِنُّنِي ... قَرِدٌ على اللَّبَّاتَيْنِ غَيْرُ مُرَجَّلِ

وقول السليك :(٣)

فَما ذَرَّ قَرْنَ الشَّمسِ حتى أَرَيْتُهُ ... فَصَارَ المنايا والفُؤادُ يَذُوبُ

وقول عروة :(٤)

أَخَذْتَ وَرَاءَنَا بِذَنَابِ عَيْشٍ ... إِذا ما الشَّمْسُ قَامَتْ لا تَزُولُ

ومثل هذه المشاهد يحتاج إلى وقفات فنية متأنية ، وتقتضي نوعا من الاستغراق الذي يوحي للشاعر معاني جميلة وصورا زاهية . وأكثر ما جاء من تلك الأصداء يعكس نوعا من التفاعل بين الشاعر وبين آثار الشمس ، فيه اظهار لصبرهم وتمرسهم بالحياة .

وتحرى " الإنسان " في الشذرات السابقة لا يشق على المتأمل ، فهي تسفر عن صورة للإنسان الصابر المقتحم لأوار الشمس . الذي يزداد اقتحامه لذلك مع احساسه بأنه منبوذ أو مطارد ، وفي ذلك تحقيق لذاته ، فلا الحرور ، ولا السموم ، ولا شدة الحر المذيبة يقهر إرادته .

وثمة سبب آخر يمكن الأخذ به في تفسير ضآلة ما قيل في الشمس والكواكب من شعرهم قياسا بأشعار غيرهم في عصرهم ، وهو أن أكثر ما وقع في شعر غيرهم في هذا المجال كان يتجلى فيه صور

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٩٨ .
(٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٩٨ . قرد : تجعد وتلبد شعره ولم يغسله .
(٣) السليك بن السلكة ، أخباره وشعره ، ص ٤٦ .
(٤) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٢٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الممدوحين أو الأحبة ، فارتبطت هذه المشاهد في أنفسهم ، وفي آمالهم وأحلامهم ، فانبعثت في أشعارهم ، كلما توالت على أذهانهم صور من يسترفدون أو يتعشقون .

أما الصعاليك ، فطبيعة حياتهم لم تسمح لهم أن ينشغلوا بهاجس الحب كثيرا وأن مسار حياتهم الذى يتمثل في انبتات الصلة بينهم وبين القبيلة وتقاليدها صرفتهم عن المدح ومعانيه ، فلم تكن الشمس عندهم كما هي عند غيرهم منبعا للجمال ، ولم تكن الأنجم أيضا عنصرا للإلهام ولكنها على الأكثر أوجه متجهمة مخيفة . يقول أبو خراش :(١)

فباتَتْ تُراعِي النَّجْمَ عَيْنٌ مَرِيضَةٌ ... لِما عالَها واعتادَها الحُزْنُ بالسُّقْمِ

---

(١) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ١٥١ . عالها : أثقلها أو بلغ منها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المـــــــاء

وفي القدر الذى يتحدث فيه الشعراء الصعاليك عن الماء وما يتصل به من سيول وغدران ، أو مـــا يوحي بنزوله من سحب وبرق ورعد ... في ذلك جميعه ما يدلّ على معاناتهم من شح هذا المطلب الأولـي للحياة . وقد لا ينالها بعضهم إلا بالمغامرة النادرة المثال . فالشنفرى يقدم نفسه لمحبوبته بصـــورة البطل المقتحم لينطلق الى ما يبل أوامه فيقول :(١)

وإنّكِ لَوْ تَدْرين أنْ رُبَّ مَشْـــرَبٍ مَخُوفٍ كَدَاء البَطْنِ أوْ هُوَ أخْـــوَفُ
تعَشَّفْتُ مِنْه بعـــدَما سقطُ النّـدى غَمَاليلَ يَخْشى عَيْلَهَـا المُتَعسِّـــفُ

ولا شك بأن هذا القول يحمل في باطنه تصويرا آخر للمعركة بين الصعاليك وبين واقعهم ، إذ لا ينالـــون شربة الماء إلا ببذل الروح واجتياز حواجز الخوف والتردد ، كما يوحي أيضا بايمان الشاعر بأن لا حيـاة مع العجز والضعف ، دون تخطي هذا الواقع . يقول الشنفرى :(٢)

وَلاَ ظَمأٌ يؤخّرنـــي وَحَـــــرٌّ ولا خَمْصٌ يُقَصِّـــرُ مِنْ طِلاَبِـــــي

وحين يشبه الشنفرى وجوه أصحابه بالماء المذهب قائلا :

سَراحينُ فِتْيانٌ كأنّ وُجُوهَهُـــــمْ مَصابيحُ أوْ لَـــوْنٌ مِنَ المـاءِ مُذْهَـبِ

ويذكر مرورهم بالماء قائلا :(٣)

نَمرُّ بِرَهْوِ الماءِ صَفْحاً وَقَدْ طَـوَتْ ثَمائِلَنا والزادُ ظَـنٌّ مُغَيَّـــبُ

فإنما يصور هذا الوصف عن تطلعات نفسية لغياب هذه الحاجة عنهم . فالشاعر لا ينظر الى هذا المظهـر في الطبيعة على الأغلب الا من خلال مشكلته الأساسية التي تملكت حياته .

وليس بدعا أن يأتي الشاعر بصورة القطا تتعاقب على هذا المورد ، دون أن تشرب إلا أســـآره (بقاياه) . كأنه يخبرنا بأنها قد عرفت حق هذا الإنسان ومكانته ، فشرب وشربت وكلاهما مأمون العاقبة .

(١،٢) الطرائف الأدبية ، ص ٣٩ / ديوانه . غماليل : روابي . عيلها : فقرها .
(٣) الطرائف الأدبية ، ص ٣٢ . الرهو : مستنقع الماء لا نعرج عليه مع حاجتنا اليه .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وفي مثل هذا الجو يتلهف عروة على الماء ، اذ يرى السحب تبشر بالخير والعطاء ، ولكنها سرعان ما تنقشع ، فيصبح ما يؤمله بعيد التناول ، كقوله في البرق :

إذا قُلْتَ استهلّ على قَديـــــــدٍ يَحُـورُ رَبابُـه حَـوْرَ الكَسِـيرِ

كما يقدم عروة صورا أخرى لما يعانيه من شدة الحر ، وهي صور لا تحمل قسوة الطبيعة فحسب ، ولكنها تعكس أيضا قسوة أولئك الذين كانوا سببا في تشردهم وتفتيتهم ، يقول في ذلك :(١)

إذا ما هَبَطْنا مَنْهَلاً في مَخُوفَـــــةٍ بَعَثْنا رَبِيئًـــا في المرابِيءِ كالجذل

ويقول :(٢)

بِدَيْمُومَةٍ ما إنْ تَكادُ تَـــرى بِهـــا مِنَ الظَّمْأِ الكُـومَ الجِلادَ تُنَـــوِّلُ

وهذه الصورة وإن كانت لا تخلو من مبالغة ، لكنها على أية حال تؤكد شكوى الشاعر في ظل الحيـــاة العـــامة .

ونفس الأزمة تقع على الكيان الجسمي والنفسي لصخر الفـي ، فحين يعوزه الماء لا يســتطيع أن يشق طريقه اليه الا بشق الأنفس ، يقول في ذلك :(٣)

وَماءٍ وَرَدْتُ علـــــــى زَوْرَةٍ كَمَشْيِ السَّـبَنْتي يَـرَاخُ الشَّـفِيفا

وفي هذا أيضا تجسيد للصراع الدائر بينهم وبين مجتمعهم .

وفي توارد ذكر الماء عندهم ما يوحي بسخط الشاعر على نوعية الحياة وما فيها من تفـــاوت جليّ بين إنسان تعوزه قطرة الماء وبين آخر خُصّ بالنعيـم وطيب الحيـاة .

وقد أسقط هذا الموقف على الطبيعة ... فكما يتبين لنا في المظاهر الطبيعية السابقة أنهـا كانت ممزوجة بهاجس الشاعر النفسي ، كنزعة في اظهار بأسه وجلده ، كذلك الحال في حديثه عـن الماء ، فانما يكشف عن رؤياه لواقعه من جهـة ، وعن قدرته على تخطي هذا الواقع من جهـة

---

(١) ديوان عروة ، ص ٥٥ . قديد : محل من مكة على مرحلتين . رباب : سحاب . الكسير : البطيء .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤ . الديمومة : الفلاة الواسعة . الكوم : الناقة الكبيرة . الجلاد : القوي .

(٣) ديوان الهزليين ، جـ ٢ ، ص ٧٤ . على زورة : ازورار . السبنتي : النمر . الشفيف : البزد .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أخرى ، كقول أبي كبير :(١)

وَلَقَدْ وَرَدْتُ الماءَ فَوْقَ جِمَامِـــــهِ ... مِثْلَ الغَرِيفَةِ صِيغَتْ لِلْمُدْنَـــفِ
فَصَدَرْتُ عَنْهُ ظَامِئًا وَتَرَكْتُـــــهُ ... يَهْتَزُّ غَلْفَقُـهُ كَأَنَّ لَـــمَّ يَكْشَفِ

ويقول :(٢)

صَهْبَانَ أَخْذِيِّ الطَّرَفِ فِي مَلْمُومَـــةٍ ... لَوْنَ السَّحَابِ بِهَا كَلَوْنِ الأَعْبَـــلِ

ويقول أيضا :(٣)

وقد وردت الماء لم يشـــــرب به ... .

ولا يكاد يخرج عن هذه المواقف المكتنزة بالأرادة ضد النهاية سوى ما نجده عن الأحيمر السـعدى وقيس بن الحدادية اللذين يذكران الماء وهما يتمثلان الديار وساكنيها من الأحبة ، فيقول الأحيمر :(٤)

أَلا حَبَّذَا الماءُ الذى قابَـــلَ الحمى ... وَمُرْتَبَـــعٌ مِنْ أَهْلِنَـــا وَمَصَـــيرُ
أَياً نَخَلاتِ الكَـرْمِ ما زال رائحـــًا ... عليكُنَّ منهـلٌ الغَمَـامِ مَطِـــير

ويقول قيس بن الحدادية :(٥)

فما نُطْفَةٌ بِالطَّـــوْدِ أو بِصَرِيَّـــةٍ ... بقيةُ سَـيْلٍ أَحْرَزَتْهَـــا الوَقَائِـــعُ
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتَ طَارِقًـــا ... مِنَ اللَّيلِ واخضَلَّتْ عليك المَضَاجِـعُ

وتلتقي بهذا النوع من شعرهم ظاهرة بينة تتمثل في نعتهم للسحاب بأنه لا ماء فيه ، وللبرق بأنـــه

---

(١) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ . الغلفق : الطحلب . الغريفة : الحلبة .
(٢) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ٩٨ . الأخذى : الذى في طرفه استرخاء من العطش . الأعبل : مكان فيه الحجارة . ملمومة : هضبة .
(٣) ورد ذكره في موضع آخر / ديوان الهذليين ، ١٠٤ .
(٤) أشعار اللصوص . ط١ .
(٥) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٧٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

خلّب ، وللماء بالقلة . من ذلك قول أبي الطمحان :(١)

فَجَال كَمِشْحاجِ الجَهَامِ عَشِيَّةً ... بِفِيهِ بِلَحْمٍ خَالَهُ غَيْرَ وَائِلِ

وقال صخر الغي :(٢)

لِشَمّاءَ بَعدَ شَتَاتِ النَّوَى ... وَقَدْ كُنْتُ أَخْيَلْتُ بَرقاً وَلِيفَا

وقول تأبط شرا :(٣)

بِهِ نُطَفٌ زُرقٌ كأنَّ تُرابَهَا ... جَلا الماءِ عن أرجائِها فَهْوَ حائِرُ

وقوله :(٤)

بِهِ تَمَلاتُ مِنْ مِياهٍ قَدِيمَةٍ ... مَوارِدُها ما انْ لَهُنَّ مَصَادِرُ

وقوله :(٥)

وَلَسْتُ بِجلبِ جَلْبِ رِيحٍ وقِرَّةٍ . (والقرة : السحاب الذى لا ماء فيه) . وكذلك الحال في : رهو الماء (عند الشنفرى) ، وأسآر أيضا له وقلنا قرت به فيه السحاب (لمالك بن حريم) . وقول أبي كبير : وكأن أوشال الجدبة ... (الماء يقطر ويسيل) . وقول قيس بن الحدادية : في نطفه بالطود ....

وغير ذلك مما ذكر سابقا . وهو نغم آخر من الشكوى يصور ضيق الانسان الصعلوك بالحياة التي لم تقدم له من حقوقه المشروعة إلا النزر كما يصور أيضا خداع ذلك المجتمع وزيفه من خلال البرق الخلّب الذى لا ماء فيه .

---

(١) منتهى الطلب ، ص ١٧٦ . المشحاج : الكثير . الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(٢) ديوان الهذليين ، ص ٦٨ . أخيلت : تخيلت .
(٣،٤) ديوانه ، ص ٩٦ .
(٥) ديوانه ، ص ١٧٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحيـــــوان

أ - الأوابـــــد :

تبين أن الشاعر الصعلوك كان يواجه مشكلات عصره كما يواجه قدرا محتوما ، لم يقدر على الانفكاك منه أو الاطمئنان إليـــه .

وتبين أنه لم يكف عن البحث والسعي لما يحقق ذاته ، وأن البقاء في كنف المجتمع لا مبرر لـــه عنده ولا منطق يؤيده . وقد عبر عن هذا المنزع باشكال مختلفة ، كالاغارة على الموسرين من القبائـل ، وتفرده في قهر ما يعجز عنه سواه ، وجوبه آفاق مجهولة مروّعة .

وقد ألقت به هذه النزعة إلى متاهات لا يعيش فيها غير الأوابد والجوارح . وسنجد أن الشاعر في هذا المكان الجديد يحول أوابدها وجوارحها الى أناس يتعايش معهم ، ويحقق بينهم سعادته .

وبقدر سخط الشاعر على المجتمع ونفوره منه كان تعلقه وأنسه بهذه الامكنة وما يعيش فيهـــا . وسنرى أن كائناتها تحتل في قلب هذا الإنسان من الحب ما نراه عند غيره للحيوانات الأليفة أو أكثـــر من ذلك .

ولعل في هذه الصور الشعرية ما يكشف عن هذا الموقف كما يكشف عن شدة التباين بينه وبين مـــا عرف به غيره في هذا المجال .

يقول الأحيمر السعدى :[1]

عَوَى الذِّئْبُ فاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إذْ عَـــوَى
وَصَوّتَ إنْسـَـانٌ فَكِـــدْتُ أَطِـــيـــرُ

ويقول أيضا : [2]

أَرانِي وَذِئْـبَ القَفْـــرِ إلْفَيْنِ بَعْدَمَـــــا
بَدَأْنَـــا كِلانَـــا يَشْـــمَئِزُّ وَيُذْعَـــــرُ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١٠٩ .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تألّفني لمّا دنتُ وألِفتُهُ ... وأمكنني للرّمي لو كنتُ أغدرُ
ولكنني لم يأتمنّي صاحبٌ ... فيرتابَ بي ، ما دامَ لا يتغيّرُ

فلولا ما أحسه الشاعر من ضيق في حياته الواقعية لما جعل الحياة مع ضوارى الحيوانات خيرا من الحياة مع الناس . ومما يشير إلى ضيقه الشديد بمجتمعه قوله :(١)

نهقَ الحمارُ ، فقلتُ أيمنَ طائرٍ ... إن الحمارَ من التّجارِ قريبُ

إن مثل هذه الرواية تشير إلى حركة التناقض بين الصعاليك وبين مجتمعهم ، وإن هذا الشعر الذى يمكن أن نسميه شعر الوحوش والإيلاف بها سرى في شعر أكثر هؤلاء الصعاليك الذين هجروا مجتمعهم إلى عالم أفضل حتى كاد أن يشكل طابعا عاما .

يقول تأبط شرّا :(٢)

لطيفُ الحوايا يُقسِمُ الزّادَ بَيْنَه ... سواءً - وبَيْنَ الذّئبِ قسمَ المُشارك

ويقول :(٣)

يرى الوَحْشةَ الأُنسَ الأنيسَ ويَهْتدى
بحيثُ اهتدت أمّ النجومِ الشّوابكِ

فتأبط شرا كالأحيمر من حيث دعوته إلى الحياة الجديدة ، ومن حيث اضطراره الى الهروب من حياة قومه الى مجتمع الأوابد . وهو يتطلع إلى الممكن من خلال المحال - أى أنه ينظر الى ما يريده من خلال رسم صورة لمجتمع يستعصي صنعه على الأفهام والتعايش في ظله .

وفي هذه الأبيات ما يصور لنا تجاوزه مجتمعه واختياره ما يعوضه عنه ، لما يتحقق فيه من التعاطف والمساواة ، فيقول :(٤)

ووادٍ كجَوْفِ العَيْرِ قفرٍ قطعْتُه ... به الذّئبُ يَعْوى كالخَليعِ المُعيّلِ
تَعدّى بزِيزاءٍ ، تِعجّ من القنا ... وَمَنْ بَكُ يَبْغي طَرْقَةَ اللّيلِ يُرْمِلِ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم .
(٢) ديوانه ، ص ١٥٠ .
(٣) ديوانه ، ص ١٥٦ . الشوابك : المتشابكة .
(٤) ديوانه ، ١٨٢/١٨٣ . الزيزاة : الأرض الغليظة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَقُلْتُ لَهُ لمَّا عَوَى : إن ثابتـــا ... قليلُ الغِنى ، إنْ كنتَ لمَّا تَمَوَّلِ
كِلانا إذا ما نالَ شَـــيْئا أقامَتــهُ ... وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثـــي وَحَرْثَك يُهْزَلِ
كِلانا طَوى كَشْحاً عن الحَيِّ بعدمـا ... دَخَلْنا على كَلّابِهم كُلَّ مَدْخَـــلِ
طَرَحْتُ له نَعْلا من السِّبْتِ ظِلَّـــةً ... خِلافَ نَدىً مِنْ آخرِ اللَّيْلِ مُخْضِـــلِ
فَوَلّى بها جَذْلانَ يَنْفُضُ رَأْسَـــــه ... كصاحبِ غُنْمٍ ظاهـرٍ بالتَمَـــوُّلِ

إن الشاعر والذئب معا لا يصيبان ما يقيم الأود . وكلاهما له مطالب لا ينال منها شيئا . وكلاهمـــا يعيش في بيئه خاوية كجوف العير تضطرهما إلى الدخول على " كلّابهم كل مدخل " .

ليس بدعا إذن القول بأن هذه الصور لم تخرج إلا عن إحساس بالظلم الاجتماعي والمادى ، وطمـــوح إلى مجتمع تسوده علاقات جديدة تماثل تطلع الشاعر . ومن هذه الصور قوله :(١)

يَبيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتّى أَلِفْنَـــه ... ويُصْبِحُ لا يَحْمِي لَها ـ الدهـرَ ـ مرتقا

وهذه العلاقة تخلق في نفسه موقفا من التضحية ، فيكون غذاء للجياع من أفراد المجتمع الجديـــد الذين شاطروه حزنه وطعامه فيقول :(٢)

وَلَقَـــدْ عَلِمْتَ لَتَعْتَـــزُوْنَ ... علـــيَّ شِيم كالحســـائِلْ
يأْكُلْنَ أَوْصَـــالاً وَلَحمـــــا ... كالشَّكاعِيِّ غَـــيْرَ جَـــادِلْ
يا طَـــيْرُ كُلْـــنَ فانَّـــــني ... سُمٌّ لكُـــنَّ وذُو دَغَـــاوِلْ

والمشكلة ذاتها ـ وخاصة الجوع والظمأ ـ تتمثل في شرائح شعر الذئاب وفصيلتها من الوحوش عنـــد أبي كبير ، إذ يبدو الشاعر والذئب في حالة من الهزال والانجراد ، فيقدم إلينا الشاعر الذئب مثـــلا حيوانا أليفا لا يحمل شيئا من عناصر الوحشية . وتكاد تتلاشى الفوارق بينهما . وما ذلك إلا بســـبب الجوع الذى يكاد يُفرغ كلا منهما من القوى ، فذئبة أبي كبير مستسلمة عجفاء لا تستطيع أن تندفـــع خارج مكانها إلا بالزجر ، اذ يقول فيها :(٣)

أَخْرَجْتُ مِنْها سِـــلْقَةً مَهْزُولَـــةً ... عَجْفاءَ يَبْرُقُ نابُهـــا بالمِعْـــوَلِ

---

(١) ديوانه ، ص ١١٥ .
(٢) ديوانه ، ص ١٩٥ . شيم : سود (الضباع) . الحسائل : البقر . الشكاعي : نبت . الدغاوى : الدواهـــي .
(٣) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ٩٧ . سلقة : ذئبة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول :(١)

وَلَقَدْ وَرَدْتُ المـاءَ لم يَشْـرَبْ بِـهِ
بَـيْنَ الرَّبِيـعِ إلـى شُـهورِ الصَّيْـفِ

وهكذا لم يعد ما في هذه الصحراء من ضوار ما يحمل الإنسان الصعلوك على الخوف أو يشعره بالعداء . يقول في ذلك :(٢)

تَعْوِي الذِّئابُ من المَجاعَةِ حَوْلَـه إحْلالَ رَكْبِ اليامِـنِ المُتَطَـرِّفِ
زَقِبٌ يَظَـلُّ الذئبُ يَتْبَـعُ ظِلَّـه مِنْ ضِيـقِ مَوْرِدِهـا استِنانَ الأخْلَفِ

إن الرؤية الخاصة لهؤلاء الشعراء إزاء الوحوش هو أنهم خلقوها خلقا فنيا خاصا حين لم يجدوا ما ينتمون اليه من عالم المجتمع . فالذئاب وغيرها من الأوابد بجوعها وضيق حياتها وهزال أجسادها امتداد لصعلكته .

وهذا الشنفرى - وهو من أكثر الصعاليك لحمة بتأبط شرا كما يلاحظ من شعرهما يعيش نفس الحياة النفسية تقريبا فينبثق عنه ما يماثل تجربة تأبط شرا الشعرية ، فلا يجد لنفسه خلاصا إلا في أماكن الوحوش . إذ يقول :(٣)

وَلِي دُونَكُمْ أهْلُـونَ سِيدٌ عَمَلَّـسٌ وَأرْقَطُ زُهْلُـولٌ وَعَرْفَـاءُ جَيْأَلُ

ويقول :(٤)

أنا السَّمْعُ الأَزَلُّ فَـلا أُبالِـي وَلَوْ صَعُبَتْ شَناخِيبُ العُقـابِ

ويقول :(٥)

وأَغْدُو على القُوتِ الزَّهيـدِ كما غَدا أَزَلُّ تَهاوَاهُ النَّتائِفُ أَطْحَـلُ

---

(١) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
(٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ١٠٧ . اليامن : الآتي من اليمن . الزقب : الضيق .
(٣) اللامية ، ص ٥٢ . السيد : الذئب . العملس : القوي على السير . الأرقط : يراد به النمر . الزهلول : الأملس . عرفاء جيأل : الضبع .
(٤) الطرائف الأدبية ، ص ٣٣ .
(٥) اللامية ، ص ٥٨ . الأزل : القليل لحم الوركين .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كما يتجلى لديه هذا الاهتمام بعرض هذه الصورة لنفسه من خلال الذئب بقوله :(١)

فإنّي لَمَوْلَى الصَّبْرِ أجتَاب بَزَّهُ ... عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ، والحَزْمَ أفْعَل

ونفس الصورة التي يرى فيها الشاعر نفسه يراه عليها أعداؤه ، فحين يغزوهم الشنفرى وصحبه يبقون في قلق فكري ، إذ لا يدرون ما الذى هاجمهم أذئب أم ضبع ، أجنّ أم إنس ، فيقول الشنفرى متحدثا عنهم :(٢)

فَقالُوا : لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلَابُنَا ... فَقُلْنَا أذِئْبٌ عَسَّ أمْ عَسَّ فَرْغَلُ

ومن أهم ما يكشف عن نفوره المتزايد من المجتمع قوله :(٣)

لا تَقْبِرُوني ، إنّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ ... عَلَيْكُم ، وَلَكِنْ أَبْشِرِي أمَّ عَامِرِ

وهذه الدعوة لا تصدر إلا عن إحساس عميق بغياب المساواة والعدل .

ومن بين الذين ذكروا الذئب والضبع الأعلم . وهو يعرض لنا صورا لهذه الوحوش لا نستطيع أن نجزم بأنها تحمل نفس الوعي الشعرى الذى رأيناه عند الشنفرى وتأبط شرا . لكنها تعكس وجودها الحقيقي كعدوّ للانسان ، فهو يخافها أحيانا فيقول :(٤)

وَخَشِيتُ وَقْعَ ضَرِيبَةٍ ... قَدْ جرّبَتْ كُلَّ التَّجَارِبْ
فَأكُونَ صَيْدَهُمُ بِهَا ... وأصِيرُ لِلضَّبُعِ السَّوَاغِبْ
جَزَراً وَلِلطَّيْرِ المُرِبَّةِ ... وَالذِّئَابِ وَلِلثَّعَالِبْ
وَتَجُرُّ مُجْرِيَةٌ لَهَا ... لَحْمِي إلَى أجْرِ حَوَاشِبْ
سُودٌ سَحَالِيلٌ كَأنَّ ... جُلُودَهُنَّ ثِيَابُ زَاهِبْ

كما يقول مهددا بها عدوّه :(٥)

تراها الضَّبْعُ أعظَمَهُنَّ رَأْسًا ... جَرَاهِمَةٌ كَهَاجِرَةٍ وَثِيلُ

---

(١) اللامية ، ص ٦٦ . التنائف : الصحارى .

(٢) اللامية ، ص ٦٨ . الأطحل : لون بين الغبرة والبياض . هرث : نبحت . عسّ : طاف . الفرغل: ولد الضبع .

(٣) طرائف / ديوانه ، ص ٣٦ .

(٤) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٩ . السواغب : الجياع . المرّبة : الثابتة اللازمة . مجرية : ذات أجر . حواشب : منتفخات . سحاليل : لينة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما الذئب عند عبدة بن الطبيب فصورة للاكتمال ، إذ يرى منها مطابقة لنفسه ، أو لعله يريد لنفسه أن تكون على هذه الحال من الاكتمال فيقول :(١)

يَتْبَعْنَ أَشْعَثَ كالسِّرْحان مُنْصَلِتًا ... لَهُ عَلَيْهِنَّ قَيْدُ الرُّمْحِ تَمْهِيلُ

ويقول :(٢)

بِسَاهِمِ الوَجْهِ كالسِّرْحَانِ مُنْصَلِتٍ ... طِرْفٍ تَكَامَلَ فيه الحُسْنُ والطُّولُ

ونستطيع القول أن هذه النظرة عند عبدة تتفق جوهريا ونظرة غيره ممن سبقت الإشارة إليهم ، لأن في أعماق كل منهم ما لا يرضيه أولا ، وما يثيره ثانيا .

أما الحمر الوحشية فتأخذ في شعر الصعاليك مدارا يتوازن مع مدار الذئاب والوحوش بشكل متقارب جدا . (٣٢ حالة للذئاب والوحوش ، و ٣٣ للحمر والظباء) . وكلها كان له أهمية في تحريك شاعرية الصعاليك ، وإن كان لكل منها أوضاعه المتميزة . فبالذئاب نلاحظ عبور ما كان منغلقا على الناس ، إذ لم نعهد أن تتحد الأوابد مع الإنسان إلى هذا الحد كما رأينا عند الشنفرى والأحيمر وتأبط شرا وغيرهم . ولنمض الآن مع أحاديثهم في الحمر لاكتناه ما وراءها من مواقف .

أكثر ما يعرض لنا من هذا الشعر يدور حول الصراع بين طرفين . أحدهما قوي يتمثل في الصياد المطارد ، والآخر مطارَد مهزوم ، وهو الحمر الوحشية ، مما يجعلنا نحس بأن هذه الحركة في الظواهر الطبيعية الممتدة في مساحة هذا الشعر تشير بوضوح إلى قوانين الحياة ، وتنبه الوعي الانساني لما فيها من جور .

فتأبط شرا مثلا إذ يصور لنا ظبية هاربة باحثة عن النجاة وهو في صدد الحديث عن نجاته شخصيا فإنما يحول هذا المشهد الى وجود إنساني واقعي ، وبالتالي إلى مجرد مثالي . أي أنه يشعرنا بخلل في المجتمع ويدعو إلى اصلاحه فيقول :(٣)

كأَنَّمَا حَثْحَثُوا حُصًّا قَوَادِمَهُ ... أَوْ أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وَطَبَّاقِ

(١،٢) المفضليات ، ص ١٣٩ ، ١٤٣ .

(٣) ديوانه ، ص ١٣٢ . حثحثوا : حثوا . حص القوادم : الظليم الذى تناثر ريشه . شث وطباق : نبتان طيبا المرعى يضمران راعييهما ويشدان لحمهما .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول :(١)

عَلى عُرَّةٍ أو صَهْـرةٍ من مُكانِـسٍ أطالَ نزالَ الموتِ حتى تَسَعْسَعَا

فليست تلك تجربة الشاعر في مجال ما يراه بعينه من علاقات بين هذه المخلوقات . ولكنها تجاوز في الرؤية إلى ما يمكن تسميته بتماثل الحياة .

ويقول :(٢)

ويعترق النَّقْنَقَ المُسْتَبطِرَّ والجأْب ذا العانَةِ المِسْحَلا

وكثير من الصفات التي يضفيها الشاعر منهم على الحمر الوحشية تضع الحمر كمعادل موضوعي للحالة الجسمية والنفسية له ، بما تحمله من الوهن والتمزق والانفصال والخلوّ . " فالجأب ذو العانه ، وهو الحمار الوحشي في البيت السابق ، يتلاشى لحمه لما يكده ، وهو أيضا يتصف بالخلوّ والانجراد ، وذلك ما يطابق حالة الصعلوك ، كما يتطابق مع دلالتها اللغوية .

من هذا قوله :(٣)

وَوَادٍ كَجَوْفِ العَيْرِ ، قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ

ويتوالى عرض هذه الصور عند صخر الغي تسع مرات ، نرى فيها الحمر الوحشية أيضا مُرَوَّعة مطارَدة كأنما تقف مع الإنسان الصعلوك جنبا الى جنب . وكأنه يقول : الخير خير ، والشر شر سواء أكان في حياة الجنس البشرى أم في عالم الحيوانات ، ومما يبرز هذه المعاني قوله :(٤)

فَخانَتْ غَزالاً جاثِمًا بَصُرَتْ بِهِ لَدى سَمُراتٍ عِنْدَ أدْمَاءَ سَارِبِ

فهي غالبا مختولة بغدر الصيادين ، وبغدر الزمان عند طعامها وشرابها ، بل هي لا تختلف عن وضع الصعلوك فيما تعانيه من الألم والعناء ، وفيما حرمته من مباهج الحياة .

---

(١) ديوانه ، ص ١١٦ . المكانس : من الظباء الملازم لبيته . تسعسعا : صار لبقا .
(٢) ديوانه ، ص ١٦٤ . النقنق : الظليم . المسبطر : المسرع . الجأب والمسحل : حمار الوحش .
(٣) ديوانه ، ص ١٨٢
(٤) ديوان الهذليين ، ص ٥٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولعل اهتمام الشاعر بابراز اصطراع الأنثى على هذا النحو مع الصيادين وصروف الدهر يعزز القول بأن الشاعر يتمثل فيها صورة المصلوك ، والإنسان أي إنسان حين تتعمق فيه المآسي يحرك ضميره كل موقف يغيب فيه العدل أو تطغى فيه القسوة . يقول صخر الغي :(١)

وَلَا عِلْجَانِ يَنْتَابَانِ رَوْضًا ... نَضِيرًا نَبْتُهُ عَمًّا تُؤَامَا
كَذَا العِلْجَيْنِ أَصْعَرَ صَيْعَرِيٍّ ... تَخَالُ نَسِيلَ مَثْنَيْهِ الثُّغَامَا

ويقول :(٢)

وَبَعْدُو كَعَدْوِ كُدْرٍ تَرَى ... بِغَائِلَةٍ وَتَسَاهُ نَسُوفًا

وليس الصياد هو القوة الوحيدة التي يواجهها الحمار الوحشي ، ولكن هناك ما هو أشد إمعانا بالاختطاف منه ، ومن سائر القوى ، لأنه ليس له امتداد محدد بمكان ، ولا يستطاع النفاذ من سلطانه ، وهو الدهر . يقول صخر في ذلك :(٣)

أَرَى الأَيَّامَ لا تُبْقِي كَرِيمًا ... وَلَا العُصْمَ الأَوَابِدَ والنَّعَامَا

ويقول :(٤)

فَذَلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلَّ مَطْلُوبٍ حَثِيثٌ وَطَالِبُ

ويقول :(٥)

فَعَيْنَيَّ لا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ قَادِرٌ ... بِتَيْهُورَةٍ تَحْتَ الطِّخَافِ العَصَائِبِ

ومما يلاحظ أن الشاعر يختتم كثيرا من وصفه لما يعانيه الحمار الوحشي بالخضوع إلى الدهر الفاعل كما مرّ في الأبيات السابقة ، ويزيدها إيضاحا أنها ترتبط بموقف مواجهة الشاعر لموت بعض ولده

---

(١) ديوان الهذليين ، ص ٦٢ . علجان : حماران . العمّ : الذي تم نبته . تؤاما : اثنين اثنين .
(٢) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٧٦ . الكدرّ : الغليظ . الغائل : عرق يجرى في الورك . النسوف : آثار من عضّ .
(٣) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٥٢ . والرمل . الطخاف : السحاب الرقيق .
(٤) ديوان الهذليين ، ص ٥١ .
(٥) القادر : المسن من الوعل . التيهورة : الهوىّ في الجبل والرمل . الطخاف : السحاب الرقيق .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

(رثاء) ، كما يعيش هذه الحالة قيس بن العيزارة ، فما يقصه علينا في هذه المقطوعة الشعرية لا يخلو من الإيماء لما يحسه من الخطر الذى يهدد كيانه ، فيقول عن بقرات الوحش :(١)

حَتّى أُشِبَّ لَهَا أَعْيَسُ نَابِلٌ ... يُغْرِي ضَوَارٍ خَلْفَهَا وَبَمِيدُ
فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ تُغَادِرُ خَلْفَهَا ... زَرْقَاءَ دَامِيَةَ اليَدَيْنِ تَمِيدُ
يَوْمًا أَرَادَ لَهَا المَلِيكُ نَفَادَهَا ... وَنَفَادُهَا بَعْدَ السَّلَامِ يُرِيدُ

وقد يخلع عليها ابن العيزارة من أوصاف الحسن وأوصاف البَشر ما يحملنا على المزيد من الاقتناع بهذه الدلالة النفسية ، كقوله :(٢)

كُتِبَ البَيَاضُ لَهَا وَبُورِكَ لَوْنُهَا ... فَعُيُونُهَا حَتى الحَوَاجِبِ سُودُ

وأبو خراش يصور لنا الحمر الوحشية نموذج السرعة والفرار ، وما ذلك إلا لأن الفرار يشكل الأداة العظيمة لدى الشاعر والحمر في صيرورتها . يقول أبو خراش :(٣)

تَذَكَّرَ ما أَينَ المَفَرُّ وإِنَّنِي ... بِغَرْزِ الذِّي يُنْجِي مِنَ المَوْتِ مِعْصَمُ
فواللّه ما رَبْدَاءُ أو علجُ عَانَةٍ ... أَقَبُّ وما إِن تَيْسُ رَجْلٍ مُعَمَّمُ
أَثَبَّتُ حِبالٌ في قَرَادٍ يَزُرْنَهُ ... فأَخْطَأَهُ مِنْهَا كِفَافٌ مُخَزَّمُ
بِأَجْوَدَ مِنِّي إِذ تَكَفَّتَ عَادِيًا ... وأَخْطَأَنِي خِسْفُ الثَّنِيَّةِ أَسْهَمُ

ويقول أيضا :(٤)

أَقْبَلْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدِّي وَاحِدُ ... عِلْجٌ أَقَبُّ مَسَيَّرُ الأَقْرَابِ

غير أن هذه الحمر وإن وحّد بينها المصير فليست ذات طبائع متجانسة تماما ، فقد يخرج أحدها على ما اتصفت به من نقاء ، ويعتدى على حرمة العام ، شأن انفراد بعض الصعاليك عن جماعته ، وهذا لا غرابة فيه ، فهو جوهر الحياة وصميمها ، وقد صور لنا هذا الأمر أبو خراش في حديثه

---

(١) ديوان الهذليين ، ٣ : ٧٥ . أشب لها : أتيح لها . أعيبر : صائد . نابل : ذو نبل . ضوارى : كلاب .
(٢) نفس المصدر السابق . ٣/٧٥ .
(٣) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ . غرز : منج . ربداء : نعامه . مخزّم : منظم .
(٤) ديوان الهذليين ، ٢/١٦٩ . مسير الأقراب : فيه خطوط . أقب : ضامر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عن ترسه المثمير بقوله :(١)

مِشَبٌّ إذا الشّيزانُ ضَدّتْ طَريقَـــهُ ... تَصُدُّ عَنْ عَنْهَ دَاميـــاتِ الشّـــواكِلِ
يَظَلُّ علـــى البُرْزِ اليَفاعِ كأنّـــه ... طِرافُ رِستْ أوتادُهُ عنـــد نـــازِلِ

ويقول حاجز الأزدي :(٢)

فَما الظَّبْيُ أخْطَتْ حَلْقَـةَ الظُّفرِ رِجلُه ... وَقَدْ كاد يَلْقَى المَوْتَ في حَلْقَةِ الظُّفْرِ
كَمِثْلِي أوَانَ القَوْمِ بَيْنَ مُعَيْسِّـــــعٍ ... وآخَرُ كالنَّشْوانِ مُرْتَكِـــنٍ يُغْـــرِى

ويقول :(٣)

وَكأنّمَا اتّبَعَ الفَوارِسُ أرْنَبـــــــا ... أوْ ظَبْيَ رَابِيَـــةٍ خِفافـــاً أشْـــعَبَا
وكأنما طَرَدُوا بِجَنْبَيْ عاقِـــــلٍ ... صَدْغاً من الأُوْوى أحَسَّ مُكَلَّبَـــا
أعْجَزْتُ منهم والأكُفُّ تَنالُـــــني ... وَمَضَتْ حياضُهُمُ وآبُوا خُيَّبَـــــا

وهذا التصور لما خلف الدلالة الحسية من امتدادات نفسية يمكن استيحاؤه من قول أبي كبير :(٤)

فاهْتَجْنَ مِنْ فَـزَعٍ وَطَارَ جِحاشُـــها ... مِنْ بَيْنِ قارِمِها وَمَا لَمْ يَقْـــرِمِ

فالحمر مهتاجة دائما سواء ما فُطم منها وما لم يفطم . ولعل في اختيار الشاعر لصغار هذه الحيوانات يرمز الى المستقبل القاتم والآمال المحروم منها الشاعر ، ويمكن تصور ذلك أيضا في قوله :(٥)

يَتَعَطَّفُونَ عَلَى البَطِيءِ تَعَطُّفَ السـ ... ـعودِ المَطافِلِ في مُناخِ المَعْقِـلِ

ولعل في هذا الحنوّ الذي يجسد معنى الأمومة ما يمثل النظر الى الحياة الجديدة / المستقبل .

---

(١) ديوان الهذليين ، ١٣٩/٢ . المشب : المسنّ .
(٢) حماسة البحتري ، ص ٥٨ .
(٣) حماسة البحتري ، ص ٥٠ .
(٤) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ١١٥ . القارم : المفطوم .
(٥) ديوان الهذليين ، جـ ١١ ، ص ٩١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا يفتأ الشاعر بعد ذلك أن يلتمس لنفسه العزاء من هذا الواقع المشترك الذى يمثل النهاية للجميع فيقول :(١)

والدّهرُ لا يَبْقِي على حِدْثانِـــــــه قَبٌّ يَرُدْنَ بِذِي شُجونٍ مُتْـــــرَمِ

على أن شدة هذه المعاناة لا تحجب عن الشاعر ما لهذه الحمر من مشهد يبعث في النفس التأمل فـــي الجمال كما هو الحال في قول الشنفرى :(٢)

تَرُودُ الأراوى الصُّحْمُ حَوْلِي كأنّهـــا عَذارَى عليهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّـــلُ

وعنصر الجمال هنا يبدو في براءة هذه الحيوانات التي تحوم حوله مستأنسة به كقوله :(٣)

وَيَرْكُدْنَ بالآصالِ حَوْلِي كأنّنِـــــي مِنَ العُصْمِ أدْفَى ينتحِي الكَيْحَ اعْقَلُ

كما ظهر في شعر الصعاليك أجناس متنوعة من الأوابد ، تفاوتت كثافتها في شعرهم . من هذه الأوابـــد وفق عدد مواضع ذكرها : النعام و (الحية والعقرب) ، والسبع ، والنحل والجراد ، والفيل ، والنمر .

فعند تأبط شرا ذكر السبع مرتين . في الأولى قال :(٤)

يَنُحْنَ عَلَيْهِ وَهْوَ يَنْزِعُ نَفْسَـــــه لَقَدْ كُنْتَ أَبَّاةَ الظُّلامةِ قَسْـــوَرا

وفي الأخرى يقول :(٥)

فَلَمّا أحَسُّوا النَّوْمَ جَاؤُا كأنّهُـــــمْ سِباعٌ أضافَتْ هَجْمَـةً بِسَـــلِيلِ

ذكره في المرتين وهو يمارس القتل مع أعدائه . وقد أضفى هذا التشبيه على العدّو على غير ما عُهد عنـــد من يحرص على الفخر بنفسه فهو يقدم لنا العدو بصورة مثالية للقوة ثم يتغلب عليه وحالئذ تبلغ فاعلية الصعلوك أقصى مدى . ومن جهة اخرى تزداد فاجعة أعدائه حين يرون أسديّتهم المسؤولة مدمّرة .

---

(١) ديوان الهذليين ، ج ١١ ، ص ٩١ .

(٢،٣) لاميته ، ص ٧١ . الصحم : السود . ترود : تذهب وتجيء . الأراوى : الوعول . الكيح : عرض الجبل. الأعقل : الممتنع من الجبال .

(٤،٥) ديوانه ، ص ١٠٠ ، ١٨٨ . قَسْورا : أسدا . السليل : وسط الوادى .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بذلك يصبح ذكر الأسد (السبع) كغيره من الحيوانات بؤرة تتآزر مع ما ذكر من الأوابد مشكّلة مَعْلَما وجوديا للشاعر .

ويتخذ هذا الأمر عند الشنفرى صورة تلتقي مع ما قاله تأبط شرا في الكشف عن الذات ، إذ يقول:(١)

هُمْ عَرَفُونِي ناشِئًا ذَا مَخِيلَـــــةٍ أُمَشِّي خِلالَ الدّارِ كالأَسَـــدِ الــوَرْدِ

ويقول :(٢)

وَحْوَشٌ هَـــوىً زادَ الذِّئابَ مَمَلَّـــةٍ بَواطِنُه للجِـنّ والأُسْدُ مَأْلَـــفُ
تَعَسَّفْتُ مِنْهُ بَعْدَما سَقَطَ النَّـــدَى غَمالِيلَ يَخْشى غَيْلَهـــا المُتَعَسِّفُ

فليس في تمشيه خلال الديار ، وتعسفه لمواطن الجن والأسود ما يكشف عن شجاعته فقط ، ولكنه تعبير عن قضاياه وفي مقدمتها الحرية ، يفسر ذلك شغفه بالاندفاع في مظانّ جديدة .

أما عروة فيذكر الأسد في موقفين ، الأول في قوله :(٣)

تَبَغّانِيَ الأَعْداءُ إمّا إلـــى دَمٍ وإمّا غِراضُ السّاعِدَيْنِ مصـــدرا
يَظَلّ الأَباءُ ساقِطاً فَوْقَ مَتْنِـــه له العَدْوةُ الأُولى إذا القِرْنُ أَصْحَرا

والآخر في قوله منددا بأخواله :(٤)

ثَعالِبُ في الحَرْبِ العَوانِ فَإنْ تَبُخْ وَتَنْفَرِجِ الْجَلّى فإنّهُمُ الأُسْـــدُ

وفي كلا الموقفين يرى في الأسد مثالا للبطش والقاء الرعب . ولا نظفر فيهما على خلاف ما يجرى على سنن عامة شعراء زمانه ، وكذلك الحال عند قيس بن الحدادية ، اذ ذكر السبع مرة واحدة بقولة:(٥)

نَداةَ تَوَلّيْتُمْ وَأَدْبَـــرَ جَمْعُكُـــمْ وَأَبْنا بِأَسْراكُمْ كأنا ضَراغِمُ

(١،٢) طرائف ، ص ٣٥ ، ٣٨ .
(٣،٤) ديوانه ، ص ٦٢ ، ٤٧ . عراض الساعدين : الأسد . أصحر : خرج الى الصحراء .
(٥) ديوان الهذليين ، ص ٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذكر السليك الأسدي في معرض الحديث عن نفسه قائلا : (١)

ورب وادٍ قد قطعت مشمول ..... (أي به أشبال) .

ومما ذكر من الأوابد الظليم ، وقد ذكر عشر مرات متفرقة من ذلك قول تأبط شرا : (٢)

فأدبرت لا ينجو نجائي نِقْنِقٌ يُبادِرُ فَرْخَيْهِ شِمالاً وَدَاجِنَا

وقوله : (٣)

رأى قَدَمَيَّ وَقْعَهُمَا حَثِيثٌ كَتَحْلِيلِ الظَّلِيمِ دَعا رِئَالَهْ

وقوله : (٤)

وَيَعْتَرِقُ النِّقْنِقَ المُسْبَطِرَّ والجَأْبَ ذَا العانَةِ المِسْحَلا

وقول الأعلم : (٥)

كأنّ مُلاءَتَيَّ على هِزَفٍّ يَعِنُّ مَعَ العَشِيَّةِ لِلرِّئَالِ
كأنّ جَناحَهُ خَفَقانُ رِيحٍ يَمانِيَةٍ بَرِيطٍ غَيْرِ بَالِي

وفي قوله : (٦)

عَنَّتْ لَنا سَعْفاءُ لُكَّتْ بالبُضِيعِ لَهَا الجَنايِبُ

الذى يلاحظ في الأبيات السابقة أن ذكر الظليم يقترن بالفرار الذى يقع غالبا من جهة الشاعر ، وقليلا من أعدائه ، انه يمثل أولا انفصال الشاعر عن المجتمع ، كما يمنح الشاعر خصوصية جسدية تقابل ما أوتيه الموسرون من خيول أكسبتهم عزة الفروسية .

---

(١) السليك بن السلكة ، ص ٦٤ .

(٢،٣،٤) ديوانه ، ص ٢١٦ ، ١٩٨ ، ١٦٤ .

(٥،٦) ديوان الهذليين ، ص ٨٤ ، ٢/٧٩ . سعفاء : نعامة . لُكت : ضلت . الجنائب : طرائق من العصب فيها اللحم . عنت : عرضت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والظليم في انطلاقه كالإعصار . والهروب هنا يتحول إلى قيمة جديدة ترضي على الأقل شعوره باعتباره فردا منعزلا عن المجتمع ومنتميا الى مجموعة تقف وجها لوجه أمام الخطر .

غير أن تجانس هذه المعاني عندهم ولو أنها تعبر عن موقف نفسي واحد ، يقلل من قيمة مضمونها وحيويته ، إذ تبدو ذات صبغة تقليدية لا تحدث أثرا عاطفيا ، فكلهم أو جلهم عوّدنا سماع تشبيه نفسه بالظليم في انطلاقه . وقد يعود سبب تكرار هذا المعنى إلى ميلهم للمبالغة في تصوير شدة عدْوهم ، ولا يعدل سرعة الظليم كما هو معروف لديهم أي كائن أرضي غيره .

ولكن الأمر يختلف عند الشنفرى وعروة ومالك بن حريم ، فللظليم وجه آخر ، يقول الشنفرى:(١)

وَلاَ خَرِقٌ هَيْفٌ كأنّ فُؤَادَهُ يَظَلّ بِهِ المَكّاءُ يَعْلُو وَيَسْفِلُ

ويقول عروة :(٢)

رَهِينَةُ قَعْرِ البَيْتِ كلَّ عَشِيَّةٍ يَطِيفُ بِهِ الوِلدانُ أهْدَجَ كالرِّئْلِ

ويقول مالك : (٣)

وأدْبَرَ عَمْرٌو والفِرَارُ فَضيحَةٌ وَوَلّى كمَا وَلّى الظّلِيمُ مِنَ الذُّعْرِ

فالظليم هنا ينطق ظاهرة بالاستسلام ، وأكثر ما يشبه العدو في سكونه أو هزيمته كما في الأبيات السابقة .

وهذا التباين لا يعبر عن اختلاف بينهم في القضية والموقف ولكنه مجرد رؤية فنية تشكلها طاقة الشاعر في نقل الأثر الذى تركه ذلك المشهد في نفسه .

أما الأفعى والعقرب فيقل ذكرهما في أشعار التعاليك ، وقد ترددا في شعر الشنفرى وتأبط شرا تسع مرات . فمما ورد في شعر الشنفرى قوله :(٤)

فَقَطْعَةُ خَلْسٍ مِنْكُمُ قَدْ تَرَكْتُهَا تَمُجُّ على أقْطارِهَا سُمَّ أسْوَدِ

---

(١) لاميته / ص ٥٤ . الخرق : الدهش الخائف . الهيف : الظليم . المكاء : طائر شديد الخفقان.

(٢) ديوانه /ص ١١٤ .

(٣) حماسة البحترى / ص ٣٨ .

(٤) الطرائف الأدبية ، ص ٣٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقولـــــه : (١)

وَيَوْمٍ من الشِّعْرى يَذُوبُ لُعابُـه ... أفَاعِيهِ في رَمْضائِـهِ تَتَمَلْمَـــلُ

وقولـــــه : (٢)

فَبِتُّ عَلَى حَدِّ الذِّراعَيْنِ مُجْذِبـاً ... كَمَا يَتَطَوَّى الأَرْقَـمُ المُتَعَطِّـفُ

تمثل هذه الأبيات على قلتها جانبا من حياة الصعاليك : من خوف وختل وبطش وضياع وتَخَطٍّ، وتمتد هذه الصور لتنفذ إلى واقعه الداخلي في محاولة ملحة لنقل حقيقة الصراع بين الشاعر ومجتمعه، فمن المعروف أن الصعلوك عاش غريبا عن أهله ودياره وأنه آثر الحياة مع الوحوش الضارية استجابة لنوازعه الفردية وبخاصة الحرية ، وكان لإحساسه هذا بالإضافة الى تعذر ظفره بما ينشد ما جعله يتزع إلى الزهد في الدنيا زهدا مستمدا من عدم قدرته على تحقيق التوازن بين مطالبه وبين واقعه والشاعر إذ يفرغ على نفسه صفة الصبر على الحياة الصحراوية وهجيرها حين يذكر الحية ، يجعلنا نعتقد أن الحية تحمل معنى " الدنيا " في دلالتها الإيحائية ولو لم يكن الشاعر على معرفة بذلك .

والذى يعضّد هذا الاعتقاد هو أن الشاعر تستوى لديه قيمتا الحياة والموت في مواقف غلبة الشرّ على الخير في هذه الحياة ، كما نفهم من الأبيات السابقة.

مثل هذه الصور للأفعى في ضوء هذا الفهم يتناسب مع احساسه بشعور مبهم تتقابل فيه صور الغنى والفقر ، والهوى والكبت ، والحياة والموت . أما ما جاء من ذكر الأفعى والعقرب في شعر تابط شرا ففي قوله : (٣)

فإن أَكُ لَمْ أخضبك مِنْها فَأَنَّهـا ... نُيُوبُ أَساوِيدٍ وَشَوْلٌ عَقَـارِبِ

وقولـــــه : (٤)

يَسْرِي علىَ الأَيْنِ والحَيّاتِ مُحْتَفِياً ... نَفْسِي فِداؤُكَ مِنْ سارٍ على سَـفَرِ

وقولـــــه : (٥)

وإذا تَجِيءُ تَجِيءُ تَسْحَبُ خَلْفَهَـا ... كالأَيْمِ أَصْعَدَ فِي كَثِيبٍ يَرْتَقِـي

وهكذا نرى أن الأثر الذى ولدّ الرؤية عند الشنفرى يكاد يتكرر عند تأبط شرا في مدلول أشعاره

---

(١) اللامية . ص ٦٩.

(٢) الطرائف الادبية /ديوانه ، ص ٣٧ . مجذبا : ثابتا .

(٣، ٤) ديوانه /ص ٦٢، ١٢٥ . اخضبك : أصبغك بالدم . الأساويد : الحيات . شول عقارب : رفع ذنبها .

(٥) ديوانه . ص ١٤٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اللاشعورية في المواقف السابقة ٠

فلعل هذا الموقف لتأبط شرا الذى يتمثل في ذكره الحيات والعقارب على هذا النحو يصور ما يختلج بنفسه من عزوف عن الدنيا التي أظهرها على هيئة الأفعى ٠ وأنه لمعروف ما يجمع بين الدنيا والأفعى من نعومة المظهر وعدم المأمن ٠

عرفنا أن الشاعر ضاق بواقعه ، وأحس بضرورة اجتياز مشكلاته الراهنة ، فكان أن اتخذ موقفا معاديا للمجتمع فتحول طوعا أو كرها الى الطبيعة ، فأصبح جزءا منها ومما يدرج على أرضها أو يحلق في أجوائها ٠ فأحيانا نراه يجارى نعامها عدوا وأحيانا يشاطر ظباءها رعيها وذئابها قوتها ٠ وهي في واقع العقل والمنطق العدوّ الذى " ما من صداقته بد " ولم يفته الحديث عن الطير ، من صقور وحمائم وقطا وغير ذلك في شعره ، وأن يمنحها مواقف انفعالية جديدة تمثل رؤيته الانسان الذى ينشده ٠

يقول تأبط شرا : (١)

فَلَوْ نَبَّأَتْنِي الطَّيْرُ أو كُنْتُ شاهِدًا ... لَآساكَ في البَلْوى أخٌ لكَ ناصِرْ

كما يقول : (٢)

أُجارِي ظِلالَ الطَّيْرِ لَوْ فاتَ واحِدٌ ... وَلَوْ صَدَقُوا قالُوا لَهُ : هُوَ أَسْرَعُ

الشاعر هنا شديد التوق إلى الحرية والانطلاق ولا شيء في هذه الطبيعة قادر على نقله الى آفاقه الجديدة سوى الطيور ، وبتجاوز الدلالة اللغوية لمعنى ماذكره من الطيور ، فإننا نستوحي منها معنى الانطلاق ، ولعل هذا التوق الى الحرية يدفعه إلى تأمل أية حركة في الطير مستثمرا إياها استثمارا فنيا ، مثيرة صورا باطنية لمأساته كما في قوله : (٣)

لا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنِّي لَيْسَ ذا عُذُرِ ... وَذا جَناحٍ بِجَنْبِ الرِّيْدِ خَفَّاقِ

ونزعة الانطلاق هذه عندهم تتمثل في قلب طائر أحفل ، أو حمامة نفرت أو عقاب اكتنّ على شاهقة ، أو نحل حيل بنيه وبين عسله ، يقول الشنفرى : (٤)

فَلَمْ تَكُ إلّا نَبْأَةً ثُمَّ هَوَّمَتْ ... فَمُلْنا : قَطاةُ رِبْعٍ أَمْ رِيعَ أَجْدَلُ

ويقول : (٥)

فَخَفَّضْتُ جَأْشِي ثُمَّ قُلْتُ حَمامَةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرٍّ في حَمامٍ تَنَقَّرا

(١ ، ٢ ، ٣) ديوانه ٠ ص ٨٣ - ١٠٤ - ١٣٢ ٠

(٣ - ٥) اللامية ٠ ص ٦٨ ٠

(٤ - ٦) طرائف ، ص ٣٥ ٠ الاجدل : الصقر ٠ هوّمت : نامت ٠ الخشرم : رئيس النحل ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقـــول : (١)

أوْ الخَشْرَمُ المَبْعوثَ حَثَّتْ دَبُرْهُ ... مَحابيضُ أرْداهُنَّ سامٌ مُعَسَّـــلُ

ويظهر هذا النزوع في تصويره لسرعته : (٢)

وَتشْرَبُ أشآرِي القَطا الكُدْرَ بَعْدَما ... سَرَتْ قَرَباً أحناؤُها تَتَصَلْصَـــلُ

ويصدر أبو كبير عن مثل هذه الفكرة ، وتجربته توحي بأن ثمة إحساسا قويا بالغربة والرفـــض يجمع بينهم ، فما كان غريبا أن تلتقي نظرتهم الشعرية حول الطير يتخذون منه مخرجا وهو أكثـــر الكائنات المتصلة بالطبيعة انطلاقا من القيود .

يقـول أبو كبير : (٣)

فإذا طَرَحْتَ لَهُ الحَصاةَ رَأيْتَـه ... يَتْرُو لِوَقْفَتِهـا طُمُورَ الأخْيَـلِ

وإذا رَمَيْتَ بِهِ الفِجاجَ رَأيْتَـه ... يَنْضُو مَخارِمَها هُوِيَّ الأجْـدَلِ

ويقول في وصف فرســه : (٤)

عَيْطاءُ مُعْنِقَةٌ يَكونُ أنيسُهـــا ... وُرْقُ الحَمامِ جَمِيمُهـــا لَمْ يُؤْكَـلِ

وتصبح الطيور مهوى قلبه في رحلته ، منجذبا إلى حيث تقيم فيقول : (٥)

حَتَّى انْتَهَيْتُ إلى فِراشِ عَزِيـزةٍ ... سَوداءَ رَوثَةُ أنفِهـا كالمِخْصَفِ

وتطلع أبو خراش إلى ما تطلع اليه هؤلاء ، فلا شيء في الطبيعة يعيش في النور والهـــــواء سوى الطير . فقـــال : (٦)

كَأنّي إذْ عَدَوا ضَمّنْتُ بَـزّي ... مِنَ العُقْبـانِ خَائِنَـةً طَلُوبـا

جَرِيمـةُ نـاهِضٍ في رأسِ نَيْقٍ ... تَرَى لِفِطامِ ما جَمَعَتْ ضَليبـا

ويقـــول : (٧)

وَلا أمْرَعُ السّاقَيْنِ ظَلّ كأنّـــهُ ... على مُحْزَئِلّاتِ الإكـامِ نَصِيـلُ

فَضَمَّ جَناحَيْهِ ومِنْ دونِ ما نَـرَى ... بِلادٌ وَحُوشٌ أمْـرَعٌ وَمَحَـــوْل

---

(١) اللاميـــة . ص ٥٩ . الدبر : جماعة النحل . محابيض : عيدان تتخذ لأثارة النحـل .

(٢) اللاميـــة . ص ٦١ . أسآر : بقية الشراب . القرب : صبيحة اليوم الذى ترد فيه الطير .

(٣) ديوان الهذليين ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٤) = = ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٥) = = ، جـ ٢ ، ص ١١٠ . روثة أنفها : طرف الأنف (منقارها) .

(٦) = = ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(٧) = = ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ، أمرع الساقين : صفة للصقر . نصيل : الحجر . المحزئل : المشرف .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فاتجاه أبي خراش كغيره ممن سبق الكلام عنهم . الأنطلاق مقصده ، والطائر رمزه ، ذلك لأنه أكثر الكائنات الحية قدرة على التنكب عن التقليد والتقيّد والتشكّل .

ويقل ذكر الطير عند الآخرين منهم ، إذ لايزيد عن الموقع أو الموقعين .لكنها على أية حال تكشف عن نفس التطلع . من ذلك قول الأحيمر : (١)

وَتيْهاء يَزْورُّ القَطا عَنْ فلاتِها ... إذا عَسْبلتْ فوْق المِتانِ حَرُورُ

وقول أبي الطمحان : (٢)

إذا ما شَحَا فيهِنَّ قوةَ لِمسْحَجٍ ... لِيَعْدِلَها كأنّهُ فَرْخُ زاجِلِ

وقولـــه : (٣)

إذا شاء راعيها اسْتقى مِن وَقيعةٍ ... كَعَيْنِ الغُرابِ صَفْوها لَمْ يُكَدَّرِ

يظهر هذا الشعر قدرا كبيرا من نزوع الشعراء الى الانفكاك من ربقة الواقع الى مشارف عالَم آخر .

ومن هنا تمثلت له هذه الغاية في اليقظة وفي الحلم ، وفي مظاهر الطيور وحركاتها كازورار القطا عن الفلاة ، وانطلاق الزاجل وصفوعين الغراب .وتميز عين الغراب بالصفا يمنحها القدرة على الأختراق والتبصر .

وقد اختلف صخر الغي عن هؤلاء الشعراء في نظرته للطير ، فأضفى على طيوره شيئا من الأنكسار بدلا من التوثب .

وشعره هنا ينقلنا الى مناخ يسوده الحزن والألم والإحساس بالاستسلام إذ يقول : (٤)

وللّه فَتْخاءُ الجَناحَيْنِ لِقْوةٌ ... تَوَسَّدَ فَرْخيْها لِحَوْمِ الأرانِبِ

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ في جَوْفِ وَكْرِها ... نَوَى القِسْبِ ، يُلْقَى عِنْدَ بَعْضِ المآدِبِ

ويستمر في مثل هذا الوصف قائلا : (٥)

وَقَدْ تَرَكَ الفَرْخانِ في جوف وكرها ... بَبَلْدَةَ لا مَوْلىً وَلا عِنْدَ كاسِبِ

فُرَيْخانِ يَنْصاعانِ في العجزِ كلّما ... أحسّا دَوِيَّ الريحِ أوْ صَوْتَ ناعِبِ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١١١ .
(٢) منتهى الطلب . ص ١٧٥ . المسحج : حمار الوحش .
(٣) أشعار اللصوص وأخبارهم . ص ٩١ .
(٤) ديوان الهذليين ، ج ٢ ، ص ٥٤ .
(٥) ديوان الهذليين . ص ٥٦ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ويقـــول في موقـف آخر : (١)

يُرَوِّعُ مِنْ صَوْتِ الغُرابِ فَيَنْتَحي ... مَسَامَ الصُّخُورِ ، فَهْوَ أهْرَبُ هَـارِبِ

ولاشك بأن هناك فرقا بين من يمتد مساره ما بين نفسه وبين مجتمعه ، فيكون وعيـــــــــه متوجها للرفض ونشاطه للبحث عن البديل ، وبين من يكون مساره بين نفسه والقدر ، فيخضع لحتمية الأحداث • وكلاهما يستمد تجربته مما يحركه من القوى •

وفي الصفحة التالية لوحة إحصائية تمثل ظهور الحيوان الآبد في شعرهم •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

(١) ديوان الهذليين • ص ٥٦•

الحيـــوان الآبـــــــد

الحيوان الذى ذكره الشاعر	الذئب والضبع	السبع	الغول	الظبي	الظليم	الحيـــة والعقرب	الطير	الجراد	النمر	الفيل	النحل
تأبط شـــــرا	٥	٢	٣	٣	٤	٤	٦			١	
الشنفـــــرى	١١	٢	٢	٢	١	٥	٧				٢
عـــــروة	١	٢		١	١						
صخـــر الغـــي				٩			٨		١		
السليـــــك		١					١				
قيس بن الحدادية		١					٢				
أبـو خـــراش				٤			٤ (صقر)	١			
عبدة الطيـــب	٢			٤			١				١
أبـوكبير	٦			٥			٤				
حاجز الاسدى		١		٣			١				
الاعلـــــم	٥			١	٣		١				
الأحيمر السعدى	٢						١				
أبو جنـــدب								١٠			
مالك بن حزيـــم				١	١						
المجمـــــوع	٣٢	٩	٥	٣٣	١٠	٩	٣٦	٢	١	٢	٢

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب- الحيـــوان الأليـــف

يجرى ذكر الأبـــل على ألسنة الشعراء الصعاليك أقل مما يجرى على ألسنة غيرهم من الشعراء الجاهليين ، كما يقل عن ذكرهم للأوابد . وأغلب ما قيل فيه يقع موقع الذكرى .

ومن المعروف أن النياق تقع في مقدمة عناصر الحياة لدى إنسان هذا العصر ، كما لا تتمثـــل عزيزة حب التملك لشيء أكثر منها فضلا عن كونها من أظهر ينابيع الجمال الأثيرة بالنسبة اليه .

والصعلوك قد حرم من هذه النعمة إلا ما يصيبه بالإغارة في غفلة من غفلات الناس الأغنيـــاء منهم بخاصة .

ولننظر ما يمثل موقفهم النفسي من خلال نماذجهم الشعرية في ذلك :

يقول تأبط شـــرا : (١)

وَقَدْ صِحْتُ فِي آثَارِ حَوْمٍ كَأَنَّهَـــا ... عَذَارَى أَوْ بَكَارَةَ حِمْـــيَرا

ويقـــول : (٢)

ولكنَّ أَرْبَابَ المَخَافِي يَشُفُّهُـــمْ ... إِذَا افْتَقَرُوهُ وَاحِـــدًا أَوْ مُشَيَّعَا

ويقـــول : (٣)

أُهَزِّبِهِ فِي نَدْوَةِ الحَيِّ عِطْفَـــهُ ... كَمَا هَزَّ عِطْفِي بِالهِجَانِ الأَوَابِـــدُ

ويقـــول : (٤)

يَقُولُ لَكَ الخَلِيُّ وبَاتَ جَلْـــسًا ... بِظَهْرِ اللَّيْلِ شُدَّبِهِ الكُكُـــومُ

ويقـــول : (٥)

أُولَئِكَ أَعْطَى لِلْوَلَائِدِ خِلْفَـــةً ... وَأَدْعَى إِلَى شَحْمِ السَّدِيفِ المُرَعْبَلِ

حقيقة أن الشاعر الصعلوك مال إلى الانفصال عن المجتمع إلى اوابد الصحراء ، غير أن الصحـــراء

---

(١) ديوانه ، ص ١٠٠ ، الحَوْم : الأبل الكثيرة .

(٢) = ، ص ١١٧ .

(٣) = ، ص ١٧٢ .

(٤) = ، ص ٢٠١ . الحلى : الجمل الضخم .

(٥) = ، ص ٢٠١ . الولائد خلفة : ولائد الشاه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم تستطع أن تقدم له أهم متطلباته الأساسية ، ومن ناحية أخرى فإن الصعلوك إن استطاع الصبر على ذلك فلن يستطيع عمّا يرتبط بها من القيم كالكرم والشجاعة .

والأبيات السابقة توحي لنا بأن امتلاك الإبل من أهم أسس الكفاءة ، لأنها لا تمس صميم وجودهم ماديّاً فحسب ، ولكن لأنها تؤكد إنسانيته على نحو ما نلاحظه في حرصهم على اكتسابها من مدّخريها وتقديمها للمعوزين .

وقد يتخذ حديثه عن الإبل مظهرا من مظاهر نقمته على المجتمع ، وخروجه على تقاليده ، كالتحلل من اقتنائها وخدمتها ، معتزا باعتماده على نفسه .

كقول تأبط شرا : (١)

وَلَسْتُ بِرَاعِي ثَلَّةٍ قَامَ وَسْطَهَا ... طَوِيلُ العَصَا غُرْنِيقِ ضَحْلٍ مُرَسِّلِ
وَلَسْتُ بِتَرْعِيٍّ طَوِيلٍ عَشَاؤُهُ ... يُؤَنِّقُهَا مُسْتَأْنَفُ النَّبْتِ مُبْهِلِ
وَيَوْماً عَلَى أَهْلِ المَوَاشِي وَتَارَةً ... لِأَهْلِ رَكِيبٍ مِنْ ثَمِيلٍ وَسُنْبُلِ

يصورلنا النموذج السابق نمطا للحياة التي ينتهجها الشاعر ، وهي حياة ليس وكدّها الحصول على الرزق ، ولكن أكبر همها طريقة الحصول عليه ، ليعيش مع جماعة في إطار من خصوصية مطالبه وأهمها رفضه الخضوع .

وهي عند عروة أيضا طرف في معادلة وجوده ، وحق له مشروع لا ينتظره من أيدى الأغنياء ، ولكن يترصده منهم ترصدا ، وهو لذلك متوتر دائما يرى في الانطلاق استجابة حقيقية لما فطر عليه . وهذه الأبيات صورة حقيقية لمذهبه في الحصول على المال /النوق . وهي الوجه اللاشعورى الذى يكشف عن ضيقه وهربه من قيود حياة المجتمع . يقول في ذلك : (٢)

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سَوَاماً وَلَمْ يُرُحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ

فعروة إزاء أزمة وجودية تبدأ بأدراكه المسؤولية الخطيرة بوصفه إنسانا نحو أُسرته الكبيرة المكوّنة من فقراء المجتمع .

والطريف في تجربته هو رؤيته النافذة للأزمة التي يعانيها هو وغيره ، إذ يأخذ بأطرافها فيصعّدها إلى النهاية ، ثم يطرح حلاً لها .

---

(١) ديوانه ، ١٧٢/١٧٤ . مرسّل : كثير اللبن . غرنيق : طائر أبيض . الترعي : الراعي .
المبهل : الراعي يهمل ابله .
(٢) ديوانه . ص٢٩ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومشكلته تبدأ من الحاجة الأساسية للعيال ، ومافرض على الصعلوك من القهر والتسلط والمجهول القلق ٠٠ وكل ما ينتهي بالإنسان الى الاحتجاج والرفض لواقعه ٠

وقصيدته في أهل الكنيف (وقد ذكرت في موضع آخر) تمثل هذه الرؤية وهي تبدأ بقوله : (١)

وَمَنْ بِكَ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ ٠٠٠٠٠٠٠٠

وقصيدته التي يخاطب بها تماضر ومنها : (٢)

خَاطِرْ بِنَفْسِكَ كَيْ تُصِيبَ غَنِيمَةً ... إِنَّ الْعُقُودَ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحُ
الْمَالُ فِيهِ مَهَابَةٌ وَتَجِلَّةٌ ... وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَفَضُوحُ

تمثل هذا الاتجاه ٠

وذكر الإبل والنياق يتردد عند عروة أكثر من سائر لداته من شعراء طائفته ٠ ولقد يكون لمشاعره الباطنة الخفية في رئاسة رفاقه ، وهذا الأمر يحتاج إلى امتلاك الأبل مع صفات وراثية - دخل في ذلك ٠ وقد يكون أيضا لكثافة اختزان نفسه بأوقار المجتمع زيادة عن غيره دخل في هذه الكثرة من هذا الشعر ٠

وسواء كانت هذه الأسباب أوسواها فأن عروة أقوى الشعراء الصعاليك ثورة على مجتمعه ، وأقواهم إيمانا بحقوقه وحقوق الفقراء التي ينتشوفها عند الأغنياء ٠ كقوله : (٣)

أَخَذَتْ مَعَاقِلَهَا اللِّقَاحَ لِمَجْبِلٍ ... حَوْلَ ابْنِ أُكْثَمَ مِنْ بَنِي أَنْمَارِ
وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمُ بِلَيْلٍ دَامِسٍ ... وَلَقَدْ أَتَيْتُ سَرَاتَكُمْ بِنَهَارِ
فَوَجَدْتُكُمْ لِقِحًا حُبِسْنَ بِخُلَّةٍ ... وَحَبِسْنَ إِذْ صُرَّ بَنَ ، غَيْرَ غِزَارِ
مَنَعُوا الْبِكَارَةَ وَالإِفَالَ كِلَيْهِمَا ... وَلَهُمْ أَضَنُّ بِأُمِّ كُلِّ خُوَّارِ

ومن هذه المواقف الشعرية التي تمثل مذهب الشاعر في صنع حياته وحياة الآخرين ممن قدر عليهم رزقهم ليعوضوا مافاتهم من فقر مادي ، أو فقر في النسب الذى شغف به الذين ينتمون للقبائل ٠٠٠٠٠ من هذه المواقف قوله : (٤)

لَعَلَّ انْطِلاقِي فِي الْبِلادِ وَبُغْيَتِي ... وَشَدِّيَ حِيَازِيمَ الْمَطِيَّةِ بِالرَّحْلِ
سَيَدْفَعُنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ ... يُدَافِعُ عَنْهَا بِالْعُقُوقِ وَبِالْبُخْلِ

---

(١) ديوانه ، ص ٤٠ ، ٤١ ٠
(٢) = ، ص ٤٣ ٠
(٣ ، ٤) ديوانه ، ص ٨٤ ، ١١٥ ٠ صرّين : منعن ، ومعنى الابيات : هؤلاء يضنون بكل شيء في كل وقت ٠ الخلّة : نبات حامض ٠ اللقح : الناقة الحلوب ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

على الرغم من وحدة نظر الصعاليك ووحدة كفاحهم ووحدة ما اعتمدوا عليه من وسائل العيش فليس من اليسير تحديد درجة ارتباطهم بأي حقل من أوجه الحياة . ومن البين أن اهتمام الشنفرى بالابل النياق لم يبلغ مبلغه عند عروة أو تأبط شرا . وفي ظل استكناه علاقات هؤلاء الشعراء يتراءى لنا أن لكل منهم قضية محورية وفقا لظروفه الأكثر خصوصية . وهذه الخصوصية لاتلغي اندماجه في الهيكل العام الذى تتلاقى فيه كل أفرادهم .

وقدرأينا أن الناقة تحظى باهتمام عروة أكثر من غيره ، وقلنا إن هذا الاهتمام ربما نجم عن شعور باطن يتمثل في نزعة عروة لزعامة جماعته . وهذا ما يمكن تسميته بالقضية المحورية الشخصية .

فاذا انتقلنا الى الشنفرى وجدنا عنده قضية محورية شخصية من نوع آخر .

الواقع أن قضية الشنفرى قد صاغت منه نموذجا للتمرد حتى على نفسه بعد أن كشف له زيف قبيلة سلامان وتدليسها . فكان لجهله قبيلته ، ولخفاء المنبت ، ولشعوره الحاد بالضعف عن تفسير هذا الخلل في حياته ماصرفه عن المجتمع وحيوانات المجتمع إلى غير ذلك .

وحين يذكر موضوع النياق فأنما يسير بها باتجاه مغاير ، اذ يذكرها في موضع الزراية من أربابها والسخرية ممن يبذل العناية لتربيتها ، فيقول : (١)

وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ ... مُجَدَّعَةً سُقْبَانُهَا وَهْيَ بُهَّلُ

ولا نكادنلمس في شعره مايدل على إحساسه بنعيم مفقود ، ولا تكاد تخرج أحاديثه في الناقة عن كونها وسيلة للرحلة وعن تشبيه عابر إلى التطلع إلى غاية مصيرية كما هو الحال عند عروة .

من ذلك قوله يصف ازدحام القطا على المورد : (٢)

تَوَاقَيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا ... كَمَا ضَمَّ أَزْوَادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَلُ

وقوله : (٣)

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَبَاشَرْنَ لَحْمَهُ ... عَقِيرَتُهُ لأَيُّهَا حُمَّ أَوَّلُ

واذا كان العمل الفني - ومنه الشعر - " تدفع اليه نفس الأسباب التي تدعو إلى الحلم ، ويحقق من الرغبات المكبوته في اللاشعور مايحققه الحلم . " (٤) فأن في شعر السليك في الناقة مايمكن

---

(١) اللامية ، ٥٤ . عشى السوام : رعى البهائم ليلا . السقبان : أولاد الناقة بهّل : النوق . المهياف : الذى يبعد بابله طلب المرعى على غير علمه .

(٢ ، ٣) اللامية ٦٤ ، ٦٢ . عقيرته : جثته . تباسرن : افتسمن . الأصاريم : جماعة من الابل .

(٤) التفسير النفسي للأدب ص ٤٠ . د . عز الدين اسماعيل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن يخضع لهذه النظرة . فالسليك كغيره من الصعاليك أحسّ بالغربة التي ضرب أطنابها حوله المجتمع ، كما أحس بالضياع في قبيلة تنكرت له ، لكنه أدرك بأن له من المزايا الجسدية والنفسية ما لايتصف بها إلا القليل من أناسيّ كثيرين .

وكان هذا الشعور مبعثا للبحث عن الكمال . وكان هذا الكمال عند السليك اغتنام النياق، لأن ذلك لايتأتى إلا لذوى الأنفس الكبيرة والأبدان الصحيحة . يقول السليك متحدثا عن رباطة جأشه في إغارته : (١)

وَقُلْتُ لَهُ خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً ... وأَهْلاً ، وَلاَ تَبْعَدْ عَلَيْكَ شَرُوبُ

فصور الأبل عنده مرادفة للفروسية والقوة إلى الحد الذى يتمكن بهما من غزو الملوك ، يقول في ذلك : (٢)

أمعتقي رَيْبَ المَنُونِ وَلَمْ أَرُعْ ... عَصافيرَ وادٍ بَيْنَ جَأْشٍ ومَأْرَبِ

وهو يفتتن بالنياق حتى يجمعها من مظانّ مختلفة ،ويضفي عليها مايشاء من صفات الحسن والأكتمال إذ يقول : (٣)

وعَاشِبةٍ رُجّ بِطانٍ ذَعَرْتُهَا ... بِصَوْتٍ قتيلٍ وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ

ويقول : (٤)

إذا أرْمَلُوا زاداً عَقَرْتُ مَطِيَّةً ... تُجَرّ بِرِجْلَيْهَا السَّرِيحَ المُخَدَّمَا

ويمكن القول بأن ذكرهم للنياق في أكثره إنما هو قناع يخفي تحته ارتكاسات كثيرة من الظلم والحرمان . فكانت هذه الصور رامزة لحياة خصبة يحلمون بها في يقظتهم ، كاستجابات لما يعانون .

كما ظهرت آثار تلك الاستجابات عند شعراء آخرين كقول الأحيمر : (٥)

مَعي فتيةٌ بيضَ الوجوه كأنَّهُمْ ... على الرَّحْلِ فَوقَ النَّاعِجاتِ بُدُورُ

بعد قوله : (٦)

وإنِي لأَسْتَحْيِي مِنَ اللّه أنْ أرَى ... أجرِّزَ حَبْلاً لَيْسَ فيه تَعسير

---

(١) السليك -أخباره وشعره ص٤٦.

(٢) = = = ص٤٨. العصافير : أبل الملوك .

(٣) = = = ص٥٩. الرّج : العظيمة السنام .

(٤) = = = ص٦٦. أرملوا ازادا : أنفذوه . السريح المخدما : السير الغليظ المشدود في رسغ البعير .

(٥ ، ٦) أشعار اللصوص وأخبارهم ١٠٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقولـــه أيضا : (١)

أَشْكُو إلى اللّهِ صَبْرِي عَنْ زَوَامِلِهِ ... وَمَا أُلاقِي إذا مَرّتْ لجَـــرّانِ

ومما يصور هيامهم بها وأثرها على نفوسهم قول أبي خراش : (٢)

إذا هِيَ حَنّت للهَوى حَنّ جَوفُهـا ... كَجَوْفِ البَعِيرِ قَلْبُها غَيْرُ ذِي عَزْمِ

وقول قيس بن الحدادية : (٣)

وَرُعْنا كِلاباً قَبْلَ ذاك بِغَارَةٍ ... فَسُقْنا جِلَادَاً في المَبارِكِ قُرَّحَـــا

وقول صخر الغـي : (٤)

ياقَوْمُ لَيْسَتْ فِيهِمْ غَفِيـــرَةٌ ... فامْشُوا كَمَا تَمْشِي جِمالُ الحِيرَةْ

نستطيع أن نتبين من ذلك موقفين :

أحدهما : يشير الى أن ذكر الأوابد من الحيوان يفوق ما للأليف من ذكر بسبب ندرة اقتناء الصعاليـــك للأخيرة ، اذ اتسمت طبيعة حياتهم بالمطاردة وذبح ماينتزعون من أيدى الأغنياء والتعجيل في ذبحـــه وتوزيعـــه .

أما الآخر فيحمل طابـع الاستجابات لما تعلق به قلب الشاعر من نقمة على التقاليـــــــد أونزوع إلى الحرية .

أما الخيل فتُشكل لإنسان العصر الجاهلي بطاقة الوجود ، حاضرة ومستقبله ، وبطاقة اختـراق المكان بالسفر والغزو وغيرهما . وإذا قلنا بأن الخيل أهم أركان كينونة ذلك الإنسان لجاز لنا ، لمـــا يرتبط بوجودها من خير وقوى فاعلة وفروسية . فمن البديهي والحالة هذه أن تحتل مقاما رفيعـــــا في حياتهم الشعرية ، كما نجد ذلك عند امرىء القيس وعنترة العبسي والمزرّد بن ضرار وغيرهم .

وقد عرفنا أن الصعلكة نمط من الحياة قائم على الصراع مع الناس ومع الطبيعة من أجـــل البقاء ، وأنهم أحسوا أنهم لم يصيبوا في الحياة أقل ما هم أهل له . مما أدى الى ارتياد أماكن تنفســـح أو تضيق بمقدار ما تمليه عواطفهم .

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص ١١٢ .

(٢) ديوان الهذليين ، ص ١٢٥ .

(٣) الأغاني ، ص ٣ ، جـ ١٣ .

(٤) ديوان الهذليين ، ص ٣٣٨ / ٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والخيل مادة تملك ، والتملك من دعائم الأستقرار ، وذلك يتنافى مع طبيعة الظروف التي عاشها الصعلوك حيث آثر حياة المطاردة والانطلاق مستعينا بقدراته ومؤهلاته الجسدية ٠

واذا اعتبر معظم الناس أنفسهم أثريا ء بالمال / النوق والخيول فإن الصعلوك اعتبر نفسه غنيا بكيانه الجسدى ، وقد عبر عن ذلك في مجال عدوه وهربه منوّها بفضل رجليه ٠ لكنه وقد اعتمد على هذا المؤهل معادلا موضوعيا لاقتنا ء الخيل لم يمنعهم ذلك من اقتنائها والتطلع الى امتلاكها فهل قد م هؤلا ء الشعرا ء بُعدا جديدا غير ما ألفناه في الشعر الجاهلي ؟

إن الشاعر الجاهلي على الأغلب يتأنى في صفه الفرس ويربطها برؤى من مشاهد الطبيعة كالصخور المنقضّة ، والسيول المتدفقة والمياه المنهمرة كما نجد في شعر امرى القيس ٠ أو بحيوانات أخرى كالآرام والعين ، أو الطيور الجارحة ، أو الدلا ء كما نجد عند سلامة بن جندل السعدى وغيره ٠

فظروف الحياة وخاصة بعد إلقا ء السلاح ووقت السلم تمكنهم من التأنق في عرض صور الأفراس، وتمكنهم من التخيل في تصويرها على هيئة من الأكتمال٠

أما الصعلوك الشاعر فأن حياته كفاح مستمر ، لاتمكّنه من الوصف المتأني والمتأنق ، وكل أسباب العيش تأخذ عنده صورة الأنتزاع والأختطاف والمخاطر ٠ ولانتوقع إلا أن يسير شعره مواكبا لهذه الحياة العجلى ٠ ومن هنا يمكن تفسير قلة أشعار الصعاليك في الخيل ، حيث جاءت شذرات متفرقة ، ولاتحفل بالتفصيل ٠ ووقع أكثرها مقرونا بوظيفتها الأساسية المتمثلة في الغزو والمطاردة على خلاف سائر الجاهليين الذين تحدثوا عنها حديثا مسهبا ظاعنين أو محليين أو غازين ، وفي حالات الهيام والحنين ، والرضا والسخط ، والسلم والحرب ٠

ان ما قاله الشاعر الصعلوك في الخيل يشبه قوله في النياق من حيث كونه مسكونا بأحساسه الضيق الذى يدفعه إلى الضرب في الأرض والأندفاع في مجاهلها ٠

والخيل إذ ذاك وسيلة للهرب الى عالم غير عالمه يمثل أشواقه النفسية للبطولة والفروسية والاصرار على الموت في سبيل الحياة ٠

مما قيل في هذا المجال قول عروة : (١)

تَكَشَّفُ عائذٍ بَلْقا ءَ تَنْفِي ذُكورَ الخَيْلِ عَنْ وَلَدٍ شَفُورِ

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٥٦ ٠

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقولـــه : (١)

أتجْعَلُ إقْدامي إذا الخَيْلُ احْجَمَتْ ... وكرّي إذا لَمْ يَمْنَعِ الدَّبْرَ مانِعُ
سَواءً وَمَنْ لا يُقْدِمُ المُهْرَ في الوَغَى ... وَمَنْ دَبْرُه عِنْدَ الهَزاهِزِ ضائِعُ

وقولـــه : (٢)

كَأنّي حِصانٌ ما لَ عَنْهُ جِلالُـــه ... أعَزُّ كَرِيمٌ حَوْلَهُ العُوذُ راتِـــعُ

عروة ضجر بالحياة ، والمسافة بين ماهو واقع وبين ما يرنو اليه كبيرة ، ولايقلصها إلا الحركـــة والأندفاع . والخيل أداتها لخلق واقع جديد . يبدو ذلك في قوله : (٣)

لعلّ اندفاعي في البِلادِ وَبُغْيَتي ... وَشدّي حَيازِيمَ المطيةِ بالرَّحْلِ

وقولـــه : (٤)

كَلَيْلَةِ شيباءَ التي لستُ ناسِيا ... وَلَيْلَتَنا إذْ مَنّ ما مَنّ فَارْمَلُ

وقد يعكس هذا الشعر ما في نفسه من الشعور اللاواعي الذى يمثل حنينه الغرزى الى منابت نشأته التي درج عليها .

فالخيل لم تكن مجرد وسيلة حربية ، أو عرض امتلاك ، أو مظهر ترف ، وإنما تشكل حركـــة احتجاجية فتضمن قضاياه ومن أبرزها الحرية ورفض اسلوب المجتمع نشعر بفاعلية هذه الحركة في قول تأبط شـرا : (٥)

وزِلْتُ مُسَيّرًا أهْدِي رَعيـــلاً ... أأمّ سَوادِ طَـوْدٍ ذي نِقـابِ

وفي قولـــه : (٦)

وأشْقَرَ غَيْداقِ الجِـــراءِ كأنّـهُ ... عُقابٌ تدلّى بَيْنَ نَيْقَيْـنِ كاسِـرُ
يَجُمّ جُمومَ البَحْـرِ طالَ عُبابُـه ... إذا فاضَ مِنْه أولٌ جاشَ آخِيـــرُ

وعلى الرغم من قلة ذكر الخيل فإنه ينير النص كاملا . بيان ذلك أن الشاعر في كثير مـــن المواقف يصوغ من شخصه مبدأ أساسيا تلتقي حوله الأحداث لتقدم لنا أخيرا رؤيته الخاصة للحياة .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ٩٧ .
(٢) = = = ، ص ١٠٠ . العوذ : الحديثة النتاج من الابل .
(٣) ديوانه ، ص ١١٥ .
(٤) ديوانه ، ص ١٢٣ .
(٥) ديوانه ، ص ٧١ . الرعيل : القطعة من الخيل . النقاب : الشق في الجبل .
(٦) = ص ٨٢ . غيداق الجراء شديد الجرى . جمام البحر : هياجه . النيق : أرفع مكان في الجبـــل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وفي كثير من هذه المواقف تتقارب المعاني التي يصور بها نفسه مع المعاني التي يصور بها فرسه تقاربا يكاد يصعب تمييزه كما في البيت الثاني من النموذج الأخير السابق ٠

وكما في قولـــه : (١)

إذَا رَاعَ رَوْعُ المَوْتِ : رَاعَ ، وإِن حَمَىٰ ... حَمَىٰ مَعَهُ حرٌّ كَرِيمٌ ، مُصَابِـــرُ

وقولـــه : (٢)

أَخَالِجُ وُرَّادَ عَلَىٰ ذِي مَحَافِـــلٍ ... إِذَا نَزَعُوا مَدُّوا الدِّلَاءَ الشَّوَاطِنَـــا

ولانستطيع أن نجزم بأن هذا النحو يشكل نظاما موحدا بينهم ، وقد لايعدو مسارا لغويـــا فالجودة ، والعتق والأصالة ، ونقاء الجوهر ، والعطاء ، وشدة العدو ٠٠٠٠٠ صفات مشتركة بين الانسان والخيل ٠

ومما يصور نشاط الشاعر أو حركة الفرس في نفس الشاعر -إن جاز هذا القول -للانطلاق به نحو حياة أفضل قول تأبط شرا : (٣)

وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ الفَجْرِ عَرْضًا كَأَنَّهُ ... بِلَحْمَتِهِ أَقْرَابُ أَبْلَقَ أَدْهَـــمِ

وقولـــه : (٤)

يَفُوتُ الجِيَـــادَ بِتَقْرِيبِـــهِ ... وَيَكْسُو هَوَادِيَهَـــا قَسْـــطَلَا

وبنفس الاتجاه تتحرك فرس الشنفرى لتوليد صورة (وان كانت مبهمة) لحياة أفضل ، وفرســه أداة لهجر القريب الى البعيد ، وهو قوة تبشيرية لحياة ينتظرها ٠ وهو الصديق الحميم الذى صاغـــه القدر ، ومفتاح التطلع والاستشراف ، وهو المتفرد بصفات الكمال ٠ تلمح هذه الرؤى من خلال تأملنـا في قولـــه : (٥)

ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ فُؤَادٌ مُشَيَّـــعٌ ... وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْـــرَاءُ عَيْطَلُ

وفي قولـــه : (٦)

إِذَا انْفَلَتَتْ مِنِّي جَوَادٌ كَرِيمَةٌ ... وَثَبْتُ فَلَمْ أُخْطِئْ عِنَانَ جَـــوَادِي

---

(١) ديوانه ، ص ٨٥٠

(٢) = ، ص ٢١٧ ٠ اخالج : جأخلج : الجواد السريع واستعارة للضياع ٠

(٣) = ، ص ٢٠٨ ٠ الأبلق : ذوبياض وسواد ٠ الأدهم : الأسود ٠

(٤) = ، ص ١٦٣ ٠ الهوادى : السوابق المتقدمة ٠ القسطل : التراب ٠

(٥) اللاميـة ، ص ٥٣ ٠ اصليت : الصقيل ٠ عطيل : العنق الطويلة ٠

(٦) ديوانه / الطرائف الأدبية ، ص ٣٥٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقولـــــه : (١)

وَلاَ عَيْبَ فِي اليَحْمُومْ غَيْرَ هَزَالِـــهِ على أنَّهُ يَوْمَ الهِياجِ سَمِيـــنُ

فإن لم يكن هناك توافق بين التجربة الشخصية للشاعر وتجربته الفنية كما قد يتوهم لافتقـــاره إلى الخيل ، فذلك لايمنع على الأقل من أن يكون هذا الموقف بمنزلة قوة إعلامية • بصورة بدائيـــة يستخدمها الشاعر في التعبير عن تصدع العلاقة بينه وبين المجتمع • والفرس على هذا النحو يتخـــذه الصعلوك رمزا للمساندة النفسية للبحث عن شخصيته الضائعة •

وهو ضياء في جوب الآفاق • يقول صخر الغي متخذا من وصف صراع مابين حمارين وحشـــيين وفرس ما يصور رؤيتـــه : (٢)

فباتا يُجْيِبَانِ اللَّيْلَ حَـــتَّى أضاءَ الصُّبْحُ مُنْبَلِجـــا وَقَامـــا
وَقَدْ لقيا من الأشراق خَيْـــلا تَشُوفُ الوَحْشَ تَحْسَبُهَا خِيَامَا
بِكُلِّ مُقَلَّصٍ ذكرٍ عَنُـــــود يبذِّدُ العشَنَّقِ واللِّجَـــامَا

وما يقال في ذلك يقع أكثره حين تحركهم الرغبة ، أو الذكرى أو مأساة الحياة • أي تحرك هـذه الصورة في أذهانهم وتشخصها أمام أنظارهم •

ومثل ذلك قول قيس بن الحدادية : (٣)

نَحْنُ جَلَّبْنَا الخَيْلَ قَبَّاءَ بُطُونُهَـــا تَرَاهَا إلى الدَّاعِي المُنَوِّبِ جُنَّحَـــا

وقولـــه : (٤)

وَسُمْرُ الرِّيَاحِ وَجُرْدُ الجِيَـــادِ عَلَيْهَا فَوَارِسُ صُدْقٌ نُجُـــبْ

وقولـــه : (٥)

أَلاَ قَدْ يُسَلِّي ذو الهَوَى مِنْ جَنِينِهِ فَيَسْلاَ وَقَدْ تَرْوَى المَطِيُّ المَطَامِعُ

ذلك مما يكشف عما في نفس الشاعر من رغبة وأمل وذكرى تلازمه طول كفاحه •

وعند حاجز الأزدي لانكاد نظفر إلا بالقليل في ذلك ، وهي مع قلتها تعطينا صورة نفسية للخيل

---

(١) ديوانه / الطرائف الأدبية ، ص ٦٦ • السائف : الصائد • مقلّص : مشرف طويل القوائم العشنّق : الطويل من الرجال والخيل أيضا •

(٢) ديوان الهذليين ، ص ٦٦ •

(٣، ٤، ٥) الأغاني ، جـ١٣، ص ٣ • قبّاء : ضامرة •

© Arabic Digital Library Yarmouk University

عنده وعمق العلاقة بينهما متمثلة في قدرة الشاعر على التحول بقضاياه الأساسية الى واقع أفضل .

يقول حاجز : (١)

بِنَاجِيةِ القَوائِمِ عَيْسَجُورِ تَذارَكْتُها عامًا فَعامًا

ويقول : (٢)

تَرَى البِيضَ يَرْكُضْنَ المَجاسِدَ بِالضُّحَى كَذَا كُلُّ مَشْبُوحِ الذِّراعَيْنِ نازِعُ

كما يقول : (٣)

وَيَوْمٍ كَرَاءٍ قَدْ تَدارَكَ رَكْضُنا بَنُو مَالِكٍ والخَيْلُ صُعْرٌ خُدُودُها
وَنَحْنُ صَبَحْنا الحَيَّ يَوْمَ تَنُوفَةٍ بِمُلْمُومَةٍ تَهْوِي الشَّجاعَ وَبِيدُها

وما نعت الخيل بالبياض ، وما وقف أكثر غاراتها على الصباح فضلا عن اقترانها بالفجر ، ما ذلك إلا مؤشر على نسبتها إلى الحق الذي يرتبط بهذه الصفات عندا لشاعر وغيره ، إذ الحق : أبيض ، مشرق ، أغرّ ، أبلج .... الخ .

والأمر كذلك عند السليك ، فالخيل لما لها من مساندة على استجلاء الحق . لا لكونها مظهرا للسيادة . تستحق القداسة . وفرس الشاعر إذا كان لا يعرف الهزيمة فلأن الحق نفسه منغلب أخيرا

ويقول السليك : (٤)

تَفاقَدْتُمْ هَلْ أَنْكَرَنَّ مُغِيرَةً مَعَ الصُّبْحِ بَهْدِينَ أَشْقَرُ مُغْرِبُ

ويقول : (٥)

كَأَنَّ قَوائِمَ النَّحامِ لَمَّا تَجَمَّلَ صُحْبَتِي أَصْلًا مَحَارُ
كَأَنَّ مَناخِرَ النَّحامِ لَمَّا دَنا الإِصْباحُ كِيرٌ مُسْتَعارُ

ويقول : (٦)

أَخْرِجِ النَّحامَ وَاعْجَلْ يا غُلامُ وَاقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيْهِ واللِّجاما

---

(١) الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٥٠ .

(٢ ، ٣) = جـ ١٢ ، ص ٥٠ ، ٥١ . كراء : موضع .

(٤ ، ٥ ، ٦) السليك / أخباره وشعره ص ٤٨ ، ٥٢/٥٣ ، ٦٥ .

مغرب : يسرع في جريه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فما قيل بالخيل من شعرهم ينبع أكثره من شدة التوق للبحث عن ذواتهم موظفين الخيل أداة للنفاذ من ذلك الطريق المسدود .

ذلك أظهر ما روى من تجاربهم في هذا الموضوع . وثمة أبيات متفرقة في مظان مختلفة من المراجع تلتقي مع النماذج السابقة في تصوير إحساس الشاعر وطريقة تناوله لقضاياه . منها قول أبي جندب : (١)

على حَنَقٍ صبَّحْتَهم بمُغيرةٍ ... كَرِجْلِ الدَّبى الضَّيفيِّ أصْبَحَ سائِحا

وقول أبي كبير : (٢)

فَرَأَيْنَ قُلَّةَ فارسٍ يَعْدو بِهِ ... مُتَغَلِّقُ النَّسْبَيْنِ نَهْدُ المَخْرَمِ
ذُو غَيِّثٍ بَنْزٍ يَبُذُّ قَذالُهُ ... إن كان شَغْشَغَةُ سَوارِ المُلْجِمِ

وقول عمرو بن براقة : (٣)

فلا صُلْحَ حتّى تَعْثُرَ الخَيْلُ بالقَنا ... وَتَضْرِبَ بالبِيضِ الخَفافِ الجَماجِمُ

وقول الأحيمر : (٤)

بأقبَّ مُنْصَلِتِ اللِّبانِ كأنَّهُ ... سَيْدٌ تَنَصَّلَ مِن حَجُورٍ سَعْالِ

فهذه وماسبق من النماذج تعكس في أحد أبعادها الرئيسة رؤية شاعرية لاتتصل بحاجات الصعلوك بوصفه فردا فحسب ، ولكنها تتصل بحاجاته إنسانا من مأكل ومشرب ومأمن وتحرر .

وفي الصفحة التالية لوحة إحصائية تمثل ظهور الأليف من الحيوان في شعرهم .

---

(١) ديوان الهذليين ، ٣/٨٩ . الدبى : الجراد

(٢) = = ٢/١١٣ . نهد المخزم : عظيم البطن . الشغشغة : تحريك اللجام
البنز : الكثير .

(٣) حماسة البحترى . ص ٣٢ .

(٤) أشعار اللصوص وأخبارهم . ص ١١٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحيوانات الأليفة

الحيوانات التي ذكرها الشاعر	الخيل	النوق	الغنم	الكلاب	الحمار
تأبط شرا	٥	٧	١		
الشنفرى	٤	٤			
عروة	٧	١٧	١		١
صخر الغي	١	٢		١	
السليك	٦	٦			
قيس بن الحدادية	٣	٣		١	
أبو خراش		٢			
عبدة الطبيب	١	٨		٢	
أبو كبير					
حاجز الاسدى	٢	١			
الأعلم	١	١			
الأحيمر الاسدى	١	٤			١
أبو جندب	١	١			
مالك بن حريم					
المجموع	٣٢	٥٦	٢	٤	٢

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الخامـــــس

القضايا الفنية المتعلقة بالانسان في شعر الصعاليـــك

اللغـــــــــة

الجانب الصورى :

أ ـ التحوليـــــه ٠

ب ـ الصراع الداخلي ٠

الموسيقى الشعريه :

أ ـ تناغم الوزن مع الموقف النفسي ٠

ب ـ الأبحـر العروضيـة ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القضايا الفنية المتعلقة بالإنسان في شعر الصعاليك

يقتصر الحديث في هذا المجال على ماانفرد به شعراء هذه الجماعة من قضايا فنيّة ، مع محاولة لتفسير هذا الانفراد من حيث ارتباطه بموقف نفسي أو رؤية حياتية خاصة . ويتناول :

١- الجانب اللغوي
٢- الجانب الصّوري
٣- الجانب الموسيقي .

أولا : اللغة

قلنا بأن الصعلوك عاش غريبا منبتاوذاتا ومجتمعا :ففي المنبت فرضت عليه الظروف عدم الاستقرار والتمكن في مكان واحد . أما نفسيا فقد أحسّ بعضهم إحساسا عميقا بوضاعة نسبه ووضاعة شأنه . واجتماعيا عاش منبتّا عن قبيلته وغيرها . يقوم بالغارات والترصد والتوعد فقضى حياته بين ضواري الحيوانات وجوارح الطيور . من كان هذا حاله لابدّ أن يصف أو يعدد على الأقل مايشاهده من أماكن غريبة من مراقب ومرابى، وغيرهما . كما نتوقع أن يذكر ما يتعايش معه من حيوانات وطيور عارضا بطبائعها وأطوارها وسبل عيشها .

وقد يلح به الخيال فيعرض صورا أشد غرابة من عالم المحسوسات كالجن والغيلان . والصعاليك يميلون بفطرتهم إلى الإغراب في إبداء قواهم وضروب شجاعتهم كما بينا ذلك في عرض قيمهم.

هذه المُعطيات تفرض أن يظلل لغتهم بعض الغربة ... فلغة شعرية تتبلور في القفار والفيافي لايشاهَد فيها إلاّ الوحوش والطيور ، ولايشترف غير المرابي، ووكنات الجبال مأمنا . لابّد أن تروى لنا كل مستغرب سواء في مادتها اللغوية أو في مادة مضامينها لأن " وحدة اللغة تحكمها وحدة الجماعة ، وكل جماعة موحدة متجانسة تسعى لأن يكون لها لغة موحدة متجانسة . وكل قسم من تلك الجماعة ينزع الى أن تكون له لغة خاصة في حدود ما يتمتع بن من استقلال . " (١)

وهي في مساراتها تتبع الحالات الأنسانية في بهجتها وغُبّياتها ، وانبساطها وتوترها . فما الذى تولد عن ظروف الصعاليك و جانس جماعتهم في لغتهم الشعرية ؟

في ظل المفاهيم السابقة نحس غرابة اللغة الشعرية في كثير من تجاربهم . وهذا الاستعمال لايقلل من قيمة شعرهم الفنية ، فقد يتجلى فيه من اكتمال الرؤية - ولو بعد جهد لفهمه- ما لايتجلى

---

(١) النقد المنهجي عندالعرب ومنهج البحث في الأدب واللغة . د. محمد مندور ، ص ٤٤٢. دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في البيّن من سواه ؛ لأن الشاعر الموهوب ، كما يرى فاليرى هو : " من يختار اللفظة المالحة لإحداث الرعشة النفسية وإحياء العاطفة الشعرية ، وتلك الرعشة النفسية والعاطفة الشعرية لا تتوقف على الواضح من الشعر . " (١)

من هذه الصيغ ذات الغربة ما وقع في قصيدة اللامية للشنفرى كقوله : (٢)

دَعَسْتُ عَلَى غُطْشٍ وَبَغْشٍ وَصَحْبَتِي
سُعارٌ وَإِرْزِبزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَلُ

فليس في ذاك البيت من مألوف القول سوى : دعست ، وصحبتي .

ومثل قوله : (٣)

أو الخَشْرَم المَبْعُوثُ حَشْحَشْتُ دَبْرَهُ
مَحَابِيضُ أَرْدَاهُنَّ سَامٍ مُعَسَّلُ

وقولـــه : (٤)

وَيَوْمًا بِذَاتِ الرَّسِّ أَوْ بَطْنِ مِنْجَلٍ هُنَالِكَ تَبْغِي القَاصِيَ المُتَغَوِّرَا

وقولـــه : (٥)

وَضَنَّيَّةٍ جُرْدٍ (؟) وَأَخْلَاقِ رِيطَةٍ إِذَا أَنْهَجَتْ مِنْ جَانِبٍ لَا تُكَفَّفُ

ومنه قول تأبط شـرا : (٦)

بِهِ مِنْ نِجَاءِ الدَّلْوِ بِيضٌ أَقَرَّهَا جُبَارٌ ، لِصُمِّ الصَّخْرِ فِيهِ قُرَاقِرُ

وقولـــه : (٧)

أُنَهْنِهُ رِجْلِي عَنْهُمُ وَإِخَالُهُمْ مِنَ الذُّلِّ يَبْرَا بِالتِّلَاعَةِ أَعْفَرَا

وقولـــه : (٨)

عَلَى غِرَّةٍ أَوْ جَهْرَةٍ مِنْ مَكَانِسٍ أَطَالَ نِزَالَ المَوْتِ حَتَّى تَسَعْسَعَا

غير أن هذه الغربة أقل كثافة عند عروة منها عند غيره من الصعاليك ، ولعل ذلك يرجع إلـــى طبيعة عروة واستجاباته إلى الروح الجماعية ، ونزعته إلى قيادة جماعة الصعاليك من جهة ، وإلى أن أكثـــر ما كان يتحدث عنه من الحيوانات هو الأليفة منها . ومثل هذا المعهود يحتاج إلى كلام مألوف . بيد أن ذلـك

---

(١) مقدمة ديوان أفاعي الفردوس ، ص ١١ ، الياس أبو شبكه .

(٢ - ٢') لاميّة ٦٧ ، ٥٩ . الغطش : الظلمة . البغش : المطر الخفيف . الأرزبز : البرّد الصغير الوجر : الخوف . الإفكل : الرعدة ، الخشرم : رئيس النحل وقد سبق شرحه .

(٤،٥) الطرائف الأدبية ، ص ٣٧ . ضنّية : الملحفة . ريطة : ملاءة .

(٦، ٧ ، ٨) ديوانه ٩٥ ، ١٠ ، ١١٦ . النجاء : السحاب لا ماء فيه . بيض : بقايا الماء .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم يمنع من وجود غرابة نسبية لاتجهد الفكر كثيرا في استكناه قصدها من خلال تأملها في السياق .

كقولـــه : (١)

يُثاقِلْنَ بالشُّمْطِ الكِرامِ أُولي القُوىٰ ... نِعابَ الحِجاز في السَّريحِ المُسَيَّرِ

وقولـــه : (٢)

بِدَيْمُومَةٍ ما إِن تَكادُ تَرَىٰ بِهـــا ... من الظَّمَأِ الكُومَ الجِلادَ تُنَـــــوَّلُ

كما قد يرجع سبب سهولة هذه الغرابة - إن جاز هذا التعبير - إلى سعة علاقة الشاعر الإنسانية والتصاقه بالواقع ، وبمايسوده من مضامين مألوفة ، من جوار وصداقة وحبّ وحيوانات أليفة .

نجد هذا الملمح (الغربة) عند صخر الغي ، كقوله : (٣)

لِحَيَّةَ حَجْرٌ في وِجارٍ مُقيمَـــــةٍ ... تُنَمِّي بِها سوقَ المنا والجَوالِبِ

وقولـــه : (٤)

أَجَشُّ رِيحَلاً لَهُ هَيْـــدَبٌ ... يُكَشِّفُ لِلْخالِ رَبْطاً كَشِيفا

كما نجده عند أبي خراش ، كقولـه : (٥)

تُوائِلُ مِنْه بالضَّراءِ كَأَنَّـــه ... سَقاهُ لَها فَوْقَ التُّرابِ زَلِيلُ

وقولـــه : (٦)

فَجاءَتْ كَخاصِي العَيْرِ لَمْ تَحْلُ حاجَةً ... وَلا عاجَةٌ مِنْها تَلُوحُ على وَشْمِ

ونجد ذلك في كثير من شعر أبي كبير ، كقولـــه : (٧)

وَضَعَ النِّعاماتِ الرِّجالُ بِرَيْدِهـــا ... مِنْ بَيْنِ شَعْشاعٍ وَبَيْنِ مُظَلَّـــلِ

وقولـــه : (٨)

بُجُفاً بَذَلْتُ لَها خَوافِيَ نَاهِـــضٍ ... حَشْرِ القَوادِمِ كاللِّحافِ الأَطْحَلِ

(١ ، ٢) ديوانه ٧٤ ، ١٢٤ ، النقاب : الطرق في الجبال . السريح : ما قدّ فأتخذ سيورا .

(٣) ديوان الهذليين ، ص٦٨ .

(٤) ديوان الهذليين ، ص٦٨ ، ج٣ . أجش : سحاب . الرّيحل : الثقيل . الخال : المخيلة . الربط : البرق كشيفا : يكشفه من أجل ما فيه .

(٥) ديوان الهذليين ج٣، ص١٢٢ . توائل منه : تنجو منه . الضّراء : ما وارى من الشجر . السفاة : الشوكة زليل : تمر .

(٦) نفس المرجع السابق ، ص١٢٨، ج٣ . خاصي العير : يستحي مما صنع . حاجة : خرزة رديئة . العاجة : ذبلة

(٧) نفس المرجع السابق ص٩٧، ج٣ . (٨) نفس المرجع ص٩٩، ج٣ . النجف : العراض النصال . الحشر : اللطيفة . اللفاع : الكساء . الأطحل : الذى تكون الطحال .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وأمثلة ذلك كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ، وهي تكثر عند أبي الطمحان وحاجز ،وابن الحدادية وأبي جنـــدب .

ومما يلاحظ أن هذه اللغة (والمفردات عناصرها) تزداد غربة عندتفاعلهم مع موجودات الطبيعية، وفي حديثهم عن الحيوانات الآبدة ، لكنها تتناقص فيما يمثل تواصلهم وتعايشهم مع الناس ،وفيما يتحدثـــون به عن عاديات الزمان كرثاء تأبط شرا للشنفرى ومنها : (١)

عَلَىَ الشَّنْفَرَى سَارِى الغَمَامِ ، فَرَائِحٌ ... غَزِيرُ الكُلَى ، وَصَيِّبُ المَاءِ بَاكِـــرُ
عَلَيْكَ جَزَاءٌ مِثْلُ يَوْمِكَ بالجَبَـــا ... وَقَدْ رَعَفَتْ مِنْكَ السُّيُوفُ البَـــوَاتِرُ
فَلَوْ نَبَّأَتْنِي الطَّيْرُ، أَوْ كُنْتُ شَاهِدًا ... لآسَاكَ في البَلْوَى أَخٌ لَكَ . نَاصِـــرُ

ومنها قصيدة قيس بن الحدادية الغزلية في " نعم" (٢) ورثاء صخر الغي أخاه أبا عمرو (٣). ورثاء أبي خراش عمرو بن مرة (٤) ، ورثائه خالد بن زهير ، (٥) وقصيدة الشنفرى في أسرة مشيدا بتأبط شرا (٦)

---

(١) ديوانه تأبط شـــرا ، ص ٧٨.
(٢) الاغاني ، ص ٦ ، جـ ١٣.
(٣، ٤) ديوان الهذليين ، ص ٥١، ١١٦.
(٥) ديوان الهذليين ، ص ١٥١.
(٦) المفضليات ، ص ١٠٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجانب الصُّوري

يقصد بالجانب الصّوري هنا ذلك الموقف الذي حوله الشاعر وصاغه خلال تجربته الفنية من واقع كائن الى مثال منشود . ويدخل في ذلك كل مايدعم هذا الموقف ويزيد من تماسكه . فتعريضه بالقبيلة موقف ، وطريقة تعامله مع جاره موقف ، ونصرته جماعته ، ودفاعه عن المرأة ، وشدة ميله لذوات النقاب والمخلب ... كلها مواقف تدخل في نطاق البناء الصوري . ويدخل أيضا في هذا الأطار كل عنصر يريد في توليد كل نوعية جديدة . فالصورة هنا أشبه شيء بساحة تلتقي عليها أنشطة مختلفة من التدافع والتعارض والتكامل وما ينمي ذلك من ضروب التشبيه والاستعارة .

ومن مكوّنات الصورة :

أ- التحّولية

ونقصد بها ما ساد شعرهم من نزوع للآبد والوحوش ، وهذا نفسه يكشف عن موقف الصعلوك الذي تمثل في محاولة تخطي الواقع بكل مايملك من مؤهلات جسدية ونفسية ليصل إلى مجتمع أفضل . والذي صاغ هذا المجتمع الجديد قبل افراغه في تجربته الشعرية هو الخيال . وما حقيقة ما ذكره من الحمر الوحشية والذئاب والظّلم وغيرها إلا رموز ممثلة لِمَعانٍ تدور في تصوراته . وهذا بحد ذاته صورة شعرية تقول : " إن الحيوانات تعيش في سلام وطمأنينة مع أنفسها ، ومع الأشياء المحيطة بها ، لكن طبيعة الإنسان الروحية تحكم عليه أن يعيش في حالة من التمزق والازدواج ، وأن يتخبط وسط التناقضات الناجمة عن هذه الحالة " (١) .

ففي رثاء تأبط شرا للشنفرى مثلا يقدم لنا موقف القائل صورة لما يراه أو يحسه في صديقه ، والموقف هو الذي استدعى ما تضمنه من صور فنية كما في تصوره لطعنه صاحبه : (٢)

إذا كُشِفَتْ عنها الشُّتُورُ شَحَالَها ... فَمُ كَفَمِ العَزْلاءِ ، فَيْحانُ فاغِرُ

وكقوله في صاحبه أو في فرسه : (٣)

يَجُمُّ جُمومَ البَحْرِ طالَ عُبابُه ... إذا فَاضَ مِنْه أوَّلٌ جَاشَ آخِرُ

في ذلك الموقف صورة نفسية لمغالبة النهاية الزمنية ، أو صورة لما ينفرد به صاحبه من بسالة في مواجهة الأحداث .

---

(١) الأنواع الادبية . د . شفيق البقاعي ، ص ١٤٥ - مؤسسة عز الدين ، ط ١٩٨٥ / بيروت .
(٢) ديوانه ، ص ٨٠ .
(٣) = ، ص ٨٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وسواء كانت هذه أو تلك ، فأن ذلك لايمكن استبعاده مما تنطوى عليه في بعديها الشعورى واللاشعورى • بل يمكن أن يقال إن هذه الصور الجزئية قد دفعت استجابة تلقائية لذلك الموقف •

وإعراض المرأة عنه (في قصيدته : تقول لسيمى ص ١٦٢) ، هو الذى حرك خواطره بهذه الصورة الرائعة لجولانه الليل : (١)

وَأَدْهَمَ قَدْ جُبْتُ جِلْبَابَـــهُ كَمَا اجْتَابَتِ الكَاعِبُ الخَيْعَـــلَا

إذ لايخفى ما بين التباس الليل والتباس الكاعب من تلازم صورى •

ومن نفس الموقف انبعثت صورة الغول ، فكما تحول الشاعر عن مجتمعه الذى أعرض عنـــــه فلا يملك إلا التحول عن المرأة المعرضة عنه إلى الغول • إذ لم يبق ما يجسد رغبة المرأة عنده إلا هـــذه الصورة (٢)

وَطَالَبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَـــوَتْ بِوَجْهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْـــوَلَا

ومثل هذه المواقف يكثر عند عروة ••• منها ما يستثيره من ذكرى الماضي في نفسه من مظاهر الدّعة والشباب والمرح في حاضر ذى نمط مضادّ للماضي • وهذا الإلحاح يشكل بنية الصورة عند الشاعر، فتأخذ سبيلها إلى الموقف كما في قوله : (٣)

صَبُوراً عَلَى رُزْءِ المَوَالِي وَحَافِظًا لِعِرْضِيَ حَتَّى يُؤْكَلَ النَّبْتُ أَخْضَـــرَا

ذلك أن أكل النبت أخضر هو الحلم الذى يراود مخيلة الشاعر في واقع يمتزج فيه الظلم بالاستغلال •

ويزداد ذا التحول في الموقف / الصورة حدة عند الشنفرى ، وهو يتمثل بتوجهه ضدّ ما يغلف حياته الفردية بوصفه إنسانا مماثلا لأفراد مجتمعه • فلاميته وهي أطول تجارب تشكل مجموعة من المواقف تجاه الحياة • ففي مطلعها يواجهنا بقضيته الأساسية وهي التحول من مجتمعه إلى مجتمع آخر يحقق ما يريد • وبهذه القضية تلتقي سلسلة أخرى من القضايا الجزئية المرتدة إلى القضية الأساسية ، كما ترتد الأعضاء إلى الجسد • أما الصور القائمة على التشبيه أو الاستعارة فهي التي تزيد في حركة هـــذه القضايا إلى الاتجاه النفسي الكلي أى موقف الشاعر •

مما يلتحم في الموقف العام /الصورة في اللامية مثلا زهد الشاعر في الطعام • (٤)

---

(١) الديوان ، ص١٦٥ •

(٢) = ، ص١٦٥ ، البضع : النكاح • استهول : من الهول • استغول : من الغول اى تلون •

(٣) ديوان عروة ، ص٦٥ •

(٤) لاميته ، ص٥٢ •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

"وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزّادِ لَمْ أكُنْ بِأعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَـــومِ أعْجَـــلُ

وزهده في النساء والأقامة واللباس والستائر (١)

ولا خالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَـــزِّلٌ يَرُوحُ ويَغْدُو داهِناً يَتَكَحَّـــلُ

ويدخل في ذلك تحالفه مع حيوانات وطيور ذات مواصفات متمايزة ،لمايفتقده من أن الحل لمشكلته يكمن في التمرد على كل ما اعتاده المجتمع من أشكال ، ومادرج عليه من مفاهيم : (٢)

مُهَلْهَلَةٌ شَيْبُ الوُجُوهِ كأنَّها قِداحٌ بكَفَّيْ ياسِرٍ تَتَقَلْقَـــلُ

والصور التي تظهر فعاليتها في تحريك هذه القضايا ظاهرة ، ومع أنها موزعة في النص توزيعـــا غير منظم تماما ، لكنها تعمل على إثارة النصّ وتكشف عما يريد الشاعر .

من هذه الصور وصفه للذئب يستعوي رفاقه : (٣)

فَضَجَّ وَضَجَّتْ بالبَرَاحِ كأنَّهـــا وإيَّاهُ نَوْحٌ فَوْقَ عَلْيَاءَ ثُكَّـــلُ

ووصفه للقطا وهي تغدو على الماء ص ٦٢

كأنَّ وَغَاهَا حُجْرَتَيْهِ وَحَوْلَـــهُ أَضَامِيمُ مِنْ سَفْرِ القَبَائِلِ نُـــزَّلُ

وقوله يصف زهده في مطالب العيس :ص ٦٣ .

وَأعْدِلُ مَنْحُوضاً كأنَّ قُصُوصَـــهُ كَعَابٌ دحاها لاعِبٌ فَهْيَ مُثَّلُ

وهذا الوعي الذى يدفع الشاعر للتحول يتراكم في معظم أشعار الشنفرى التي تمر فيها أضـــواء سريعة من الصور فتضيء جوانبها كما في قصيدة : (٤)

وإنِّي زَعِيمٌ أنْ أُلَفَّ عَجَاجَتِي عَلَـــى ذِي كِسَاءٍ مِنْ سَلاَمَانَ أو بِزْرِ

وقصيدتـــه : (٥)

وَمَرْقَبَـةٍ عَنْقَاءَ يَقْصُرُ دُونَهَـــا أَخُو الضَّرْوَةِ /الرَّجْلُ الحَفِيُّ المُخَفَّـــفُ

وغير ذلك .

---

(١) لاميته ص ٥٥ :الخالف : الذى يقعد عن تلبية النداء . داريّة : الذى لايترك داره .

(٢) لاميته ص ٥٩ : المهلهلة : الضعيفة . تتقلقل : تضطرب .

(٣) لاميته ص ٦٠ : البراح :الارض الواسعة لانبت فيها . نوح : جمع نائحة .

(٤ ، ٥) الطرائب الادبية ص ٣٧ . عنقاء : طويله . إخو الضروة : الصياد .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن أثر هذه الصور التي يقدمها شعراء هذه الطائفة متميز عن سواه فيما يحسونه من مسائل الحياة اليومية ، في خلقهم عالما جديدا من الوحوش والغيلان سواء كان ذلك حقيقيا أم خرافيا . وقد لانجد مثل ذلك إلا في بعض الملاحم القديمة ، كملحمة جلجامش في حديثها عن " أنكيدو " البطل الغريب الذى عاش مع الوحوش والأيائل كما تحكي الملحمة .

ومن أقرب هؤلاء الشعراء تمثلا بهذه الصورة الأحيمر السعدى فهو ينشىء عالما جديدا مسكونا بمخلوقات جديدة ليظهر مدى شوقه لذلك كما في قصيدته : (١)

" أَرَانِي وَذِئْبَ القَفْرِ إِلْفَيْنِ بَعْدَمَا ... بَدَأْنَا كِلَانَا يَشْمَئِزُّ وَيُذْعَرُ

وقصيدته : (٢)

" عَوَى الذِّئْبُ فاسْتأنَسْتُ بالذِّئْبِ إذْ عَوَى
وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فكِدْتُ أَطِيرُ

وقصيدته : (٣)

نَهَقَ الحِمار فَقُلْتُ أَيْمَنُ طَائِرٍ ... إِنَّ الحِمَار من النَّجَار قَرِيبُ

ومثل هذه العلاقة بين الموقف واستدعاء الصورة لانعدم أثره عند جميع الشعراء . فشعرهم يجسد خلافا ولدّ صراعا . ومن حتمية الصراع أن ينتج موقفا يرتدى صورا لاتلتزم بالمحافظة والتقليد . ومواقفهم من ناحية أخرى محكومة بدوافع ومثيرات متماثلة . ويلحظ ذلك عند عروة في مواقف كثيرة تمثل التحفز والتوجس والانطلاق والبصيرة . منها قوله : (٤)

سَنُفْزِعُ بَعْدَ اليَأْسِ مَنْ لايَخَافُنَا ... كَوَاسِعَ فِي أُخْرَى السَّوَامِ المُنَفَّرِ

وقوله : (٥)

كَأَنَّ خُوَاتَ الرَّعْدِ رِزُّ زَئِيرُهُ ... مِنَ اللَّاءِ يَسْكُنَّ العَرِينَ بِعَثَّرَا

وقوله : (٦)

أَأَيِّ النَّاسِ آمَنُ بَعْدَ بَلْجٍ ... وَقَرْنَةِ صاحِبَيَّ بِذِي طِلَالِ

---

(١) أشعار اللصوص وأخبارهم ، ص١٠٥ .

(٢ ، ٣) أشعار اللصوص ، ص١٠٥ ، ص١٠٦ .

(٤) ديوان عروة ، ص٧٤ . كواسع : خيل تطرد إبلا .

(٥) ديوان عروة ، ص٦٢ . خوات الرعد : شبه زئير الأسد بصوت الرعد . بعثرا : مأسدة .

(٦) = = ص١٢٥ . الرز : الصوت الشديد .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقولـــه : (١)

كَأَنَّ حِصَانٌ مالَ عَنْهُ جِلالُـــه أَغرٌّ كَرِيمٌ حَولَهُ العُوذُ راتِـــعُ

وقولـــه : (٢)

وَقَلْبٍ جَلَا عَنْهُ الشَّكُوكَ فإنْ تَشَأْ يُخَبِّرْكَ ظَهْرَ الغَيْبِ مَا أَنْتَ فاعِلُ

ومنـها الكثير مما له الأثر الكبير في تعميق الموقف الكلي وتنويره . ولولا هذه الجزئيـــــات لما زاد التعبير عن هذه القضايا عن وجهة نظر بحكم صياغتها الوزن والقافية .

وفي وسع الدارس أن يخضع الكثير من أشعارهم لهذه الرؤية وان اختلفت بها الطرق . من ذلـك موقف صخر الغيّ في تعاطفه مع الفراخ ونفوره من الصياد في القصيدة التي يرثي بها أخاه : (٣)

يَبِيتُ إذا مَاآنَسَ اللَّيْلَ كَانِسـاً مَبِيتَ الغَرِيبِ ذِي الكِساءِ المُحارِبِ

وقصيدة أبي الطَّمَحان في تعاطفه مع الحمار الوحشي : (٤)

لِمن طَلَلٌ عافٍ بِذاتِ السَّلاسِـلِ كَرَجْعِ الوَشُومِ في ظُهورِ الأَناميـل

وإذا كان المعنى الأولي لا يوضح لنا هذه الصور، فان المعنى الإيحائي كما يسميه النقاد المحدثـون مسؤول عن هذه الصور الكامنة وراء المواقف النفسية فيما ذكر .

---

(١) ديوان عروة ، ص ١٠٠ .

(٢) = = ، ص ١٣٢ .

(٣) ديوان الهذليين ، ص ٥٣ ، ج ٢ .

(٤) قصائد جاهلية نادرة صورة عن منتهى الطلب رقم ١٧٥/١٧٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - الصـــــراع الداخلـــــــي

من المعروف أن حياة الصعاليك تميزت بالعلاقات الضدّية مع مجتمعهم وبتعاقب الأحـــداث والفرار ، ذلك لاشك يقتضي الحركة ، لكنها باتجاه معاكس لحياة قبائلهم وحياة الأغنياء في كلّ مكـــان ٠

وهذا لابد أن يترك أثر ه في تشكيلات نماذجهم وخاصة أنهم لم يستسلموا لهذه الظروف ، ولكنهم أحسوا أن مواجهة القوة بالقوة هو الشفاء النفسي لهم ، مما أدى إلى تميز أشعارهم فنيا بعناصـــــــر متضادة عرفت عند البلاغيين القدامى بالتقابل أو التطابق ٠

وما يدرس من هذا هنا هو مايمثل لونامن التقابل الذى يشبه الخطوط المتوازية التي يجرى بهـــا حركات متواصلة تكتسب أبعادها من مواقف نفسية تتصل بمشكلات شعورية أو لاشعورية ٠

نأخذ الآن شرائح مما يمثل أكثر الموضوعات دورانا في أشعارهم كحديثهم عن الجوع والعدْو والمراقب والرفاق والليـــل ٠

من المعروف في الفكر البلاغي أن المعنى المعبر عنه بالتقابل أعمق أثرا في النفس الإنسانيـــة من المعنى مجردا من ذلك ٠ ومن المحال ايضا أن نفهم الخبر في معزل عن تصور الشّر ، والحق دون أعوجاج ، والسعادة دون شقاء ، وراحة النوم دون سهاد مؤرق ٠

ويمكننا أن ندرك ذلك من خلال تحليلنا بعض الشرائح ٠

يقول عـــروة : (١)

تَنَالُوا الغِنَىٰ إذ تَبْلُغُوا بِنُفُوسِكُم إلى مُسْتَراحٍ مِنْ جِمامٍ مُّـــبَرِّحِ

ما الذى منح هذا المعنى قوته ؟ إنه ولاشك المقاومة ٠ فالخبر الذى يأتي بلا عنت ولارهق لا أهمية لـــه ، أو لايبلغ في قيمته ما يتأتى بالكفاح ، كالحركة الناجمة عن تصادم السيول بالحواجز ٠

والشاعر هنا وضع الغنى في قبالة الموت ، أى من لم يظفر به يتخطفـه الموت ٠ فلا مناص إذن من السعي ٠ (وقد يكون هذا الفهم خارج حقل الوعي) ٠

وتظهر الرغبة في التركيز على وضع الموت كمعادل نفسي للغني في أقوال كثيرة منها : (٢)

فَرُغْمَ العَيْشِ إلْفُ فَنَاءِ قَـوْمٍ وإنْ آسَوْك والمَوْتُ الـــتَّرَدَاحُ

---

(١) ديوانه ، ص٣٩٠

(٢) = ، ص ٤٢٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومنهـــا : (١)

ذَرِيني أُطَوِّفْ في البِلادِ لَعَلَّنِي أُخَلِّيكِ أَوْ أُغْنِيكِ عَنْ سَوءِ مَحْضَرِي

وهكذا يلتقي الحرمان والموت في طرفي معادلة ، ولا يتوسط بينهما سوى الحركة النشطـــة . ومما يمثل هذه الظاهرة (الصراع الداخلي) ، في إبراز الفوارق الأساسية بين حياتهم وحياة غيرهـــم ، قول عـــروة : (٢)

إنّي امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكَـــةٌ وأَنْتَ امْرُؤٌ عافي إنائك واحِـــدُ

بهذه الصورة للتفاوت بين نمطين من حياة الناس : طبقة على إملاقها تؤثر غيرها . وطبقـــة موسرة تستأثر بالرزق . ذلك يدفع الناس من غير الصعاليك للانضمام إليهم ولا سيما المعدمين لما فـــي ذلك الموقف من نزعة انسانية .

ومنه قوله أيضا موازنا بين نمطين مختلفين من الصعاليك : (٣)

لحى الله صعلوكا .....الى أن يقول : فذلك إن يلق المنية يلقهـــا .

والأبيات المشار اليها ، وهي تفصل الرأى بين شخصيتين متضادتين من الصعاليك في فهمهمـــا للمسؤولية إنما تعبر عن الشخصيتين بما يناسبها من الألفاظ .

فالكلمات : آلفا ، الميسر ، ينام ، كالبعير المجوّر (الساقط) طليحا ، البعير المحسّر . ذلك جميعـــه يوحي بالسكون والتوقف عن النشاط .

أما الكلمات : الضوء ، المتنور ، يزجرونهم ، تشوف ..... فيوحي بالتدافع والتوهج والاستمراريـــة . وفيما أرى أن عرض هاتين الصورتين تدفعان الخامل إلى الحركة ، وتعاظمان من مجابهة الجـــرىء لأعدائـــه .

وهذه الظاهرة تطّرد في كثير من مواقفه مع مجتمعه ، وحسبي أن أشير الى بعضها إشارة فقط كيلا يطول التحليل :

من ذلـــك : (٤)

وقَدْ عَيَّرُونِي المالَ حِينَ جَمَعْتُه وقد عَيَّرُونِي الفَقْرَ إذْ أنا مُقْـــتِر

---

(١) ديوانـه ، ص ٦٧/٦٨ .
(٢) = ، ص ٥١ .
(٣) = ص ٧٠ـ٧٣ .
(٤) = ، ص ٧٠ـ٧٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومنـــه : (١)

فَإِذا غَنِيت فَأَن جاري بَنيلـــــه ... مِنْ نَائِلي ، وَمُيَسِّرِي مَعْهُـــــودُ

ومنـــه : (٢)

المَالُ فيهِ مَهابَـةٌ وَتَجَلِّـــــةٌ ... والفَقْرُ فيه مَذَلَّـةٌ وَخُضُـــوعُ

ومنـــه : (٣)

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتُ وَأَنْ تَرَى ... بَوَجْهِي شُحُوبَ الحَقِّ ، والحَقُّ جَاهِدُ

ومنـــه : (٤)

أُحَادِيثَ تَبْقَى والغِنَى غَيْرُ خَالِدِ ... إِذا هُوَ أَمْسَى هامةً فَوْقَ صَيِّرِ

وكذلـــك : (٥)

أَتَجْعَلُ إِقْدَامِـي إِذا الخَيْلُ أَحْجَمَتْ ... وَكَرِّي إِذا لَمْ يَمْنَعِ الدَّبْرَ مَانِـعُ

ويحمل شعر السليك مثل هذه الشحنات في إيقاظ الأرواح الخامدة ، وتوجيه القلوب إلى الآخذ بالحقوق . يلاحظ ذلك في تبصيرة الناس إلى اختيار طريق الصعلكة ، ليعيش حياته النقية النامية في رَجم المخاطر حتى الموت .

من ذلك قصيدتـــه التي يقول فيها : (٦)

فَلَا تَصِلي بِصُعْلُوكٍ نَـــؤُومٍ ... إِذا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَـــالِ
وَلَكِنْ كُلَّ صُعْلُوكٍ ضَـــرُوبٍ ... بِنَصْلِ السَّيْفِ هاماتِ الرِّجَـالِ

وأهمية التضاد في هذا القول تأتي من كونه لحظات تنويرية للنص لإظهار الصعلكة السلبيـــة المقنّعة من الصعلكة الإيجابية الواضحة .

وهناك نماذج عديدة بنيت تراكيبها على هذا النحو منها : (٧)

هزئت أُمامةُ أَنْ رَأَتْ بي رِقَّـةً ... وَفَما به فَقْمُ وَجِلْدُ أَسْـــوَد
أُعْطي، إِذا النَّفْسُ الشَّعاعُ تَطَلَّعَتْ ... مَالِي وأَطْعَنُ ، والفَرائِصُ تُرْعِـــدُ

---

(١) ديوانـــه ، ص ٤٩ .

(٢ ـ ٥) ديوانه ، ص ٤٣ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٩٧ . صيِّر : حظيرة الغنم .

(٦) السليك بن السلكة ، ص ٦٢ .

(٧) = = = ص ٥٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إذ يقدم لنا الشاعر هذه الصورة لنظرة " أمامة " فيبسط هذا الموقف إلى أوسع مداه ، إذ بدأه بقوله " هزئت " ، ثم علل ذلك بأسباب لايمكن دفعها أو التغيير فيها ، لانها تتعلق بتركيبه الخلقي، مما يوهم بحسم الموقف ، لكنه سرعان ما يعقب ذلك بمشهدين متناقضين يجسد فيها العطاء وضده، والفتك وضده . ولا أظن إلا أن الاستجابة عند المرأة هنا تنقلب ، واذا ما كان يحطم كبرياء الشاعر بتلاشى أمام ظهور شمائله .

ومن ذلك قوله في أسير أخذه ثم أطلقه : (١)

فَإِنْ تَكْفُرْ فإني لا أبالي ... وإن تَشْكُرْ فإني لَسْتُ أدْرِي

فهذا البناء يمثل رؤية الشاعر للحياة تمثيلا لايتأتي لغيره ، لأن شخوص الحالة المحسوسة أو المهجوس بها وضدها يقوّي إحساسنا بها حيّا أو نفورا ، فضلا عن استحضار ذلك المعنى في حياتنا النفسية أو الفكرية أو الاثنين معا . ولايخفى أثر هذه المفارقات . وهي تشيع في قصائد هؤلاء الشعراء، كما في تائية الشنفرى في قوله : (٢)

تَبيتُ تُجَيْدُ النَّوْمِ تَهْدِي غَبُوقَها ... لِجارَتِها إذا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ
تَحُلُّ بِمُنْجاةٍ مِنِ اللَّوْمِ بَيْتُها ... إذا ما بُيُوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ

فالشنفرى ينقلنا إلى خواطره من خلال ثنائية في الموقف ، وثنائية في الحركة ، إذ يعرض علينا حالتين متفارقتين للجارة ، ليحرك أذهاننا خلالهما ، فيصل إلى إقناعنا باكتمال نموذجه في المرأة .

وقوله في نفس القصيدة في المرأة : (٣)

وإني لَحَلْوٌ إن أُرِيدَتْ حَلاوَتي ... وَمُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ

وهذا القول على إيجازه يمثل خلاصة تقويمه لفئات الناس تقويما نابعا من استعداده واكتمال قدرته .

أما لاميته فهي زاخرة بهذه الظاهرة ، إذ تتابع فيها صور التضاد في أغلب ما تتناوله من قضايا . وهذا النوع من التضاد أوسع مما حدده البلاغيون . من ذلك مخاطبة للأهل في قوله : (٤)

وإنِّيَ لَفَانٍ فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جازِيًا ... بِنُعمى ولا مِن قَريةٍ متعلِّلُ
ثَلاثَةُ أصْحابٍ : فُؤادٌ مُشَيَّعٌ ... وأبْيَضُ إصْلِيتٌ وَصَفْراءُ عَيْطَلُ

---

(١) السليك بن السلكة وشعره ، ص ٥٨ .
(٢) المفضليات ، ص ١٠٨ .
(٣) = ، ص ١٠٨ .
(٤) لاميه الشنفرى ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، العيطل : الطويل العنق من الخيل والابل وهنا للقوس . إصليت : السيف الصقيل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ونظرته للزاد في قولـــه : (١)

وإنْ مَدَّتِ الأيْدِي إلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ ... بِأَعْجَلِهِمْ إذ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَـــلُ

ونظرته للمال في قولـــه : (٢)

وأُعْدِمُ أحْيانًا وأَغْنَى وَإِنَّمـــــا ... يَنَالُ الغِنَى ذُو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ

فَلاَ جَزِعٌ مِنْ خُلَّـةٍ مُتَكَشِّـــفٌ ... وَلاَ مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّـــلُ

ومثل هذا الالتحام الذي يزيد النص حيوية في الواقع والخيال ، كاستجابة للحالة النفسية نجده فـــي شعر تأبط شرا ، ذلك أن الشعور المتعاظم بالكبت بمهد الطريق لظهور هذه الأنواع المتقابلة من مظاهـــر الحياة وقيمها ، ففيه حركة داخلية تستمد طاقتها من الصراع بين الإنسان والإنسان داخل المجتمع ، وبين الإنسان والطبيعة أحيانا أخرى .

يقول تأبط شرا في رثائه للشنفرى : (٣)

لَئِنْ ضَحِكَتْ مِنْكَ الإِمَاءُ لَقَدْ بَكَتْ ... عَلَيْكَ فَأَعْوَلْنَ النِّسَاءُ الحَرَائِـــرُ

مقابلا بين الضحك والبكاء ، وبين الإماء والحرائر .

والضحك في موقف ما يبكي لا يَنْجَم إلا عن شعور غير موجّه ، وغير متصل بحياة الآخرين اتصالا إنسانيا . والطبقة الوضيعة في نظر الشاعر هي الإماء . ولا يقف عند هذا الجانب ، ولكنه ينتقل الى الجانب الاخَر ، يصور لنا الحرائر يعولن الفقيد لوعة وأسى .

ويلقي على الإماء والحرائر دلالة مخالفة لما تعارف عليه المجتمع ، أي يعطي معنى الواحـــدة إلى الاخرى . وهذا التغيير بحد ذاته يشكل هجوما على ما تواضع عليه الناس ، يزيد المعنى قوة وتوهجا .

ويستعين تأبط شرا بهذه الضدية على تصوير القضايا العامة أو القضايا الخاصة . وذلك نابـــع من وعي الشاعر للحياة التي يعيشها وعن أحلامه التي قد يتخذ أحيانا طبع الحياة الغرامية ، كقوله : (٤)

طَيْفُ ابنةِ الخِمْرِ إذْ كُنَّا نُواصِلُهـا ... ثم اجْتَنَبْتُ بها بَعْدَ التَّفَرُّقِ

مَمْزُوجَةُ الوُدِّ بينا وَاصَلَتْ صَرَمَتْ ... الأَوَّلُ اللَّذْ مَضَى ، والآخَرُ الباقي

---

(١) لامية الشنفرى ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) اللامية ص ٦٦ . لا احزن لما يفوت ولا أفرح بما يأتي .

(٣) ديوان تأبط شرا ، ص ٨٢ .

(٤) = = ، ص ١٢٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمقابلة هنا تجرى ما بين حالتين : إحداهما منقطعة ضحلة ، والاخرى متصلة خصبة تمثل ما يعلل به نفسه من مستقبل وضيء . ويتخذ من المرأة فيما سبق أحد المعطيات الفنية لتحريك هذه الصورة ومنه قوله : (١)

يَرَى الوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنِيسَ وَيَهْتَدِي ... بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجومِ الشوابِكِ

فهو يطلب حرية ، وهي لاتتحقق إلا بالتخلي عن المطالب الحياتية العزيزة والعلاقات الاجتماعية .

فكان سبيله إلى ذلك أن يقدم صورة تتفاعل في إطارها تشكيلات جديدة تتناقض فيها الدلالات فيصبح الأنس وحشة والعكس أيضا .

وفي هذه الظاهرة التي تقوم على مخالفة ماجرى عليه العرف اللغوى بالإضافة إلى تقابل العلاقات بين الشعراء الصعاليك وبين مجتمعهم ، وبينهم وبين الكون كما في قول أبي خراش يكشف عن علاقته بأعدائه : (٢)

وَقَدْ أَمِنُونِي واطْمأَنَّتْ نُفُوسُهم ... وَلَمْ يَعْلَموا كُلَّ الَّذِى هُوَ داخِلي

فَمَنْ كانَ يَرْجُو الصلح منهم فأنه ... كأحمر عاد أو كليب لوائل

وفي مقارنته بين الشجاعة والحقيقية والشجاعة المفتعلة في قوله : (٣)

فَلَا وأَبِيكِ الخيرَ لا تَجِدِينَه

ومنه أيضا حديثه عن حرمانه وصبره إلى حدّ يناقض مادرج عليه الناس ، متخذا هذه الظاهرة وسيلة للكشف عما يتفاعل في نفسه من مواقف إذ يقول : (٤)

أَرُدُّ شُجَاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَه ... وأُوثِرُ غَيْرِى مِنْ عِيالِكِ بالطُّعْمِ

والأبيات مسكونة بحبيبة يتحدث إليها الشاعر ، مما يزيد الموقف خصوبة ويوحي بحلم الشاعر . ولايخفى ما في ذلك من تتابع الحركات التي تبرز عنصر الصراع ، كما في : أردّ ، لوّحنه ، وطافت . ومواقع هذا كثيرة ، لم يكد يخلو منها تجربة . وهي بما فيها من حركات تتسق مع طبيعة حياة هذه الجماعة .

---

(١) ديوانه ، ص ١٥٦ .

(٢، ٣) ديوان الهذليين ، ص ١٢٤ ، ١٢٧ .

(٤) = = ، ص ١٢٨ . شجاع البطن : شدة الجوع .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الموسيقـــى الشعريـــــة

إن شعر كل جنس على اختلاف لغاته له موسيقى ، وهي مرتبطة بالذوق ، والذوق من أهم المكونات النفسية عند الإنسان مهما كان جنسه وعصره ٠ وقد تتباين هذه الموسيقى من شعر إلى شعر ، ومن عصـــر إلى عصر تبعا للأذواق والمشاعر ٠ والحكم عليها من حيث القيمة الفنية عسر ، فهي لاتخضع للقيـــاس والنظريات ٠ ولكن قد يكشف التحليل النفسي للشعور أو اللاشعور عماوراء هذه الموسيقى من خلفيـــة نفسية أو اجتماعية أو سياسية ، كالخوف والعزلة والرفض وغير ذلك ٠

الذين درسوا الموسيقى الشعرية من المعاصرين لم يدرسوها عنصرا منعزلا عن بناء القصيـــــدة ، ولكنهم جعلوها مع القصيدة كيانا متعضونا واحدا ، كما عالجوها على ضوء ماعرف أخيرا بالتشكيل المكاني والزماني على الرغم مما في ذلك من تعقيد ٠

الإيقاع البنائي عند الدكتور الرباعي : " يعتمد على العلاقة التزامنية للنغمات الموسيقيـــة الداخلية في العمل الشعرك كل ٠ (١)

ويؤكد ذلك قائلا : " ان مجموع التشكيلات المكانية والزمانية يتفاعل معا لبناء شبكة مـــن العلاقات المختلفة تتقارب وتتباعد في أوضاع " تزامنية " و " تواؤمية " تنشأ عند الشاعر أولا ثـــم تنحل في الناقد فتحرك طاقات الادراك الكامنة عنده ثانيا " (٢)

وهي كمايقول الدكتور صالح أبو إصبع : " لاتكمن في العلاقات الصوتية نفسها ، بل في التهيؤ النفسي الذى يحدثه الأثر الأدبي الجيد من خلال شبكة عظيمة من العادات والمشاعر والدوافـــع ، يبدأ في الكلمات الأولى ويستمر في النمو ٠ " (٣)

وعند الدكتور محمد زكي العشماوى : " وإنما الذى يحدد العلاقة بين أصوات المقاطع والحروف وبين احساس معين هو النغم الناشيء من جملة واحدة ٠ ذلك أن الانفعال في داخل أى عمل أدبـــي لايمكن تحقيقه من لفظة واحدة ، إنه يتحقق من تداخل الكلمات صوتا وإيحاءا ٠ " (٤)

هذا التلاؤم بين سياق القصيدة وموسيقاها نحس أثره في النفس دون أن نستطيع الإفصـــاح عنه تماما ٠ وقد نحسه على سبيل المثال في تجربتين مختلفتين ، تمثل إحداهما شعور الشاعربالقيـام بواجبه في الدفاع عن القبيلة ، وتمثل الأخرى محاولته مقاومة الهزيمة ، وإظهار الجلد ٠ وسأحـــاول

(١ ، ٢) الصورة الفنية في النقد الشعرى ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ٠

(٣) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، ص ١٨٣ ، صالح أبو اصبع ، المؤسسة العربية للدراســـات والنشر ، ط ٧ ، ١٩٥٩ ٠

(٤) قضايا النقد الأدبي ، ص ٣٣٦/٣٣٧ ، ١٩٧٩ ، دار النهضة العربية ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكشف عن جوانب ذلك تطبيقا عقب هذا التمهيد إن شاء الله ٠

من المعروف أن القصيدة الجاهلية عامة سارت في تشكيلها زمانيا ومكانيا بحركة أفقية مسافات عروضية محددة ، ولم تبتعد عن تعاقب هذه الحركات شبه الثابتة ارتفاعا وانخفاضا إلا قليلا (ممايتمثل في الزحافات وسائر العلل العروضية) ٠

وشعر الصعاليك هو بعض هذه التشكيلات الزمانية المكانية ، أو بمعنى آخر ، يجرى بصورة عامة وفق أبنية الشعر الجاهلية فنيا ٠ لكنا لانعدم فيه بعض الخصائص التي نبعت عن نظرتهم للحياة ، وموقفهم من مشكلاتها فيما قبلوه ، وفيما رغبوا عنه ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ - تناغم الوزن مع الموقف النفسي

لاشكّ أن هذه الظاهرة تتضمن إيقاعا موسيقيا مميزا يخضع للقوانين الخفية التي تتحكم في النفس الإنسانية حالة استدعاء الموقف للتجربة الشعرية نفسها . أى أن التشكيل الزماني والمكاني ينبع من التشكيل النفسي شعوريا أو غير شعوريّ . فطبيعة الموقف توجّه الشعور التي يتخذ القالب المناسب لذلك .

فبعض المواقف تنفسح للتأمل والاستغراق الذى يتطلب طول النفس في التعبير والتصوير والرتابة الموسيقية في الأبحر الطويلة . وبعضها الآخر يتطلب سرعة الخاطر ، والتشكيل الإيقاعي العاجل كحالة القلب الذاهل أو الواجب من فوات الزمن .

ففي موقف خطر يتطلب السرعة والاختطاف لايزيد القول عن بيتين كحال السليك في قوله : (١)

أَمُغْتَبِقِي رَيْبَ المَنُونِ وَلَمْ أَرُعْ ... عَصَافِيرَ وادٍ بَيْنَ جَأْشٍ وَمَأْرَبِ

ففي هذا تنبيه سريع لجماعته للإغارة على إبل الملوك والموسرين . ومثل هذا الموقف لاتمكنه ضرورة السرعة من الآطالة . كما في طلبه إلى غلامه أن يُعدّ له فرسه بقوله : (٢)

أَخْرِجِ الشَّحَّامَ وَاعْجَلْ يَاغُلَامَا ... أَقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيْهِ وَاللِّجَامَا

فهو هنا بحاجة إلى أصوات بينة النبرات متصلة المقاطع على نحو ماسبق .

وحين يتأزم الموقف ويزداد خطورة يصبح لزاما عليه أن يستخدم أقصر أداء ، إذ لامكان ولازمان (مبرر فنّي) لاستحضار الماضي والمستقبل . وغالبا مايكون القول هنا حواريا وذا أوزان قصيرة . ولكنه ذو مقاطع صوتية ممدودة في نهاية الأبيات كما هو الحال في أرجوزة السليك : (٣)

مَنْ مُبْلِغٌ حَرْبًا بِأَنِّي مَقْتُولْ

ومن الجدير ذكره أن أطول قصائده لاتزيد عن أربعة عشر بيتا ، تليها واحدة تقع في سبعة أبيات ، أما الباقي فلا يزيد في أكثره عن ستة أبيات .

ولعل الشاعر في القصيدة الطويلة المشار إليها لم يقلها ليعلن عن إغارة ، ولا يندد في خصم ،

---

(١) السليك بن السلكة ، ص ٤٨ . العصافير : إبل للملوك نجائب .

(٢) = = ، ص ٦٥ .

(٣) = = ، ص ٦٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا في أية حالة تُعرب عن توتر ولكنها تكشف عن نظرية للحياة ، ولعله أيضا قالها في راحة جسدية ونفسية حركت في ذاكرته صورا من الماضي ٠

وتشير إحصائية شعر تأبط شرا إلى أن مايزيد على ستة أبيات يصل إلى ثلث الديوان تقريبا (١٤/٤١) أي ١ر٣٤٪ ٠

وأن هذا التوزع في شعرهم متأثر بالمتغيرات الداخلية في حياتهم ؛ إذ تستمد الكلمة نغمها من الروح الناجمة عن حالاتها المختلفة ٠

أغلب الظن أن تأبط شرا صاغ قصائده الطويلة وهو في حالة هدوء نفسي نسبيا ، وهنا تناسب واضح بين هذا الهدوء وبين مايشيع في قصائده من حكم كما في قصيدة ص٧٨ ، في رثاء الشنفرى ، و ص٨٦ من الديوان : " اذا المرء لم يحتل وقد جدّ جده٠٠٠٠٠الخ وقصيدته ص٩٤ : وشعب كسل الثوب ٠ وقصيدته : يا عبد مالك من شوق ٠٠٠ ص ١٢٥٠
والقصائد ذات الأرقام : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤٠

في تلك القصائد شيء من الاطالة في الايقاع ، أي : أجتماع عدد كبير من الأبيات على نفس البحر ٠ واذا كانت هذه القصائد قد انفسحت لمعاني النقد والتوجيه واختيار القيم ، والحديث عن النساء ، أمكننا القول بان العلاقة بين موسيقى هذه التجارب وبين معانيها النفسية متناسبة ٠

ومن الطريف أن تشير الاحصائية الشعرية عند عروة إلى نفس النسبة تقريبا ، وقد ر قصائده الطويلة (١٤) ، ومجموع قصائد الديوان ما بين مقطوعة وقصيدة يبلغ (٤٠) ، فتكون نسبة الطوال الى الديوان كله ١٤/٤٠ الثلث تقريبا أي ٥ر٣١٪ ٠

وأكثر القصار عنده تعبّر عن مواقف تحتاج إلى الإيجاز ، كتبليغ جماعته شنّ غارة ، أو الردّ على موقف عدائي ، أو تعبير ، أو طلب الراحة بين الضنى ٠ وكل هذا يصدر عن انفعالات قوية تتطلب قولا جادا سريعا ٠ فجاءت التجارب المعبرة عنها على شكل جزئيات ذات طابع تقريري شبيه بالبيان السياسي في عصرنا ٠

إن هذا المقدار القليل من الأبيات والانقطاع المباغت أحيانا يعود إلى ما ترسله النفس من إيقاعات ذات تموجات تتشكل وفق الموقف النفسي ٠ وليس غريبا أن تتماثل هذه الأعمال الشعرية في موسيقاها عندهم ، فهم يعيشون نفس الأوضاع والظروف ، وان تقاربت الاستعدادات ٠

والذي يلاحظ هو أن الطوال تتسم بهدوء النفس كما عند تأبط شرا ٠ والاختلاف بينها وبين القصار ناشيء عن طبيعة الموقف وعن درجة العاطفة ، فما يستشعره الشاعر في لحظة الخطر والمعاناة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لاينفسح له الإطار الشعرى كما ينفسح بعد تراخي الجزع وانحسار الخطر ٠

أنظر مثلا أطول قصيدة له (٢٧ بيتا) ص٦٦ في الديوان ، لتجد أنّ تنسيقها على هذا النحـــو لاينسجم على الأغلب إلاّ في ظلّ المراجعة والنظرة المحللة للمصير ، والموت ، ومايستتبع ذلك من حكم٠

وها هو قيس بن الحدادية يقع في مأزق يكون سببا في قتله ، فيقول مرتجزا وهو يحس بدنـــو الموت : (١)

أَنَا الَّذِي تَخْلَعُهُ مَوَالِيـــهْ ... وَكُلُّهُمْ بَعْدَ الصَّفَاءِ قَالِيـــهْ
وَكُلُّهُمْ يُقْسِمُ لَا يُبَالِيـــهْ ... أَنَّ إِذَا المَوْتُ يُنُوبُ قَالِيـــهْ

إن مواجهة المصير ومجالدة الخصم في معركة خاسرة كهذه الحال عند قيس لاتحتاج إلى براعـــة فنيّة ، أو إعداد شعرى مسبق ، لأن المنازلة ليست معركة كلامية ، أو مناجزة فخرية ، يستطيع الشاعـــر معها تنسيق أبياته وتحبيرها ، فكانت هذه الأرجوزة أصدق ما يلبي حاجته في تلك اللحظة وأقوى مايصرف هموم الشاعر وخاصة بذلك النظام الموسيقى الذى يتمثل بآخر مقاطع شطراتها ٠ ومثله قول الشنفـــرى وهو يتوجس خيفة من كمين (٢)

أُونِسُ رِيحَ المَوْتِ فِي المَكَاسِـــرِ
وَمُرْهَفٍ مَاضِي الشَّبَاةِ بَاتِـــرُ
أَخْطَأْتَ ما أَمَّلْتَ يا ابْنَ الغَـــادِرِ

وقوله أيضا لمّا احتزّت يده قبيل مقتله ، وكانت فيها شامة : (٣)

لَاتَبْعُدِي إِمَّا هَلَكْتِ شَامَـــةْ ... فَرُبَّ وادٍ نَفَرَتْ حَمَامَـــهْ

وكذلك قول أبي جندب في حالة غضب شديد حين قتل جارٌ له غدرا : (٤)

إِنِّي امْرُؤٌ أَبْكِي عَلَىٰ جَارِيَـــهْ ... أَبْكِي عَلَى الكَعْبَيْنِ والكَعْبِيَهْ

وقول صخر الغي في موقف شبيه بماسبق : (٥)

مَاتَرَكُونِي لِلْكِلَابِ العَاوِيَـــهْ ... وَلَا لِبِرْذَوْنٍ أَغَرَّ النَاصِيَـــهْ

إن إيقاع هذه المقطوعات يشعر بشدة الأسى لدى قائليها ، وهي تشعرنا أن كل مالهم من أمـــل وبُقْيا من الحياة يتلاشى للحظته ، وموسيقى هذ ه الأبيات تعمل على تصوير هذه الحالة ٠

وحينما يقل الذعر والفزع يختلف الإيقاع والوزن وعدد الأبيات كقول أبي جندب : (٦)

أَلَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُوقَنَّ قَوْمَهُ ... زُهَيْرًا عَلَىٰ مَا جَرَّ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقول صخـــر : (٧)

أَرَىٰ الأَيَّامَ لَاتُبْقِي كَرِيمَـــا ... وَلَا العُصْمَ الأَوَابِدَ والنَّعَامَـــا

---

(١) الأغاني ، جـ١٤ ، ص ١٦٠ ٠ (٢) الطرائف الأدبية /ديوانه ص ٣٦، ٤٠٠ (٣) الطرائف الأدبية ص ٤٠٠
(٤) ديوان الهذليين ،٣/٨٦ (٥) ديوان الهذليين، ٢/٢٣٦ (٦) ديوان الهذليين ٣/٨٧٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - الأبحـــــر العروضيـــــة

على الرغم من التناقض الحادّ بين حياة الصعاليك وحياة المجتمع اجتماعيا واقتصاديا وعاطفيا وفكريا ، ذلك التناقض الذى ينتظر أن يؤدى إلى الخروج على المألوف من الأوزان والأبحر العروضيـــة في الشعر الجاهلي مثلما أدى إلى بعض الاختلافات في بعض الظواهر الفنية كماسبق ، على الرغـــم من ذلك ، فإن شعرهم يجرى على نفس النظام العروضي المتبع لشعراء زمنهم ، فلم يجد الدارس فـــي الأوزان ما يتواءم مع حياتهم النفسية المتمردة . فأوزان الشعر عندهم لم تخرج عن أوزان الشعر العربي التي أصّل الخليل بن أحمد عروضها وقوانينها بما فيها من زحافات . فلعل الخروج الفني لايرتبـــط بظاهرة جنوح الشاعر مذهبيا ، فقد نجد من يحاول خرق القاعدة من شعراء ليسوا متمردين على مجتمعهم كما هو الحال عند رزين العروضي ، وأبي العتاهية ، كما يحدثنا المؤرخون .(١)

والأبحر التي يغلب استعمالها عندهم تتراوح ما بين الطويل ، والوافر ، والكامل ، والبسيط ، والرجز ، والخفيف ، والمتقارب ، السريع ، كما عند عروة ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، والأحيمر السعدي والأعلم ، وأبي خراش ، وصخر الغي ، وأبي الطمحان ، والسليك وغيرهم . وهذا الأتفاق الفني الذى يتمثل بالنظم على نفس الأبحر يبدو موضوعيا إذا ماعرفنا أن كسر أية ظاهرة فنية يرتبط على الأغلب بتأثـــر الشاعر بمعطيات بيئة جديدة أو بثقافة وافدة ، يغيّر ان من النمطية الفنية لدى الشاعر . وهما لم يقعا في حياة الصعلوك التي بقيت على نفس التشابه والتطابق من حيث الأمتداد الصحراوى ، والصـــــور المتكررة في تشكيل المكان والزمان . أما الثقافة فليس فيها مايخرج على الفكر الجاهلي .

وعدم توافر هذين العاملين يقلل من فرص استحداث تشكيلات فنية جديدة . فجاءت قصائدهم على ما درجت عليه موروثاتهم الشعرية .

غير أن هذا الثبات على الأوزان الشعرية الظاهرة لم يمنع من وجود مزايا فنية ضمن إطار الوزن تتصل بخصوصية حياتهم بما اتسمت به من نكال ومجالدة وتصميم على المواجهة .

والموسيقى الشعرية حاملة لحالات الشاعر ؛ إذ " أن تجميع عدد من الأصوات المعنية بشكل أشدّ كثافة من المعتاد أو تركيب نوعين من الأنسجة الصوتية المختلفة في بيت من الشعر أو فـــي مقطع أو في قصيدة يقوم بوظيفته كنوع من " التيار الدلالي الباطن " على حد تعبير " ادجارألن بو "(٢)

هذا الأحيمر السعدي مثلا يمسك بزمام نفسه ، ويعنفها أشدّ التعنيف على ما فرّطت به ، فجـــاء تناسق حروف تجربته شاخصا بما تحمله نفسه من اللوم والعنف .

---

(١) طبقات ابن المعتز ، ٢٢٩ ، الأغانـي ، ٤ : ١٣ .

(٢) نظرية البنائية في النقد الأدبي ص ٣٩٢ . د . صالح فضل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اذ يقول : (١)

قُلْ لِلّصوصِ بَني اللّخْناءِ يَحْتَسِبوا ... بَزَّالعِراقِ وَبَنْسُوا طُرْفَةَ اليَمَنِ
وَيَتْرُكُوا الخَزَّ والدِيباجَ تَلْبَسُـــه ... بيضُ المَوالي ذَوُو الأعْناقِ والعِكَنِ

ويقول : (٢)

وَقالَتْ أرَى رَبْعَ القِوامِ وَشافَهـــا ... طَويلُ الفتاةِ بالضّحاءِ نَـــؤُومُ

شدة الموقف تبدو في تتابع الحروف المشددة كاللامات في المثال الاول ، وتتابع حروف القـاف في المثال الثاني • طريقة عرض هذه التراكيب توحي بتكثيف إحساس الشاعر وهو يعرض ماضيه علـى حاضره إن جاز هذا التعبير •

لكنه حين يسكن عنه الغضب ينعكس هذا الوضع النفسي على تتابع حروف تعبيره وجرسهـا ، كما في قولـه : (٣)

أيا نَخَلاتِ الكَرْمِ لازالَ رائِحـا ... عَليكُنَّ مُنْهَلٌ الغَمامِ مَطيرُ
ألا حَبَّذا الماءُ الذي قَابَلَ الحِمى ... وَلا زالَ يَسْعَى بَيْنَكُنَّ غَديرُ

إذ يلمح وراء هذه الأحرف في افتتاح القول : ألا ، أيا ، وفي مدّ الأحرف وسكونها المتتابع ، وفي غنتها (النون المشددة) مايهيء النفس للتأمل الباعث على الحزن والتعاطف •

وانظر مثلا قول الشنفرى (اللاميـة) :

دَعَسْتُ عَلَى غَطْـشٍ وَبَغْـشٍ وَصُحْبَتي ... سُعارٌ وإرْزيـزٌ وَوَجْـرٌ وَأفْكَـلُ

تر في تتابع سكون الطائين في " غطش " و " بطش " ، وسكون باقي الأحرف في كلمـات البيت ما يوحي بوقع أقدام الشاعر قبل أن يكشف عن معانيها •

لكنا نحس بالأسترخاء الموصول بالأنس في قوله : (٤)

وَآلَفُ وَجْهَ الأرْضِ عِنْدَ افْتِراشِها ... بِأهْدأ تَنْسِبية سَناسِنَ فُحَّـلُ

والإحساس بهذا الإيقاع الهادىء يتمثل في المقطع الأول (آ) ، والمدّ في افتراشها ، وتعاقـب السينات في العجز •

(١ ، ٢ ، ٣) أشعار اللصوص وأخبارهم ص ١٠٤ ، ١٠٩ ، اللخن : الفساد • العكن : سمنة في البطن •
(٤) اللامية ص ٦٣ • سناسن : رؤوس الأضلاع • فحل : يابسة •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وانظر في قول عـــروة : (١)

تَبَغّانِي الأَعْداءُ إمّا إلى دَمٍ ... وإمّا عِراضَ السّاعِدَيْنِ مُصَوَّرا
يَظَلُّ الأُباءُ ساقِطاً فَوْقَ مَتْنِه ... لَهُ العُدْوَةُ الأُولى إذا الفِرْنُ اصْحَرا
كأنّ خَوَاتَ الرَّعْدِ رزّ زئيرِه ... من اللّاءِ يَسْكُنَّ العَرِينَ بَعَثْرا

تحسّ من توالي الحروف المشددة في (تبغاني) ، و (مصّورا) ....الخ عناء متصلا ومشقة في الطريق الذى يتقحمه الشاعر ،كما تحس بهيئة القلق وتوقع الشر الذى بجسمه (رز زئيره) .

وتبقى تلك الحالةسيطرة إلى أن يقول : (٢)

وَما أَنْسَ مِ الأَشْياءِ لا أَنْسَ قَوْلَها ... لِجارَتِها : ما إن يعيش بأجورا

فتحس إذ ذاك بالانفراج والأمن يشيعهما الجرس المنبعث من توالي حرف السين والشين والمدّ في البيت .

وبصور هذه الإيقاعات المنسجمة مع موقف الشاعر قول تأبط شرا : (٣)

فاذْهَبْ صَرِيمَ فَلاَ تَحْلَلْنَ بَعْدَها ... ضِعْوا ، وحُلَّنْ بالجَمِيعِ الحَوْشَبِ

فهو في سَوْرة غضب وموقف تحدّ ، فَلْيَسْمَعنا إذن أصواتا متماسكة ، ذات إيقاعات ثابتة . وأخال أن فعل الامر " اذهب " وكلمة " صريم " دون أداة نداء ، ونوني التوكيد الساكنتين ، وسكون حرف الفاء بعد الصاد المتحركة ، وسكون الواو في " الحوشب " يزيد في فعالية الموقف المذكور .

أما قولـــه : (٤)

يَاعِيدُ مالَكَ مِنْ شَوْقٍ وإبْراقِ ... وَمَرِّ طَيْفٍ على الأَهْوالِ طَرّاقِ

فيكتسب إيقاعا ذا نوع آخر ، يثير الشوق والذكرى ، فهو صوت أقرب إلى الرقة منه الى الخشونة ، وهذا التخيل يتراءى لنا من رتابة الاحرف في : ياعيد ، مالك ، شوق ، ابراق ، ومن لينها .

ونستطيع تقديم نماذج أكثر لإثبات ظاهرة اندغام الأيقاع الموسيقي مع المعنى في تجاربهم الشعرية ، لكن المقام لا يحتمل أكثر من ذلك .

(١ ، ٢) ديوانه ، ٦٢ ، ٦٣ . عراض الساعدين : الأسود .

(٣) ديوان تأبط شرا ، ص ٧٢ . صغو : مكان في عزلة . الحوشب : الكثير المجتمع .

(٤) ديوان تأبط شرا ، ص ١٢٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما تناغم الحروف مع بعضها بعضا في تجارب الصعاليك فيصورها ما تشعر به من لذة فنية ونحن نردد كثيرا من أبياتهم ، شأنها شأن أشعار زهير والمتنبي والبحترى . ولتآلف حروف الكلمات فيما بينها من جهة ، ولتآلف الكلمات فيما بينها من جهة أخرى دور كبير في هذه المتعة . ولا شك بأن المعنى النفسي ودرجة عمقه وواقعيته هي التي تحرك هذه الحروف وتعمل على تنسيقها .

بقول كروتشه : (١)

" ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حدّ النضج ، وأصبحت فكرة حقا دارت الألفاظ في كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنّت في داخل الأذن " .

فجميع مافي تجربة الصعلكة الشعرية : من معان ، وأبحر ، وقواف وتراكيب حرفية وصوتية ولفظية ، وحركات من تضعيف ومدّ وتسكين يشكل الأتجاهات النفسية لتلك التجارب وأغلب ما سيق من النماذج في مواضع سابقة يصلح شواهد على هذا .

نستطيع القول إذن إن معطيات الحياة الجديدة فرضت على الشعراء الصعاليك مواقف غريبة ، أثارها ما شاهدوه أو تفاعلوا معه من موجودات الطبيعة ، المتحركة منها والساكنة ، كأسماء الأماكن والحيوان والطير ، وقد انعكس آثار ذلك على الجانب اللغوى في شعرهم .

أما في الجانب الصورى فقد فجر الصراع بينهم وبين المجتمع حركة متميزة في شعرهم ، فتمثلت في محاولة تخطيهم الواقع وفعالية الزمن بكل ما يملكون من مؤهلات جسدية ونفسية كانبثاق صورة الغول عند تأبط شرا والوحش عن الأحيمر ورفض الشنفرى الحادّ لقبيلته سلامان وغير ذلك مما كان له أبعد الأثر في تحريك هذه الصور في بعديها الشعورى واللاشعورى . كما كان للتفاوت الحادّ والصراع بين الصعاليك وحياة المجتمع ، ولظهور نوعين من الصعلكة (الساكنة والمنطلقة) أثره البيّن في توليد سلسلة من التضاد في أبنية الكلام . أما في الموسيقى الشعرية فقد تبين للباحث التوازن ما بين الدوافع النفسية والإيقاعات الشعرية ، في جهرها وهمسها ، وانقباضها وانبساطها وطولها وقصرها .

وعلى الرغم من التناقض الحادّ بين حياة الصعاليك وحياة المجتمع اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا فإن الصعاليك لم يخرجوا على الأوزان والأبحر العروضية في الشعر الجاهلي . لكن هذا الثبات على الأوزان والأبحر التقليدية لم يمنع من الخروج على المقدمة الطللية ؛ إذ أن مواقفهم لم تحتمل ما يتيح

---

(١) النقد الأدبي . د . محمد زكي العشماوى ، ص ٢٥٣ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لهم الوقوف على الأطلال والتمعن فيها . كما لم يمنع من ظهور مزايا فنية ضمن إطار النظام الموسيقي الجاهلي ، تتصل بخصوصية حياتهم ، كقصر التجربة الشعرية ، وشعر الرجز وفيما يستدعي ذلك من مواقف حرجة كاستغاثتهم بقومهم أو الإشارة لجماعته بالهجوم أثناء الغارة ونحو ذلك .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نصّ شعـــرى لتأبـط شـــرا

ديوانه ، رقم القصيدة ٢١ ، ص ١٢٥ .

١ يا عيدُ مالَكَ مِنْ شَوْقٍ وإبـــــراقِ ... وَمرِّ طيفٍ على الأَهْوالِ طـــرّاقِ
٢ يَسْرِي على الأَيْنِ والحَيّاتِ مُحْتَفِيًا ... نفسي فِداؤُكَ مِنْ سارٍ على ساقِ
٣ طَيْفُ ابنـةِ الحُرِّ إِذْ كُنّا نُواصِلُهـــا ... ثُمّ اجتُنِيْتُ بها بَعْدَ التَّفـــرّاقِ
٤ تاللّـهِ آمَنُ أُنْثى بَعْدَ ما حَلَفَـــتْ ... أسْماءُ باللهِ مِنْ عَهْدٍ ومِيثـــاقِ
٥ مَمْزُوجَةُ الوُدِّ، بَيْنا وَاصَلَتْ صَرَمَتْ ... الأَوّلُ اللّذْمَضِي، والآخِرُ الباقـــي
٦ فالأوّلُ اللّذْمَضِي: قالي مَوَدتِهـــا ... واللّذْ مِنْها : هُذاءٌ غَيرُ إِحْقـــاقِ
٧ تُعْطِيكَ وَعْدَ أَمانِـيٍّ .. تَغُرُّ بِـــه ... كالقَطْرِ مَرَّ على صَنْجانَ ، بَـــرّاقِ
٨ إِنّي ، إِذا ما خُلّةٌ ضَنّتْ بِنائِلِهـــا ... وَأَمْسَكَتْ بِضَعِيفِ الوَصْلِ أَخْـــذاقِ
٩ نَجَوْتُ مِنْها نَجائِي مِنْ بُجَيْلَةَ إِذْ ... أَلْقَيْتُ ، لَيْلَةَ خَبّ الرَّهْطِ ، أَرْواقي
١٠ لَيْلَةَ صَاحُوا ، وَأَغْرَوْا بي سِراعَهُمُ ... بالعَيْكَتَيْنِ لَدى مَعْدِيَ ابنِ بَـــرّاقِ
١١ كأنّما حَثْحَثُوا حَصّاءَ قَوادِمُـــــهُ ... أَوْ أُمَّ خِشْفٍ بِذِي شَثٍّ وَطُـــــبّاقِ
١٢ لا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنّي، لَيْسَ ذا عُـــذُرٍ ... وَذا جَناحٍ ، بِجَنْبِ الرِّيْدِ، خَفّـــاقِ
١٣ حَتّى نَجَوْتُ وَلَمّا يَنْزِعُوا سَلَـــبي ... بِوالِهٍ مِن قَبِيضِ الشَّدِّ ، غَيْـــدَاقِ
١٤ وَلا أَقُولُ إِذا ما ضُلّةً صَرَمَـــتْ ... يا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ شَوْقٍ وإِشْفَـــاقِ
١٥ لكنّما عِوَلي ، إِنْ كُنْتُ ذا عِـــوَلٍ ... عَلى بَصِيرٍ بِكَسْبِ الحَمْدِ سَبّـــاقِ
١٦ سَبّاقِ غاياتِ مَجْدٍ في عَشِيرَتِـــه ... مُرَجِّعِ الصَّوتِ هَدّاً بَيْنَ أَفْـــاقِ
١٧ عارِي الظّنابِيبِ ، ممتدٍ نَواشِـــرُهُ ... مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهِي الماءِ ، غَسّـــاقِ
١٨ حَمّالِ أَلْوِيَةٍ ، شَهّادِ أَنْدِيَـــــةٍ ... قَوّالِ مُحْكَمَـــةٍ ، جَوّابِ آفَـــــاقِ

---

(٢) الأين : الشعابين .
(٣) التّفراق : مصدر تفرقوا . وهذا مطرّد في تفعّل وان قلّ في الشعر .
(٤) تالله آمن : لا آمن ، على حذف " لا " من القسم .
(٥) ممزوجة الود : تخلط الودّ بالجفاء . اللّذ : لغة في (الذى)
(٦) قالي مودتها : استحالت بغضا . الهذاء من الهذيان أي الكلام غير المعقول .
(٧) ضجنان : اسم جبيل . برّاق : سحاب لا برق فيه .
(١٠) العيكتان : موضع في ديار بجيلة .
(١١) حثحثوا: حثوا . حص القوادم : ظليم تناثر ريشه . أم خشف : ظبية . الشث والطباق : نبتان يقويان الراعية ويضمّرانها .
(١٢) عذر : عرف . الريد : ذروة الجبل . الواله : الذاهب العقل . الغيداء : الواسع .
(١٦) الأرفاق : الصحبة .
(١٧) الظابيب : ج . ظبّوب وهو حرف عظم الساق . مدلاج : يسرى ليلا .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٩ فَذاكَ هَمّي وَغَزْرِي أَسْتَغيثُ بِـــهِ ... إذا استَغَثْتَ بضافي الرَّأسِ نَعّـــاقِ

٢٠ كالحِقْفِ حَدّاهُ النّاموَن قُلْتُ لَـــهُ : ... ذُو ثَلّتَينِ ، وَذُو بَهْمٍ وَأَرْبَـــــاقِ

٢١ وَقَلّةٍ كَسَنانِ الرُّمْـــــحِ ، بَارِزَةٍ ... ضَحْيانَةٍ ، في شُهورِ الصَّيْفِ مِحْـــرَاقِ

٢٢ بَادَرْتُ قَنَتَها صَحْبي ، وَماكِسَلوا ... حَتّى نُميتُ إلَيْها بِعْدَ إشْـــــرَاقِ

٢٣ لاشَيْءَ في رَيْدِها ، إلاّ نَعامَتُهـــا ... مِنْها هَزِيمٌ ، ومِنْها قائِمٌ بَـــــاقِ

٢٤ بِشَرْثَةٍ خَلَقٍ ، يَوقَى البَنانُ بِهـــا ... شددت فيها سريحا بعد اطـــــراق

٢٥ بَامَنْ لِعَذّالَـــةٍ ، حَذّالَةٍ أَشَـــــبٍ ... حَرّقَ بِاللّوْمِ جِلْدي أَيَّ تَحْـــــرَاقِ

٢٦ يَقُولُ أَهْلَكْتَ مالاً ، لَوْقَنِعْتَ بِـــهِ ... مِنْ ثَوْبِ صِدقٍ ، ومِـــنْ بَزٍّ وإعْـــــلاقِ

٢٧ عَاذِلَتي ... إنّ بَعْضَ اللّوْمِ مَعْنَفَةٌ ... وَهَلْ مَنَاعٌ وإنْ أَبْقَيْتَه بَـــــاقِ ؟ !

٢٨ إنّي رَعِيمٌ ، لَئِنْ لَمْ تَتْرُكي عَذَلِـــي ... أَنْ يَسْأَلَ الحَيَّ عَنّي أَهْلَ آفَـــــاقِ ..

٢٩ أَنْ يَسْأَلَ القومُ عَنّي أَهْلَ مَعْرِفَـــةٍ ... فَلا يُخَبِّرْهُمُ عَنْ " ثابتٍ " لاقِ

٣٠ سَدِّدْ خِلالَكَ مِن مالٍ تُجَمِّعُـــــهُ ... حَتّى تُلاقِي الذّي كُلُّ امرِىءٍ لاقِ

٣١ لَتَفْرَعَنّ علـيّ السِّنّ مِن نَـــدَمٍ ... اذا تَذَكّرتَ يوماً بَعْـــضَ أَخْـــلاقي

---

(١٩) ضافي الرأس : كثير الشعر ، كناية عن اشتغاله بالغزو . النعاق : ذو الصوت الشديد .

(٢٠) الحقف : ما اجتمع من الرمل . حـدّاه : صلبة

(٢١) الضحيانة : البارزة للشمس .

(٢٣) الدقاقة : خشبات يشد بعضها الى بعض . الهزيم : المتكسر المنقطع .

(٢٤) الشرثة : النعل الخلق . السريح : القد (الشريط) .

(٢٦) البز : السلاح والثياب . الأعلاق : النفائس .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تحليل النص

تبدأ التجربة بتشخيص صورة الطيف الذى يستنطقه الشاعر ، ويخلع عليه صفات تنسجم مع صفات الشاعر الصعلوك نفسه . بل يتحول هذا الطيف جزءا عضويا يلتحم بكيان الشاعر جسدا وروحا .

إذا كانت قضية الصعلوك المحورية تتمثل في تداعي العلاقة بينه وبين القبيلة من جهة ، وبينه وبين المجتمع من جهة أخرى ، فعلى هذا الطيف أن يتجانس مع حياة الشاعر ، وليكفّ عن الشوق والحنين لذلك الواقع المؤلم ، لأنه مثل الشاعر يتمايز عن مجتمعه جسداً ونفساً ، فهو يسرى على الحيّات ، ويمشي على هجير الرمل ، وأمه ابنة الحر . وبوحدة هذه الهموم بينه وبين الشاعر ، وباستجابته السريعة لنداء الشاعر تزداد اللحمة بينهما : (روحي فداؤك من سارٍ على ساقِ) .

بعد هذا الموقف الحوارى الذى يمثل حضور الشاعر نفسه في مواجهة قضيته المحورية (وهذه القضية كما ذكر هي قضية الصعاليك جميعا) ينفسح المجال لدخول عنصر جديد يتحدث عنه الشاعر وهو المرأة . والمسار الذى يتخذه هذا الحديث يمثل علاقة مع إنسان جاحد متنكر للحقوق رغم العهود والمواثيق .

هذا الانسان الجاحد هو القبيلة المتجهمة للشاعر [1]، ولذلك يؤكد الشاعر بالقَسَم أن يقابل ذلك الموقف بالصلابة والمناعة بكل ما يملكه من مؤهلات جسدية ونفسية .

وانسلاخ الشاعر عن القبيلة لا يقف عند حد التخلي وعدم الإنتماء اليها ولكنه يحمل روح التحدى والتمرد والبعد العدائي للقبيلة وتقاليدها الاجتماعية كما يظهر في حركته العنيفة التي لا تختلف عن فراره من عدوّه (بَجبيلة) وهي تترصد لحتف الشاعر عند موقع الماء الذى فيه حياته .

وغنيّ عن البيان القول بأن هذا الموقف في الحيلولة بين الصعلوك وسبب الحياة له نظائر كثيرة عند كثير من الصعاليك .

وسعياً وراء تأكيد الذات على عادة الشعراء الصعاليك يمضي الشاعر مصورا لنا صراعه مع الآخرين (صراع الفرد مع الجماعة) وهو صراع يؤكد انفراد الشاعر وتميزه في السرعة والاندفاع ، وهما في مقدمة ما يمتلكه الصعلوك من أنواع (السلاح) . واذا كان هذا الصراع ينتهي بالفرار ، فلأن الفرار تعبير عن المضي في اجتياز العوائق للوصول الى ما يريده مستغلا بعض عناصر الطبيعة في تصوير ذلك كالظليم والظبي وغيرهما .

---

(١) هذا الفهم يمكن تمثله من وعي الشاعر الباطن إن لم يؤده الظاهر فيما أرى .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثم ينهي الشاعر هذا الموقف بما يتماثل مع بداية حواره مع الطيف ، مؤكدا انفصاله عن الواقع ، وعدم تشوقه لمعطياته ٠

إذا كان المشهد السابق يمثل نسق العالم الذى يعزف عنه الشاعر فإنه يقابل بصورة النسق العالم الذى ينشده ويضعه نصب عينيه ٠ يتجسد عالمه المنشود بصورة إنسان يمنحه الشاعر كل الثراء النفسي والتحول الجسدى الذى يفتخر به ، من السبق إلى المحامد والترفع عن احتياجات الجسد ، والتبصر والارتياد ، وغير ذلك من مظاهر الفضل التي يلح عليها الصعاليك ٠

ومن الواضح أن الشاعر يعطي اهتماما كبيرا للتجرّد والهزال والخفة لأن أضداد هذه الصفات لا تتفق مع فكرة الصعلكة وأسلوبها ٠

ثم تبرز صورة المرقبة / السكن ، فإذا بها تماثل صورة الإنسان ، تعكس حالة الزهد في مظاهر الحياة ، فهي حادة كسنان الرمح مّهدّمة في بعض أركانها ، لكنها بارزة في أعلى الجبل ، ومجراق لمن فيها ٠ ويكاد الدارس يلمس مثل هذه الأوصاف في مراقب سائر الصعاليك ٠ ولا ينسى الشاعر أن يتحدث عن نعليه اللتين لا تكادان تغطيان أصابع قدميه ، وهذا مظهر آخر من مظاهر الفقر الذى يشاطره به رفاقه الصعاليك ٠

ثم ينقلنا إلى صورة أخرى تتآزر مع سوابقها على خلق صورة متكاملة للإنسان ٠ يمثل ذلك جدل بين الشاعر الساعي إلى المروءة ونكران الذات وبين آخر يحاول أن يثنيه عمّا فرّط فيه من استنفاذ ماله لغيره ٠ لكن إرادة الشاعر تنبثق من هذا الحوار رمزا للتفاني من أجل الناس المعوزين ، وهذا الذى يقوله الشاعر هو من أظهر ما تهجس به نفوس الصعاليك الآخرين ٠ كما تبين عند عروة والشنفرى وغيرهما ٠

وأخيرا تلتقي الصور الجزئية السابقة في بؤرة واحدة تكشف عن رؤيته الحياتية ٠ أو بعبارة أخرى تقدم الانسان الذى يتطلع إليه الشاعر الصعلوك بصورة جديدة تفترق عن المألوف فهو لا يكتفي بالاعراض عمن يلومه على الانفاق ، ولكنه يُشّهد الناسَ على أنه سيفرّ من المجتمع بسبب ذلك فرارا لا مثيل له ٠ (١)

---

(١) انظر البيتين ٣٠ ، ٣١ من القصيدة المذكورة ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاتمـــــــــة

إن توافق البواعث المتمثل بالاحساس بثالوث الاستعباد والجوع وزراية المجتمع ببعض عناصره أدى إلى تشكيل جماعات خرجت على وحدة القبيلة مطالبة بحقوقها وحقوق غيرها . لكن صلادة المجتمع وتنكره لمطالبها وجّهَا نشاط هذه الجماعات إلى معاداته والإغارة عليه وخرق بعض نواميسه وأعرافه .

ولم تَألُ هذه الجماعات جهدا في تنشيط من وقعوا تحت هذه الظروف ودعوتهم إلى اقامة نقاط تواصل تؤلف بينهم جميعا ، وحثهم على ضرورة توحيد الرؤية والتطلع وأسلوب العيش . وقد أطلق على هذه الجماعات " الصعاليك " .

قابل الصعاليك نبذ المجتمع وترصّده لهم بوضع قدراتهم الجسدية والنفسية في صورة عجيبة من التفرّد والتميّز .وأضفوا مثل ذلك على كل ما يعتزون به ويدخل ضمن دائرة نشاطهم وفاعلياتهم كالسلاح والمرقبة والعدْو وغيره .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل نراهم يتحدثون عن مشاهد غريبة لا يجمع بينها مكان أو زمان في عالم المحسوس كالغول والجن ، لإبراز تميزهم الجسدى والمعنوى حين تقطعت الوشائج بينهم وبين المجتمع والقبيلة . وقد يكون في ذلك تعويض نفسي لهم عما افتقدوه من الخيل (وهي رمز الفروسية عند غيرهم) ، والخيل توصف بالجنون لفرط نشاطها . كما وظف بعضهم الغول ، وحمله صفات كصفات البطل في المسرحية وكان تأبط شرا أكثرهم افتنانا بذكر هذه الغرائب وخاصة بعد إعراض المرأة التي طلب اليها الزواج .

ومن نفس المنطلق (مقابلة استخفاف الواقع بهم) استخفوا بكل مطالب الجسد من مطعم وملبس ومأوى ، إذ بدت لهم أمورا عارضة ، وأظهروا زهدا ماديا عَبّر عن ثراء نفسي .

والمدار الرئيس في ذلك كله هو " الإنسان المنسجم معهم " موقفا وحركة كالتمرد والبحث عن مجتمع بديل يكفل لهم حضورا إنسانيا .

وعلى الرغم من هذا التخلخل بين الصعاليك الشعراء وبين قبائلهم فإن الجذور القبلية لم تنبتّ من نفوسهم ، فكثيرا ما يعاودهم الحنين إليها ، فيعيشون في جدلية نفسية بين الانسياق للذات الروحية (القيم) وجاذبية الحاجة إلى القبيلة . وهم في الأساس لا يحبون قطع أرحام موصولة بشبكة البطولة والأفخاذ وعروق الدم ، إلا في حق ممنوع تتوقف عليه الحياة ، أو في ترصد يحجزهم عن مواصلة السعي ، أو في خلع القبيلة .

أمّا على المستوى الغيبي فقد لاحظنا بعض مواقفهم الجادة بالقوى الغيبية كالتماس الأمن ، والدعاء على العدوّ بسوء الأحدوثة ، ولم يفتهم تقليب البصر في موجودات الكون لاستكناه المجهول .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وأحس شاعرهم بحركة الزمن وما تجرى به من بسط وقبض ، ووصل وفرقه ، وإيجاد وعدم ، وأحس بأن الوجود الإنساني نسبي ومحدود إلى مطلق الزمن غير المحدود • وبرزت أمامه صورة الإنسان الذى ينشده متمردا على القوى الظاهرة •

والدهر عنده في الغالب يعدّ المشكلة الأزلية الكبرى التي تنتظم سلسلة المشكلات والقضايا الوجودية من فرقة وموت ونحوهما •

وقد التقت صور هذا الصراع مع الواقع الفني لشعراء هذه الفئة في اعتدال بعيد عن المبالغات إذا استثنينا حديثهم عن الجن والغيلان • وكل موقف شعرى استدعى ما يماثله من معان وأبحُر وقوافٍ وتراكيب في اللفظ والحرف والصوت • وفي الحركة واللين والسكون •

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Summary & Conclusion

The confrentation of underestimation, hunger and slavery of the society to some of its elements (human beings) resulted in forming groups who rebel against the unity of the tribe asking for their rights and other's reghts. But the powerness and the rejection of the society to their demanding led them to enemity, raid and violation of some norms and traditions.

These groups which had been under similal circumstances and supported them to establish astream of connection among them urging them for the neccessity of having the same desires, ampitions and culture.

The differenciation and individuality which had built the personality of Al-Sa'alik by putting their physical and psychological abilities in aunique from, was the way that they faced the dissmision of the society. Consequently, this had been their activity cycle as using arms, monotoring and running.

New and strong sceneries and names like Ghoul and Djinn have been introduced to distinguesh their physical and moral distinction in the time when their relations with their tribes were severed. This may be a psychological compensation for what they have lost of horses (a symbol of chivallery). Horses were maddened due to their prolonged work.

Some of them described (Al Ghoul) and gave it the protagonist role in a talt or a play. (Taabbata Sharran) admired these creatures especially after the refusal of the woman he asked forher hand.

As they were underestimated, they undervalued trivial physical and psychological needs; therefor, they showed materialistic renunciation which expressed self rechness. The homogenious human being was the main objective of the whole action like munity and searching for a detachment

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

society which guaranteed their human presence.

Inspite of idistability, between the Sa'alik the poets and their tribes, the roots of the tribe had not been uanished from their spirits; when they feel the nostalgia, they live in apsychological argument between following their spritual norms and the neccessity of belonging to their tribes. In fact they didn't like stopping strong relative relations connected championship and blood unless in a serious situation that ingluences the unity of the tribe.

Concerning the mytaphysical forces , we noticed some of their of their serious attitudes and beliefs in mytaphysics, as looking for security and safety asking God to cures their enemies, not egnoring their obsenation in what is around in the universe to know what is hidden. Their poet felt the time revolvment and what is happening around such as ease and adverse, ties and parting and being or non-being. Accordingly, he felt that human existance is relative and limited to the absolute time.

The image of the mutenous human being he is looking for, appeared mutining against mytaphysics forces as well as mutining against visible forces. In general, time was the biggest eternal problem which regulated a series of existing difficulties like portion, death and so on.

To sumup, the images of this Conglect had met with the poet's technical reality of this group in arealistic way far from exaggiration exept when talking about fairies and Ghoul.

Every poetic scene requires an apponent that is similar in meaning, ryhm, rhythm and phonological structure.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التعريف بالشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :-

١. أبو جندب الهذلي :

هو أبو جندب بن مرة القردى الهذلي، من الذؤبان الصعاليك . شاعر جاهلي من هذيل . عرف عنه الأباء الشديد والوفاء . وهو أحد عشر اخوة بينهم أبو خراش الهذلي ،كانوا جميعا شعراء دهاة سراعا لا يدركون .(١)

٢. أبو خراش الهذلي:(٢)

هو خويلد بن مرة بن قرد بن عمرو ، كان فارسا في الجاهلية ، فاتكا وعداء لا تدركه الخيل وكان له سبعة إخوة كلهم عداء ون ، تأخر في الدخول في الاسلام ثم أسلم وحسن اسلامه ، وقيل مات في زمن عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " نهشته حية وهو صحابي أكثر شعره في الرثاء .

٣. أبو الطمحان القيني :(٣)

اسمه حنظلة بن الشرقي من بني كنانة بن القين بن تغلب ، عاش في الجاهلية والاسلام وقالوا انه من المعمرين . كان شاعرا فارسا صعلوكا فاسدا ، وكان تَربا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ونديما له ، وأخباره في الجاهلية كثيرة ، كان كثيرا ما يُغير ويُغار عليه ويؤسر ثم يلوذ ببعض القبائل مستخفيا من جناياته .

٤. أبو كبير الهذلي :(٤)

هو عامر بن الحيس من بني سعد بن هذيل شاعر جاهلي فحل من شعراء الحماسة ، معظم شعره في وصف حياة الفروسية ، ترجم شعره إلى الفرنسية . تزوج من أمّ تأبط شرا وكان الأخير صغيرا ، فلما رأى أبا كبير يكثر الدخول على أمه تنكر له ودبر له مكيدة ، أتى إلى الرسول عليه السلام بعد أن أسلم طالبا أن يَحِلّ له الزنا ، فقال عليه السلام أتحب أن يؤتى إليك مثل ذلك ، قال : لا ، قال : فارْضَ لأخيك ما ترضى لنفسك ودعا له النبي .

---

(١) الشعر والشعراء ، ص ٦٦٥ ، الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ٢١٥ .

(٢) ديوان الحماسة / التبريزى ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ ، الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ٣٨ - ٤٨ .

(٣) خزانة الأدب للبغدادى ، جـ ٣ ، ص ٤٢٦ ، الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٣ - ١٤ ، ديوان الحماسة ، التبريزى ، جـ ٢ ، ص ٦٦ .

(٤) الشعر والشعراء ، ص ٦٧٠ ، تاريخ الأدب / بروكلمان ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

---

(٣) الأغاني ، جـ ١٨ ، ص ٢٠٩ ، المفضليات ، ص ٢٧ .

(٤) الاشتقاق ، ص ٥١٤ ، الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ .

(٥) الشعر والشعراء ، ص ٣٦٥ ، الاشتقاق ، ص ٢٤٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٠٥ **الأحيمر السعدى :**[١]

هو الأحيمر بن الحارث بن يزيد السعدى ، جاهلي وقيل مخضرم وقيل غير ذلك على خلاف ، شاعر لص صعلوك ورد على لسانه أنه قال : كنت ممن خلعني قومي فهربت وجزت نخل وبار وصرت إلى مواضع لم يصل أحد اليها قط قبلي ، عشت مع الظباء والذئاب ٠

كما كان يتنقل بين العراق وفارس والشام واليمن ٠

٠٦ **الأعلم الهذلي :**[٢]

هو حبيب بن عبد الله الهذلي وهو أخو صخر الغي ومن العدائين البارزين ، وكان يتزعم إحدى العصابات من الصعاليك ، اشتهر بارتياد القفار التي جعلت منه وصّافا مجيدا لحيوانات الصحراء ووحوشها ٠

٠٧ **تأبط شرا :**[٣]

هو ثابت بن جابر بن سفيان ، سمي تأبط شرا لأنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه أين هو ؟ فقالت تأبط شرّاً وخرج وكان أحد لصوص العرب المغيرين ، قرينا للشنفرى الأزدى وعمرو بن براق وكانوا ثلاثتهم من العدائين لم تلحقهم الخيل ٠ وكان من مشاهير الشعراء المجيدين ٠ وهو أظهر من تحدث عن الجن والغيلان ٠

روى عنه روايات عجيبة تتعلق بعدوّه وتحمّله المشاقّ أكثرها في " الأغاني " ٠

٠٨ **حاجز الأزدى :**[٤]

هو حاجز بن عوف بن الحرث بن سلامان وهو حليف لبني مخزوم ٠ وهو شاعر جاهلي مُقِلّ ليس من مشهورى الشعراء وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب وممن كان يعدو على رجليه عَدْواً يسبق الخيل ٠ كانت نهايته أنه خرج في بعض أسفاره فلم يعد ولا عرف له خبر فقيل إنه مات عطشا أو ضلّ الطريق فمات ٠

٠٩ **السُّلَيْك بن السُّلَكة :**[٥]

هو السليك بن عمرو بن السنان بن عمير بن الحارث والسليك بالتصغير فرخ الحجلة أو فرخ القطا ، حيث لفرخ الحجلة خاصية في الاختفاء فسمي بذلك ، والسليك أحد من نسب لامه من الشعراء وأسمها سُلَكة وكانت أمَةً سوداء ٠

---

(١) العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ١١٧ ، الشعر والشعراء ، ص ٧٨٨ ٠
(٢) تاريخ الأدب ، بلاشيز ، ٤/٥٥٩ ، المؤتلف والمختلف ، ص ١٣١ ٠
(٣) الأغاني ، جـ ١٨ ، ص ٢٠٩ ، المفضليات ، ص ٢٧ ٠
(٤) الاشتقاق ، ص ٥١٤ ، الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٤٩ ٠
(٥) الشعر والشعراء ، ص ٣٦٥ ، الاشتقاق ، ص ٢٤٦ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو شاعر من شعراء العرب قبل الاسلام وأحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم وعدائيهم تعرض بسبب سواده إلى السخرية والاستهزاء .

١٠. الشَّنفرى الأزدى :

" اسمه ثابت بن أوس ، والشنفرى لقبه بمعنى غليظ الشفتين . نشأ في اليمن وعاش في بني سلامان أسيرا عبدا وأحس الذل في بني سلامان فلجأ إلى الصعلكة ، وكان أحد ثلاثة عرفوا بالقوة والعدو النادرين ، هو وتأبط شرا وعمرو بن براقة .

وكان يغير على الذين سبوه . ويروى أنه كان يدعو تأبط شراً أمه لقضاء حوائجه وحوائج غيره . وهو صاحب لامية العرب التي ترجمت إلى خمس لغات أجنبية "[١].

١١. صخر الغي :

" هو صخر الغي بن عبد الله الخيثمي أحد بني خيثم بن هذيل ، ولقّب بصخر الغي لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره . وهو شاعر جاهلي صعلوك ولصخر وأبي المثلم مناقضات وقصائد قالاها وأجاب كل واحد منهما صاحبه . تعرض لمطاردات كثيرة هو وأخواه الأعلم وصخير حتى لم يكادوا يبصروا من شدة العطش وشدة السموم . يدور معظم شعره حول صراعه مع أعدائه ومع أبي المثلم وفي الرثاء "[٢].

١٢. عَبْدة بن الطبيب :

" واسم أبيه يزيد بن عمرو بن وعلة ، من بني عبد شمس من تميم . وكان عبدة أسود ، وهو من لصوص الرباب . أدرك الاسلام فأسلم . وهو شاعر مجيد ليس بالمكثر . وذكر أنه كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة . وكان في جيش النعمان بن المقرن الذى حارب الفرس بالمدائن. وقد اهتم القدماء خاصة بشعره والاستشهاد به "[٣]

١٣. عروة بن الورد : بن زيد بن عبد الله ... بن نزار :

" شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين من المقدمين الاجواد ، وكان يلقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم اذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ، قدمه عبد الملك بن مروان على حاتم في السماحة وقال فيه : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني ولدني إلا عروة لقوله :

---

(١) ديوان الحماسة ، جـ ١ ، ص ١٨٨ ، المفضليات ، ص ١٠٨ ، العقد الفريد ، ١/٣٠ .

(٢) الأغاني ، جـ ٢٠ ، ص ٢١ ، الحيوان ٢/٢١٠ . المؤتلف ، ١٨٢ .

(٣) حماسة أبي تمام / التبريزى ١/٢٢٨ ، المفضليات ، ص ١٣٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإنّي امرؤ عافي إنائي شِركةٌ وأنتَ امرؤ عافي إنائِكَ واحدُ

وأعجب معاوية أيضا لنفس المواقف "(١)

١٤. **عمرو بن براقة الهمداني :**

" من شعراء اللصوص والصعلكة ، وهو فاتك جرىء ، نسب إلى أمه واسم أبيه منبه بن نهم بن ربيعة . وهو شاعر جاهلي أدرك الاسلام ، أخباره في الجاهلية كثيرة وقليلة في الاسلام ، ويعدّ أحد الصعاليك العدائين الذين لا يلحقون إذا عدوا وهم : السليك والشنفرى وتأبط شرا ونفيل بن براقة . عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب ووفد عليه .

له قصيدة ميمية مشهورة تناقلتها كتب الأدب ، ومطلعها :

تَقُولُ سُلَيْمى لا تعرّضْ لِتَلْفَةٍ وَلَيْلَك عن ليلِ الصعاليك نائمُ"(٢)

١٥. **قيس بن الحدادية :**

هو قيس بن منقذ بن عمرو ، والجدادية أمّه . وهو شاعر من شعراء الجاهلية وكان فاتكا شجاعا صعلوكا خليعا ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه ، فلا تحتمل جريرة ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه . وكان يجمع شذاذا من العرب وفتاكا من قومه ويغير بهم على قومه ، وكان مأوى للصعاليك والشذاذ الخلعاء . وله شعر كثير بعضه بقومه قبل خلعه والآخر في دائرة الصعلكة ."(٣)

١٦. **قيس بن العيزارة :**

" اسمه قيس من خويلد ، والعيزارة لقب أمه ، وبها يعرف ولهذا اللفظ دلالة خبيثة . وقيس أحد صعاليك العرب . وقع أسيرا في يد قبيلة فهم ، فتذكر داره وقومه ودورهم ، فقال في ذلك شعرا رقيقا ، تناقلته كتب الأدب القديمة "(٤) .

١٧. **مالك بن حريم (صريم) :**

" شاعر فحل جاهلي ، من أشهر لصوص همدان وأشدهم إغارة ، وشعره يكشف عن شخصية قوية كريمة تدعو لالتزام منهج الخلق الحميد فيما تقضيه الصلات الاجتماعية ، وبعدّه النقاد من القليلين الذين رويت لهم قصائد طويلة من بين الصعاليك . وقد كان بينه وبين معد يكرب منافرات شعرية "(٥) .

---

(١) الأغاني ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ ، الأصمعيات ، ص ٤٢ .
(٢) المؤتلف والمختلف ، ص ٨٨ ، الأغاني ، جـ ٢٠ ، ص ٣٧٥ .
(٣) الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٢ ، الشعر والشعراء ، ص ١٥٩ .
(٤) موسوعة الشعر العربي ، ٤/٥٧٠ ، معجم الشعراء ، ص ٢٠٢ .
(٥) الأصمعيات ، ص ٦٢ ، الأغاني ، جـ ١٤ ، ص ٢٥ ، حماسة أبي تمام ، جـ ٢ ، ص ٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثبت المصادر والمراجع

٠١	الآمدي	: المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار احمد فراج / دار احياء الكتب ، ١٩٦٨ ٠
٠٢	الابشيهي	: المستطرف في كل فن مستظرف ، دار الفكر ، بيروت ، د٠ت ٠
٠٣	احمد أمين	: فجر الاسلام / دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ط ١٠ ٠
٠٤	احمد كمال زكي	: أشعار الهذليين في العصرين الجاهلي والاسلامي / دار الفكر العربي ، القاهره ، ١٩٦٩ ٠
٠٥	أدونيس	: مقدمة للشعر العربي / دار العودة بيروت ، ١٩٧٥ ، ط ٢ ٠
٠٦	الأصمعي	: الاصمعيات ، تحقيق احمد محمد شاكر ، و عبد السلام محمد هارون بيروت ، ط ٥ ٠
٠٧	البحتري	: حماسة البحتري / تحقيق لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي / بيروت ، ١٩٦٧ ، ط ٢ ٠
٠٨	البكري	: معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب / بيروت ١٩٨٣ ، ط ٣ ٠
٠٩	ابو تمام	: ديوان الحماسة ، شرح التبريزي ، دار القلم / بيروت ، د ٠ ت ٠
١٠	الجاحظ	: الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ ٠
١١	حسين مروه	: النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ، دار الفارابي ، بيروت ، د ٠ ت ٠
١٢	حميد آدم تويني وكامل سعيد عواد	: السليك بن السلكه ، أشعاره واخباره / بغداد ، ١٩٨٤ ٠
١٣	ابن خلدون	: مقدمة ابن خلدون / دار الكتب العلمية / بيروت ، ١٩٧٨ ، ط ٤ ٠
١٤	الخطيب البغدادي	: تاريخ بغداد / دار الكتاب العربي / بيروت ، د ٠ ت ٠
١٥	ابن دريد	: جمهرة اللغة ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهره ، ١٣٤٥ هـ ٠
١٦	ابن دريد	: الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مؤسسة الخانجي / مصر ١٩٥٨ ٠
١٧	ابن رشيق القيرواني	: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ١٩٧٢ ، ط ٤ ٠
١٨	زكريا ابراهيم	: مشكلة الانسان ، مكتبة مصر ، القاهره ، ١٩٧٠ ٠٠
١٩	زكريا ابراهيم	: مشكلة الحرية ، مكتبة مصر ، القاهره ، ١٩٧١ ٠
٢٠	زكريا ابراهيم	: المشكلة الخلقية ، مكتبة مصر ، القاهره ، ط ٢ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تابع ثبت المصادر والمراجع

٠٢١ زكي نجيب محفوظ : في فلسفة النقد ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩ ٠

٠٢٢ الزمخشري : أعجب العجب في شرح لامية العرب ، تحقيق محمد ابراهيم حور سعد الدين ، دمشق ، ١٩٨٧ ٠

٠٢٣ السكري : شرح أشعار الهذليين ، دار نشر جورج أولمبس ، د ٠ ت ٠

٠٢٤ شفيق البقاعي : الأنواع الأدبية ، مؤسسة عز الدين ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ط ١ ٠

٠٢٥ شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهره ، د ٠ ت ٠

٠٢٦ صالح ابو أصبع : الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ط ١ ٠

٠٢٧ صلاح عبد الصبور : حياتي في الشعر ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

٠٢٨ صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي / دار الآفاق الحديثة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ط ٢ ٠

٠٢٩ عادل العوا : المذاهب الاخلاقية ، مطبعة جامعة دمشق - دمشق - ١٩٦٤ ٠

٠٣٠ عادل العوا : القيمة الاخلاقية ، مطبعة جامعة دمشق - دمشق ، ١٩٦٢ ٠

٠٣١ عبد الحليم حفني : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ٠

٠٣٢ عبد الرزاق الخشروم : الغربة في الشعر الجاهلي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٢ ٠

٠٣٣ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ ٠

٠٣٤ عبد العزيز القوصي : علم النفس اسسه وتطبيقاته التربوية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهره ، ١٩٧٨ ٠

٠٣٥ عبد العزيز المقالح : الشعر بين الرؤيا والتشكيل ، دار العودة / بيروت ، ١٩٨١ ٠

٠٣٦ عبد العزيز الميمني : الطرائف الأدبية / ديوان الشنفرى / دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٣٧ ٠

٠٣٧ عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في النقد الشعرى / دراسة في النظرية والتطبيق ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ ٠

٠٣٨ عبد اللطيف شراره : فلسفة الحب عند العرب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٠ ٠

٠٣٩ عبد اللطيف الملوحي : أشعار اللصوص وأخبارهم ، درا اسامة / د ٠ ت ٠

٠٤٠ عبده بدوى : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ٠

٠٤١ عروة بن الورد : ديوان عروة بن الورد / شرح ابن السكيت / تحقيق عبد المعين الملوحي ، وزارة الثقافة والارشاد القومي / دمشق ٠ ، د ٠ ت ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تابع ثبت المصادر والمراجع

٠٤٢ عز الدين اسماعيل : الفن والانسان / دار العلم / بيروت ، ١٩٧٤ ، ط ١ ٠

٠٤٣ عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب / مكتبة غريب ، القاهره ، ط ٤ ٠

٠٤٤ عفيف عبد الرحمن : معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣ ٠

٠٤٥ علي ذو الفقار : ديوان تأبط شرا ، دار الغرب الاسلامي ، ١٩٨٤ ، ط ١ ٠

٠٤٦ علي شلق : المتنبي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ ، ط ١ ٠

٠٤٧ علي بن محمد الشريف : كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٨ ٠

٠٤٨ ابو الفرج الاصفهاني : الأغاني ، عن (بولاق) الناشران : صلاح يوسف خليل ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

٠٤٩ ابو علي القالي : الأمالي في لغة العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ ٠

٠٥٠ القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ٠

٠٥١ محمد رياض : الانسان - دراسة في النوع والحضارة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ط ٢ ٠

٠٥٢ محمد زكي العشماوى : قضايا النقد الأدبي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ ٠

٠٥٣ محمد زكي العشماوى : فلسفة الجمال في الفكر المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ ٠

٠٥٤ محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ، دار الثقافة ودار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣ ٠

٠٥٥ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي : ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهره ، ١٣٨٥ هـ ٠

٠٥٦ محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر ، القاهره ، د ٠ ت ٠

٠٥٧ المرزباني : معجم الشعراء /القدسي / القاهره ، ١٣٥٤ هـ ٠

٠٥٨ المسعودى : مروج الذهب / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر بيروت ، ١٩٧٣ ، ط ٥ ٠

٠٥٩ مصطفى حجازى : التخلف الاجتماعي / مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور ، معهد الاتحاد العربي / فرع لبنان / لبنان ، د ٠ ت ٠

٠٦٠ مصطفى محمود : لغز الموت / دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢ ٠

٠٦١ مصطفى ناصيف : قراءة ثانية لشعرنا العربي ، دار الاندلس ، ١٩٨١ ، ط ٢ ٠

٠٦٢ ابن المعتز : طبقات الشعراء / تحقيق عبد الستار السيد / دار المعارف ، ط ٤ ، د ٠ ت ٠

٠٦٣ ابن منظور : لسان العرب / دار صادر / بيروت ، د ٠ ت ٠

٠٦٤ المفضل الضبي : المفضليات / تحقيق احمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، ط ٦ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تابع ثبت المصادر والمراجع

٠٦٥ يحيى الجبورى : قصائد جاهلية نادرة / مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ط ١ ٠

٠٦٦ اليعقوبي : التاريخ الكبير / طبعة باتاڤاوزن ، د٠ت ٠

٠٦٧ يوسف خليف : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ٠ دار المعارف / القاهره ، ١٩٦٦ ، ط ٢ ٠

المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة

٠٦٨ البير كامو : الانسان المتمرد ، ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ط ٣ ٠

٠٦٩ بيتر فاب : بنو الانسان / ترجمة زهير الكرمي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٣ ٠

٠٧٠ جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، ط ٢ ٠

٠٧١ ر٠ م ماكيفر وتشارلز : المجتمع / ترجمة علي أحمد عيسى / مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٤ ، ط ٣ ٠

٠٧٢ كريستوفر كودويل : الوهم والواقع ، ترجمة توفيق الأسدى ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ط ١ ٠

٠٧٣ لوميلا بويڤا : الانسان / نشاط وتواصل ، ترجمة زياد الملاّ ، دار دمشق للطباعة والنشر - دمشق ، ١٩٨٣ ، ط ١ ٠

٠٧٤ الليكس كاريل : الانسان ذلك المجهول / تعريف شفيق اسعد فريد ، مكتبة المعارف ، ١٩٧٧ ، ط ٢ ٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس المحتـــوى

الموضـــــــــوع	الصفحـه
التقديـــم	
المقدمـــة	أ ـ جـ
تمهـــيد (ملامح الحياة العربية في العصر الجاهلي)	١ ـ ١٤
الفصل الأول	
الحياة المادية في شعر الصعاليك	١٥ ـ ٤٨
مفهوم الانسان ومشكلاتـه	١٦
الصعلكة والصعاليـــك	١٩
الحياة الاقتصادية عند الشعراء الصعاليك	٢١
مشكلة الغـــــذاء	٢١
اللباس والزينـــــة	٣١
المسكن / المرقبـــة	٣٦
الســـلاح :	٤٠
أ ـ الأداة	٤٠
ب ـ القوة الجسدية	٤٤
الفصل الثاني	
الحاجات الروحية عند الشعراء الصعاليك	٤٩ ـ ٨١
مشكلة الحريـــــة	٥٠
الايثـــــــار	٥٧
الصـــــــبر	٦١
موقفهم الوجودي مـــن :	٦٣
٠١ الزمن والموت	٦٣
٠٢ الخرافة والاسطورة	٧٤
٠٣ الجن والغـــول	٧٨
الفصل الثالث	
العلاقات الاجتماعية في شعر الصعاليك	٨٢ ـ ١٢٧
العلاقـات	٨٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تابع فهرس المحتوى

الموضـــــوع	الصفحـــه
علاقة الشاعر بقبيلته	٨٣
المجتمع البدبـــل	٨٨
الأبـــــوان	٩٥
الأبنـــــاء	٩٩
الاخوة والرفـــاق	١٠٣
الجـــــار	١٠٩
المـــــرأة	١١٢
القبائـل الأخـــرى	١١٩
الفصل الرابـع	
علاقة الانسان بموجودات الكون	١٢٨ ـ ١٩٠
الوطن / الديـــار	١٢٩
الطبيعـــــه	١٣٧
الأرض وبعض مكوناتها في شعرهم	١٣٨
الليـــــل	١٤٦
الشمس والكواكـــب	١٥٢
المـــــاء	١٥٤
الحيـــــوان	١٥٨
أ ـ الأبنـــد	١٥٨
ب ـ الحيوان الأليف	١٧٨
الفصل الخامس	
القضايا الفنية المتعلقة بالانسان في شعر الصعاليك	١٩١ ـ ٢١٦
اللغـــــة	١٩٢
الجانب الصـــورى	١٩٦
أ ـ التحوليـــه	١٩٦
ب ـ الصراع الداخلي	٢٠١
الموسيقى الشعريـــة	٢٠٧
أ ـ تناغم الوزن مع الموقف النفسي	٢٠٩
ب ـ الأبحر العروضيـــة	١١٢

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تابع فهرس المحتوى

الموضـــــــوع	الصفحـــــه
نص شعري لتأبط شـــــرًا	٢١٧
تحليل النص	٢١٩
الخاتمـــــــــــــة	٢٢١
التعريف بالشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي	٢٢٥
ثبت المصادر والمراجع	٢٢٩
فهرس المحتـــــــــوى	٢٣٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University